دراسة فى الأديان
٢

النبوة والأنبياء
فى
اليهودية والمسيحية والإسلام

لواء أحمد عبد الوهاب

طبعة مزيدة منقحة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



مقدمة

﴿ الحَمْدُ للَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ﴾ . (الأعراف : ٤٣) .

* *

أما بعد .. فهذا هو الجزء الثانى من سلسلة « **دراسة فى الأديان** » وموضوعه : « **النبوّة والأنبياء** » يصدر عقب فترة وجيزة من صدور الجزء الأول وموضوعه : « **الوحى والملائكة** » . لقد كانت خاتمة ذلك الجزء الأول تقول :

« هذا .. وبعد أن عرضنا ركيزتين من ركائز الإيمان هما : الملائكة والوحى ، ورأينا كيف تآلفت فيهما اليهودية والمسيحية والإسلام ، فإن ما ينتظرنا هو عرض الركيزة الثالثة التى تجمع هذا وذاك ، ثم تزيد عليه بما يحقق أمن الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة ، ألا وهى : النبوّة والأنبياء ، والتى أرجو أن تكون هى الجزء الثانى من هذه السلسلة » .

والحق أن الجزئين متكاملان ، فبالإضافة لكونهما الأساس المشترك لقاعدة « **الإيمان** » نجد أن « **النبوّة** » ترتبط بـ « **الوحى** » إرتباطاً تاماً ، فلا نبوّة بغير الوحى ، وكذلك يرتبط الوحى بـ « **الملائكة** » ، فجميعها حلقات متصلة لا تقبل الفصل .

وإذا كان الجزء الثالث من هذه السلسلة ، وموضوعه : « **المسيح – فى مصادر العقائد المسيحية** » قد صدر سابقاً لجزئيها الأول والثانى بأكثر من عام ، فمرد ذلك إلى ظروف خارجة عن الإرادة ومسائل إجرائية اقتضت ذلك الوضع الذى خشيتُ معه ألا أتمكن من إصدار الجزئين الأول والثانى ، مما دفعنى إلى إصدار الجزء الثالث دون ترقيم ، بعد أن استنفد من الجهد والعناية المركزة الشىء الكثير .

* *

وفى هذا الكتاب : « النبوَّة والأنبياء » ، نجد حديثاً عن مفهوم النبوَّة ومظاهر التنبؤ وحقيقة الأنبياء وشيئاً من سلوكهم وأحوالهم ، مع بيان الملامح المشتركة بينهم والخصائص المميزة لكل منهم .

لقد جرى التركيز على دراسة « النبوَّة فى بنى إسرائيل » باعتبارهم طائفة تكاثر فيها الأنبياء ، وربطت وجودها بوجودهم أثناء حياتهم وبالأسفار التى حملت أسماءهم بعد وفاتهم .

إن « إسرائيل » لم تزدحم بالأنبياء الحقيقيين قدر إزدحامها بالأنبياء المحترفين الذين ازدادوا فيها زيادة مخيفة جعلت الجيل الواحد يشهد أكثر من ٤٥٠ من ذلك الصنف الضليل . لقد ربط أولئك المحترفون أنفسهم بأهل الضلال من حكام إسرائيل - وما كان لهم من وسيلة للتعيش سوى ذلك - فأفسد ذلك شعبهم وعجَّل بنهاية دولتهم رغم جهاد الأنبياء الحقيقيين ضدهم لإنقاذ تلك الأوضاع المتردية ومحاولة الإفلات من سوء المصير المرتقَب .

فمن المعلوم أن محاولة خلق أول كيان سياسى « لإسرائيل » بدأت على عهد شاول (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق . م) ، وانتهت « بكفاح مرير مع الفلسطينيين الذين أغاروا مرة على المملكة (الوليدة) فى قوة كبيرة ، ووقعت المعركة الفاصلة على منحدرات جبل جلبوع حيث لقى شاول وثلاثة من أبنائه حتفهم » [١] .

ولقد خلف داود شاول (١٠٠٠ - ٩٦٥ ق . م) ثم « ورث سليمان داود » (٩٦٥ - ٩٢٦ ق . م) .

يقول چيمس باركس : « لقد كانت المملكة التى أقامها داود قصيرة العمر ، فقد انقسمت بمجرد موت ابنه سليمان إلى قسمين : أحدهما المملكة الجنوبية أو مملكة يهوذا (وكانت قليلة العدد تضم سبطين فقط هما يهوذا وبنيامين وعاشت من ٩٢٦ إلى ٥٨٦ ق . م) ، وقد اتخذت أورشليم التى استولى عليها داود من اليبوسيين عاصمة لها ، وانتسب إليها اليهود فيما بعد .

---

(١) أطلس إسرائيل الحديث - ١٩٦٨ (مرجع إسرائيلى حكومى) .

والثانية المملكة الشمالية أو مملكة إسرائيل (وتضم الأسباط العشرة الآخرين وعاشت من ٩٢٦ إلى ٧٢١ ق . م) ، وقد صارت السامرة عاصمة لها وانتسب إليها السامريون .

ولقد كان من النادر وجود صفاء بين هاتين الولايتين الصغيرتين ، بل كانتا غالباً فى عداء سافر . وعلى أية حال فقد استطاعتا البقاء فترة من الزمن لسبب واحد فقط وهو أن أياً من الإمبراطوريات القديمة (المصرية والآشورية) لم ترغب فى مد حدودها على حسابها » [١] .

وأخيراً جاء الطوفان البشرى من الآشوريين الذين اجتاحوا مملكة الشمال ووضعوا نهايتها عام ٧٢١ ق . م وسبوا كل شعبها إلى آشور حيث ذابوا فى غيرهم من الشعوب وانقطع خبرهم من التاريخ .

بعد ذلك جاء البابليون واكتسحوا مملكة الجنوب ودمروا أورشليم وأحرقوا الهيكل عام ٥٨٦ ق . م وسبوا شعبها إلى بابل .

وفى مملكة الشمال ظهر الأنبياء إلياس واليشع وعاموس ، كما ظهر فى مملكة الجنوب أشعياء وميخا وأرميا ، وفى السبى البابلى وُجِدَ حزقيال ودانيال . وبجانب هؤلاء وغيرهم من رجال الله ، ظهر أنبياء كَذَبة محترفون .

*

كذلك - جرى التركيز على دراسة « النبوّة فى بنى إسرائيل » لسبب آخر جوهرى - غير كثرة الأنبياء فيهم - وهو أن أنبياء الله إليهم يعتبرون عنصراً رئيسياً من عناصر الإيمان التى يشترك فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون .

لكن النبوّة فى « بنى إسرائيل » ليست إلا حلقة من سلسلة النبوّة فى العالم .

---

(١) James Parks : A History of the Jewish People , Penguin Books , 1964 , pp . 10, 11.

« **فالحق** » يقول : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيٍّ فِى الأَوَّلِينَ ﴾ [1] ، ويقول – سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [2] .

من أجل ذلك سوف نتشرف بالحديث عن كبار الأنبياء من أُولى العزم من الرسل ، أولئك الذين جعلهم اللّه أئمة يُقْتَدى بهم ، وتتردد ذكراهم العطرة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين .

*

ولقد دأبتُ على الاستشهاد بنصوص الكتب المقدسة ، بل وتكرر الاستشهاد ببعض النصوص – ولا حَرَج – فقد يُذكر النص لبيان أحد الجوانب ، كما يُذكر نفس النص مرة أخرى لبيان جانب آخر ، وفى هذه الحالة لا داعى لبيان موقعه من الكتب المقدسة اكتفاءً بما سبقت الإشارة إليه . وذلك بالإضافة إلى هدف آخر حرصتُ عليه فى كل كتبى التى تتحدث فى مثل هذه الموضوعات وهو تعريف أصحاب العقائد المختلفة ما لدى الآخرين من نصوص مقدسة .

*

وإذا بقى ما يُقال فهو كلمة شكر تُقَدَّم إلى **وداد صالح** – الزوجة الصالحة – التى هيأت البيئة الصالحة للبحث والدراسة ، وتحملت فى سبيل ذلك من المشاق الشىء الكثير ، راضية شجاعة وخاصة فى الشدائد والأزمات .

أثابها اللّه بأكثر مما هى أهل له ...

*   *

وأخيراً .. نختتم مقدمة كتاب « النبوّة والأنبياء » بقول **الحق** الذى لا ريب فيه :

﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [3] .

---

(1) الزخرف : ٦ (2) المؤمنون : ٤٤ (3) البقرة : ١٣٦

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقاً ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١) .

أحمد عبد الوهاب

* * *

(١) النساء : ١٥٠ – ١٥٢

مدخل لدراسة النبوة والنبيين

« ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء ، إذ جعل الرب روحه عليهم ».

(سِفر العدد ١١ : ٢٩)

*

« لم تأت نبوءة قط بمشيئة إنسان ، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » .

(رسالة بطرس الثانية : ١ : ٢١)

*

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ .

(مريم : ٥٨)

*



مدخل لدراسة النبوّة والنبيين

دين الله واحد ، ما فى ذلك شك ...

ومحال أن يُرسِل الله رسلاً ويتخذ أنبياء ، ثم يقوم أى منهم بالدعوة إلى غير دين الحق .. دين التوحيد الخالص الذى لا شبهة فيه .

فالمنطق يقضى بألا نجد ديانات سماوية متعددة ، بل نجد ديناً سماوياً واحداً جاء به الأنبياء والمرسلون عبر القرون والأزمان .

ويمكن البرهنة على أن دين البَشرية الأولى كان واحداً فى شكله ، توحيدياً فى موضوعه ، ويقوم أساساً على إسلام الوجه وتطويع القلب لله ، ومن هذه البراهين :

١ - يؤمن أتباع الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - بأن آدم هو أب البشرية كلها ، وهو صنعة الله المباشرة ، وأول المؤمنين من البَشر ؛ فالعقيدة الحقة التى كان عليها آدم هى التوحيد الخالص . تلك حقيقة أوّلية تتفق عليها الكتب المقدسة .

ومن الطبيعى أن تكون هذه هى عقيدة الأجيال اللاحقة له من أبنائه . فإذا حدث خلاف بين البَشر وظهرت فيهم عقائد مختلفات - وكما هو حادث الآن - فمرد ذلك ومصدره إلى طغيان الإنسان ومحاولاته التدخل فى دين الله ، بغياً على الحق بغير حق . وبذلك يكون نتاج اختلاف البَشرية الأولى عقائد فاسدة ، وأفكاراً منحرفة كلها بعيدة عن الحق إلا عقيدة التوحيد الخالص .

٢ - أثبتت أبحاث العالِم الألمانى الدكتور ميللر - الذى كانت له اليد الطولى فى حل رموز السنسكَريتية بالهند : « **أن الناس كانوا فى أقدم عهودهم على التوحيد الخالص ، وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين** » [١] .

---

(١) من مقدمة « تفصيل آيات القرآن الحكيم » وضعه بالفرنسية : جول لابوم - نقله إلى العربية : محمد فؤاد عبد الباقى .

٣ – وفى دراسة عن عقائد القبائل الوثنية فى إفريقيا وُجدَ « **أن فكرة الله الأعلى ، تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء والشاملة القدرة ، نجده بين كثير من القبائل** ، كالزولو بجنوب إفريقيا والبايراوندا والاشانتى بساحل العاج ، والآكان بغانا ، واليروبابنيجيريا والبوكونجو بأنجولا ، والنجومية بالكونغو ، ومن اليسير إعطاء أمثلة كثيرة غير ما سبق لولا ضيق المقام .

على أننا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام وهم أقدم سلالات إفريقيا ، كائناً أعلى يطلقون عليه اسم مونجو .. وإلى هذا الكائن الأعلى يعزو الأقزام أيضاً خلق جميع الأشياء وأنها ترجع إليه ...

كما أن هناك أسطورة من قبائل لشاجا بتنزانيا تروى أن الله قد غضب من أعمال البَشر فأهلكهم فيما عدا قلة . وجلى مدى التشابه بين هذه الأسطورة وقصة سيدنا نوح . ويروى البامبوتى والتشاجا والميروكيف أن الرب حرَّم أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض .. وجميع الأديان الإفريقية التقليدية تعتقد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر ، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته فى عالَم الأرواح .

ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً فى هذه الديانات بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثيرون .. وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلاً أن الله – مع أنه يشفى من المرض – قد يُصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة » [1] .

*

وخلاصة القول الفصل فى هذا المقام هو ما قرره القرآن الكريم إجمالاً فى سورة يونس – المكية – إذ يقول :

---

(١) الرب والله وجوجو (الأديان فى إفريقية المعاصرة) – تأليف القس چاك مندلسون – ترجمة إبراهيم أسعد – ص ١٠٨

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ .. ﴾ (يونس : ١٩) .

ثم ما قرره تفصيلاً فى سورة البقرة – المدنية – إذ يقول :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : ٢١٣) .

ومن هنا يتضح لنا حتمية الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين طالما كانت دعوتهم إلى الله الواحد الأحد خالق السموات والأرض وخالق البَشر من أبيهم آدم .

ولما كان أنبياء العهد القديم – أو بالحرى الذين ورد ذكرهم فى أسفار العهد القديم – يمثلون الأساس المشترك الذى تقوم عليه عقائد اليهود والمسيحيين والمسلمين ، كان من اللازم أن نُركِّز على ما يذكره العهد القديم فى موضوع النبوّة والنبيين .

* *

● الصورة العامة لأنبياء العهد القديم :

لقد أولى الكثير من العلماء موضوع الأنبياء فى العهد القديم – ما يستحقه من دراسة وتمحيص ومن أمثلة لبعض الدراسات الجادة فى هذا الموضوع ، ما قام به **إريك ويليام هيتون** [١] فى كتابه « **أنبياء العهد القديم** » .

ولقد عالج هيتون فى دراسته عدة نقاط منها : لفظ النبى ، الذى استُخْدِمَ بكثرة فى أسفار العهد القديم ، ومدلول هذا اللّفظ والأنبياء الحقيقيين والأنبياء المحترفين الكذّابين الذين ازدحمت بهم إسرائيل وخاصة فى القرنين الثامن

(١) أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة أوكسفورد .

والسابع قبل الميلاد - ومظاهر النبوّة ووسائل التنبؤ ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع .

ورغم أن هيتون ركّزَ فى دراسته على أنبياء العهد القديم ابتداءً من موسى ومَن جاء بعده - وكان من الممكن أن يمدها لتشمل الأنبياء الغابرين الذين تذكرهم أسفار العهد القديم ، خاصة وأن كتابه هذا إنما هو طبعة حديثة لنفس البحث الذى ظهر لأول مرة عام **١٩٤٩** تحت عنوان : « **عبيده الأنبياء** » فسوف نعرض لشىء من دراسة هيتون باعتبارها مدخلاً مناسباً لدراسة « الأنبياء فى العهد القديم » وذلك مع التعليق عليها وتطويرها بما يجعل حقيقة النبوّة والنبيين فى صورتها العامة أكثر وضوحاً .

*

● لفظ النبى :

يقول هيتون : « لا يمضى الإنسان بعيداً فى قراءة أسفار الأنبياء دون أن تقابله فقرة كهذه :

« هكذا قال رب الجنود : لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم ، فإنهم يجعلونكم باطلاً يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب » (أرميا ٢٣ : ١٦) .

إن مثل هذا التشهير بالأنبياء على لسان أحدهم ، ليوقعنا فى أشد الحيرة ما لم نعلم أن ألفاظاً مثل : نبى ويتنبأ ، لها معانى واسعة جداً فى أسفار العهد القديم .

إن الظاهرة المشتركة لكل الأنبياء فى العالَم القديم هو دعواهم أنهم كانوا يتكلمون بسلطان من إلههم ، وكان النبى هو الشخص الذى تكلم بالنيابة عن إلهه .

ولقد استُخْدِم لفظ النبى دون تحفظ حتى إنه أُطلق على أولئك الذين تكلموا باسم آلهة الوثنيين ، مثل : أنبياء البعل الأربعمائة والخمسين الذين استخدمتهم إيزابل ، وأنبياء السوارى الأربعمائة الذين جاهدهم إيليا فوق جبل الكرمل (الملوك الأول ١٨ : ١٩ ، الملوك الثانى ٣ : ١٣ ، ١٠ : ٩) .

وأُطلِقَ لفظ النبى كذلك على أنبياء إسرائيل المحترفين الذين عاشوا فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

ولهذا فإن دارس أسفار العهد القديم يواجه ضرورة التمييز بين الأنواع المختلفة من الأنبياء وأن يعرف الصفات التى تجمعهم غير لفظ النبى الذى وُصِفُوا به ، وادعاء كل منهم أنه يتكلم بسلطان إلهى .

ولا شك أن هذا العمل قد زادته صعوبة كتابات المؤلفين الذين تسلمنا منهم الأسفار العبرية ، فبالإضافة إلى تقديم الأنبياء مع الروايات التاريخية كرجال يعلنون مواعظهم للشعب ، فإن مؤلفى هذه الأسفار مسئولون إلى حد كبير عن إطلاق لقب النبى على رجال الله من أمثال : عاموس وهوشع وأشعياء وميخا ، بالرغم من إمكانية التساؤل هنا عن مدى تقبلهم لهذا اللقب .

وتتوقف الإجابة على هذا التساؤل على مقدار فهمنا لقول عاموس ، الذى لا يزال يثور جدل كثير حول تفسيره :

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا : لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبى ، بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل » (عاموس ٧ : ١٤ - ١٥) .

ولقد افترض بعض العلماء أن عاموس لا يقدم هنا موعظة صريحة ، ولكنه يسأل سؤالاً ساخطاً كما لو كان يقول : كيف تجرؤ على القول بأنى لست نبياً حقاً لأنى راعى غنم وجانى جميز ؟ ألم تعلم أن الرب نادانى ؟

على أن البعض الآخر من العلماء يفضل قراءة الفقرة السابقة فى صيغة الماضى هكذا : أنا لم أكن نبياً ولا ابن نبى ... وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل .

وبناء على وجهة النظر الأخيرة فإن عاموس يدَّعى أن وضعه الجديد كنبى يقوم على أساس نداء إلهى ، وليس بناء على اختيار مهنة أو وظيفة .

ونصل الآن إلى نتيجة هى : أن أى محاولة لتمييز الأنبياء الحقيقين بناء على التعريف النظرى المجرّد للنبوّة ، إنما هو عمل مقضى عليه بالفشل . ذلك أن تعريف النبوّة - كغيره من تعاريف بعض الكلمات المذكورة فى العهد القديم مثل عقيدة وكاهن - لن يقودنا على أحسن الفروض إلا إلى ربط النبوّة بمظاهر خارجية عرفها الناس فى حياتهم العادية . ولا شك أن مظاهر النبوّة الخارجية - وما كان من سلوك الأنبياء وانفعالاتهم وأفعالهم لهى أقل ما نعتمد عليه فى معرفة حقيقة أنبياء الله الكبار الذين نُشغل أنفسنا بدراستهم .

ونذكر على سبيل المثال الأعمال الرمزية والحركات التمثيلية التى كانت فى مظهرها تصرفات عادية مارسها كل من الأنبياء الحقيقين والأنبياء الوثنيين على السواء . ومنها نبوءة حزقيال على أورشيم :

« وأنت يا ابن آدم فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة أورشليم . واجعل عليها حصاراً وابن عليها برجاً وأقم عليها مترسة واجعل عليها مجانق حولها .

وخذ أنت لنفسك صاجاً من حديد وانصبه سوراً من حديد بينك وبين المدينة وثبت وجهك عليها فتكون فى حصار وتحاصرها . تلك آية لبيت إسرائيل » .

(حزقيال : ٤ : ١ - ٣) [١]

ومن الواضح أنه لا يوجد معيار حقيقى لتمييز حقيقة الظواهر التى اقترنت بكل من الأنبياء الحقيقيين والأنبياء الكذّابين . ويتبين ذلك مما نقرأه فى سِفر التثنية [٢] :

---

(١) انظر أيضاً : الملوك الأول ١١ : ٢٩ - ٣١ ، أشعياء ٢٠ ، أرميا ١٣ : ١ - ١١ ، ١٩ : ١ - ١٥ ، ٢٧ : ١ - ٢٨ ، ٤٣ : ٨ - ٢٣ ، حزقيال ٤ : ٨ ، ٥ : ١ - ٤ ، ١٢ : ٣ - ١٦ ، ١٧ - ٢٠ ، ٢١ : ٨ - ١٧ ، ٣٧ : ١٥ - ٢٨

(٢) انظر أيضاً : أرميا ٢٨ ، تثنية ١٨ : ٢٠ - ٢٢

« إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة . ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها . فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم » (تثنية - ١٣ : ١ - ٣) (١) .

لقد لمس هيتون كبد الحقيقة حين بيَّن هنا - بناء على دراسته وفهمه لأسفار العهد القديم - أن أى محاولة لربط النبوَّة الحقيقية بحدوث خوارق وظواهر غير عادية أو بصيغة أخرى بمعجزات مادية هو فى الواقع وهم وظنون لا تُغنى عن الحق شيئاً فى هذا المقام . وأن النبوَّة الحقة لا يمكن الحكم عليها إلا بصدق العقيدة التى تقوم على التوحيد الخالص وطهر السلوك والبذل وغير ذلك من جميع الصفات الكريمة .

* *

● الأنبياء الحقيقيون والأنبياء المحترفون :

« لقد عمل الأنبياء المحترفون فى بنى إسرائيل ذيولاً للدوائر الحكومية ، فقد حصلوا على وظائف رسمية فى الدولة لأنهم خلعوا هالة القداسة على مشاريع الحزب الحاكم (٢) ولقد كان شغلهم الشاغل أن يخبروا مواطنيهم الأشياء الحلوة التى يودون سماعها - وهذه سماها حزقيال : عرَّافة ملقة (٣) - وأن يؤكدوا لهم بحكم وظيفتهم أن كل شىء فى الحديقة جميل ، وأن يبشروهم بالسلام بينما كانت الدولة فى الواقع على وشك الانهيار الأخلاقى والسياسى (٤) .

(١) E.W. Heaton : The Old Testament Prophets, pp . 34 - 35 .

(٢) الملوك الأول . ٢ : ١٣ - ١٥ ، ٢٢ : ٦ ، الملوك الثانى ٢٣ : ٢ ، نحميا ٦ : ١٠ - ١٤ ، ٩ : ٣٢

(٣) أشعياء . ٣ : ١٠ ، أرميا ٢ : ٨ ، ٥ : ٣١ ، حزقيال ١٢ : ٢٤ ، ١٣ : ٦ - ٧

(٤) أرميا ٦ : ١٤ ، ١٤ : ١٣ - ١٦ ، ٢٣ : ١٧ ، ٢٧ : ١٤ - ١٥ ، ٢٨ : ٩ ، ميخا ٣ : ٥ ، أشعياء ٩ : ١٥ ، ٥٦ : ٩ - ١٢ ، زكريا ١٣ : ١ - ٦

ولقد خلف لنا أحد المؤرخين العبرين قصة قصيرة ممتازة فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الملوك الأول - حيث تقرأ فيها كما أراد كاتبها ، أن يبيِّن لنا - الاختلاف البعيد بين أنبياء البلاط الملكى الطفيليين ، وبين أنبياء الله الحقيقيين .

وفى القصة نجد أن ميخا بن يملة هو البطل الحقيقى أمام صدقيا نذل السلام . فقد حدث أن استدعى صدقيا ومساعديه الأربعمائة نبى ، للتوثيق على القرار النهائى لآخاب ملك إسرائيل - مستخدمهم - ويهوشافاط ملك يهوذا للقيام بحملة عسكرية ضد السوريين . ولقد عُملت الترتيبات التى تجعل ألاعيبهم تتفق ومرامى آخاب :

« كان ملك إسرائيل (آخاب) ويهوشافاط ملك يهوذا جالسين كل واحد على كرسيه لابسين ثيابهما فى ساحة عند مدخل باب السامرة وجميع الأنبياء يتنبأون أمامهما وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرنى حديد وقال : هكذا قال الرب ، بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا . وتنبأ جميع الأنبياء هكذا قائلين : اصعد إلى راموت جلعاد وأفلح فيدفعها الرب ليد الملك » .

(الملوك الأول ٢٢ : ١٠ - ١٢)

ولم يكن يهوشافاط بالرجل الذى تقنعه هذه النبوءة رغم تأكيدات صدقيا ، لذلك طلب أن يستفتى النبى ميخا - وبعد أن قوبل هذا الطلب بغضاضة ، فإننا نقرأ الآتى :

« وأما الرسول الذى ذهب ليدعو ميخا فكلمه قائلاً : هو ذا كلام جميع الأنبياء بفم واحد خير للملك ، فليكن كلامك مثل كلام واحد منهم وتكلم بخير .

فقال ميخا : حى هو الرب ، إن ما يقوله لى الرب به أتكلم »

(الملوك الأول ٢٢ : ١٣ - ١٤)

كذلك يظهر الفرق بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء المحترفين فى القصة السوفسطائية التى ذُكِرَت عن بلعام فى سِفر العدد .

فلقد استأجر بالاق – ملك موآب – عرّاف الوثنيين (بلعام) ليلعن شعب إسرائيل ، وبعد ثلاث محاولات فاشلة نجد بلعام يتحوّل إلى نبى حقيقى :

« فأجاب بلعام وقال لعبيد بالاق : ولو أعطانى بالاق ملء بيته فضة وذهباً لا أقدر أن أتجاوز قول الرب إلهى لأعمل صغيراً أو كبيراً » (العدد ٢٢ : ١٨) .

ولا نشك فى أن كَتَبة القصص فى أسفار العهد القديم قد كتبوها وهم على علم بمقدار الانحطاط الذى تردى إليه أنبياء إسرائيل المحترفون . وعلى سبيل المثال نجد أنه فى زمن ميخا ، قد عاش أنبياء لم يبيعوا فقط تنبؤاتهم السعيدة لهؤلاء الذين دفعوا لهم الثمن – بل إنهم قد أعلنوا الحرب كذلك على أولئك الذين قبضوا أيديهم عنهم [١] .

كذلك فإن حزقيال يذكرنا بنبيَّة كانت تمارس السحر والعرافة من أجل « حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز » – (حزقيال ١٣ : ١٩) .

ومن المعلوم أن النبى المحترف كان له الحق فى قبض أجرة نظر خدماته ، وتنبؤاته فى إسرائيل [٢] .

وبناء على ما سبق فإننا نستطيع أن نميز بالتقريب بين الأنواع المختلفة لأنبياء العهد القديم ، وذلك بملاحظة ما إذا كانت خدماتهم منتظمة ، أم أنهم كانوا يتكلمون بما وعاه وجدانهم ، وتبعاً لنبضة الوحى التى تلقوها . ويشمل النوع الأول كل الأنبياء الذين جعلوا مقر قيادتهم فى البلاط الملكى وهم الأنبياء المحترفون .

وأما النوع الثانى فإنه يختص بالأنبياء الحقيقيين الذين رغم صِلاتهم الوثيقة بالملوك المتتابعين فإنهم بقوا دائماً مستقلين غير مرتبطين بسلطة أو حزب » [٣] .

* *

---

(١) ميخا ٣ : ٥ ، ١١

(٢) صموئيل الأول ٩ : ٥ - ١٠ ، الملوك الأول ١٤ : ١ - ١٣ ، الملوك الثانى ٨ : ٧ - ٨

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ - ٣٩

● مظاهر النبوّة ووسائل التنبؤ فى إسرائيل :

« من الواضح أن الأنبياء الذين عملوا كمستشارين محترفين للسلطات الحاكمة لا بد وأنهم قد كانوا على دراية ببعض الوسائل التى قد تمكنهم من اكتشاف مشيئة الله ، وهى وسائل شديدة الشبه بوسائل الكهنة الوثنيين فى أرض كنعان .

وربما كان من بعض هذه الوسائل ، قراءة الطالع وإلقاء القُرعة ، وخير مثال لذلك ما كان من أمر شاول حين استخدم الأوريم ، والثميم ، للحصول على كلمة الله :

« وقال شاول للرب إله إسرائيل : لماذا لم تجب عبدك اليوم . إذا كان الذنب فىّ أو فى يوناثان ابنى ، يارب إله إسرائيل ، أعط أوريم ، ولكن إذا كان الذنب فى شعبك إسرائيل ، أعط ثميم . فأخذ يوناثان وشاول ، أما الشعب فخرجوا » .

إن أحداً لا يعلم بالضبط ما هو الأوريم والثميم ولكن من المحتمل أنه كان حجارة مرقمة استُخْدِمت للقُرعة .

إن كثيراً من الاتصالات الروحية المزيفة تفتننا حتى فى هذه الأيام ، تماماً كما فعل أنبياء إسرائيل المحترفين الذين تفنّنوا فى خداع معاصريهم فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . ويسوق أشعياء تعليقاً مراً على الأنبياء الذين : « ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر . الكاهن والنبى ترنحا بالمسكر ، ابتلعتهما الخمر ، تاها من المسكر ، ضلا فى الرؤيا ، قلقا فى القضاء » (أشعياء ٢٨ : ٧) .

لقد كانت الخمر والمسكر إحدى الوسائل الممكنة لتلقى الإلهام .

كذلك عملت الموسيقى كعنصر إثارة استخدم فى تلك الروح للنبى [(١)] .

ويعطى شاول هنا المثل الحى ، فقد قال له صموئيل (النبى) : « عند

---

(١) صموئيل الأول ١٦ : ١٤ - ٢٣ ، ١٨ : ١٠ - ١١ ، ١٩ : ٩ ، الملوك الثانى ٣ : ١٥

مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحوّل إلى رجل آخر » (صموئيل الأول ١٠ : ٥ - ٦) .

ومن العجيب حقاً أن النبوّة يمكن اعتبارها مرادفاً لنوع من اختلال العقل أو الجنون :

« قد جعلك الرب كاهناً عوضاً عن يهوياداع الكاهن لتكونوا وكلاء فى بيت الرب لكل رجل مجنون ومتنبىء » (أرميا ٢٩ : ٢٦) [١] .

ومن المعلوم أنه كان فى إسرائيل أنبياء لم يختلف سلوكهم فى شىء عما كان يفعله أنبياء البعل من الهذيان والهوس حيث : «صرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم . ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ » (الملوك الأول ١٨ : ٢٨ - ٢٩) .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث للأنبياء الحقيقيين الذين لم يستخدموا أية وسائل مصطنعة للإثارة ، ولتهيئة أنفسهم لتلقى الإلهام . ولقد كانوا قبل السبى البابلى يتجنبون استخدام ألفاظ مثل : روح اللّه ، واستخدموا بدلاً من ذلك ألفاظاً أقل غموضاً مثل : يد اللّه » [٢] .

ولا يملك الإنسان نفسه من الدهشة والاستغراب حين يجد الأسفار المقدسة **تعرض لنا أنبياء اللّه الحقيقيين ، وقد امتزجت تصرفاتهم بالخبل والجنون واقترنت أعمالهم بالكثير مما هو شاذ وقبيح ونجدهم قد فعلوا ذلك عندما غشيتهم حالة الوحى ، وجاءتهم كلمة اللّه فاستجابوا لها ، وقاموا بإخراجها مثلاً حياً** للناس :

---

(١) انظر أيضاً هوشع ٩ : ٧ ، صموئيل الأول ١٩ : ٢٣ - ٢٤ ، زكريا ١٣ : ١ - ٦

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ - ٤٢

فها هو شاول لا يتنبأ إلا بعد أن يتجرد من ملابسه ويتعرى بين الناس كعادة غيره من الأنبياء . وكأن العرى هو إحدى وسائل استجلاب النبوة وقرين من قرائن حلول روح الله .

« فذهب (شاول) إلى هناك إلى نايوت فى الرامة فكان عليه أيضاً روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت فى الرامة . فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وانطرح عرياناً ذلك النهار كله وكل الليل » .

(صموئيل الأول ١٩ : ٢٤)

وبالمثل سار أشعياء عرياناً بين الرجال والنساء والأطفال بعورته الغليظة لمدة ثلاثة أعوام استجابة للوحى - كما يدَّعون :

« فى ذلك الوقت تكلم الرب عن يد أشعياء بن آموص قائلاً : اذهب وحل المسح عن حقويك واخلع حذاءك عن رجليك . ففعل هكذا ومشى معرى وحافياً . فقال الرب : كما مشى عبدى أشعياء معرى وحافياً ثلاث سنين آية وأعجوبة ..

هكذا يسوق ملك أشور .. الفتيان والشيوخ عراة وحفاة مكشوفى الأستاه » .

(أشعياء ٢٠ : ٢ - ٤)

وقد كان الوحى إلى حزقيال أن يأكل من عجين الشعير لمدة ٣٩٠ يوماً وقد نجسه ببراز الإنسان ، فيكون ذلك آية لبنى إسرائيل :

« وخذ أنت لنفسك قمحاً وشعيراً وفولاً وعدساً ودخناً وكرسنة وضعها فى وعاء واحد واصنعها لنفسك خبزاً كعدد الأيام التى تتكىء فيها على جنبك ثلاث مائة يوم وتسعين يوماً تأكله .. وتأكل كعكاً من الشعير . على الخرء الذى يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم . وقال الرب : هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأمم الذين أطردهم إليهم . فقلت : آه ياسيد الرب .. ها نفسى لم تتنجس ومن صباى إلى الآن لم آكل ميتة أو فريسة ولا دخل فمى لحم نجس . فقال لى : انظر . قد جعلت لك خثى البقر بدل خرء الإنسان » .

(حزقيال ٤ : ٩ - ١٥)

وما أمر هوشع بأقل عجباً مما رأينا ، فلقد كان أول حالات النبوّة التى مارسها تحمل فى طياتها إليه أمراً إلهياً بمعاشرة امرأة زانية تُفرخ له أولاد زنى – هكذا يدّعون :

« أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت تاركة الرب . فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابناً .. ثم حبلت أيضاً وولدت بنتاً » (هوشع ١ : ٢ – ٦) .

واستمر هوشع يتردى فى طريق الزانيات حيث كانت نبوّته التالية تفرض عليه عشق امرأة متزوجة برجل يحبها ، لكنها تخونه وتزنى بآخرين حتى يأتى هوشع ويخطفها من تحت رجلها :

« وقال الرب لى : اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبنى إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى » (هوشع ٣ : ١) .

وبهذه التصرفات نجد هوشع قد هدم شريعة موسى وخالف أحكامها التى تفرض على الكاهن أن :

« يأخذ بامرأة عذراء . أما الأرملة والمطّلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ بل يتخذ عذراء من قومه امرأة . ولا يدنس زرعه بين شعبه » .

(لاويين ٢١ : ١٣ – ١٥)

فما بال هؤلاء الأنبياء قد التصقت بأسمائهم تلك الغلالات الحالكة ، وأُدخلت على تنبؤاتهم مثل هذه الألاعيب ؟

إن هذا يؤكد لنا ما سبق أن توّصل إليه هيتون من أن كَتَبة الأسفار قد جعلوا سلوك أنبياء بنى إسرائيل – حتى مَن عُرِفوا باسم الأنبياء الكبار أو الأنبياء الحقيقيين – لم يختلف كثيراً فى بعض المواقف عن سلوك معاصريهم من الأنبياء المحترفين .

*

- الأنبياء أحباب اللّه :

يقول هيتون : « إن الصوت المنخفض الخفيف الذى سمعه إيليا - فوق جبل الوحى - يهيىء أذهاننا لفهم النبوّة على أنها صداقة للّه كما كان الحال مع موسى الذى تقول عنه الأسفار :

« ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (خروج ٣٣ : ١١) .

إن إحدى أساسيات العقيدة التى نجدها فى العهد القديم هى أن الأنبياء قد سُمِحَ لهم بشرف الانتساب إلى مجمع اللّه السماوى [١] ومن أجل ذلك كانوا قادرين على سماع كلمته ، وإعلان ما يدور فى ذلك المجمع المقدس :

« إن السيد الرب لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء » .

(عاموس ٣ : ٧)

لكن صداقة الأنبياء للّه كانت تكلفهم الشىء الكثير .

لدينا البرهان - إذا كان هناك حاجة إلى برهان - على أن الأنبياء الكبار لم يكونوا فقط مجرد أدوات بين يدى اللّه ، بل كانوا كذلك خدّاماً فى بيته ، ولقد كانت لهم عواطفهم وشخصياتهم التى لم تتحلل بانصهارها فى الوحى على أى صورة من صور الاتحاد الصوفى الغامض وكان لهم تفكيرهم الخاص ، لكنه تفكير يخدم أغراض الوحى .

وتظهر هذه النبضة بجلاء فى حالة أرميا الذى انتظر مدة عشرة أيام حتى جاءته كلمة اللّه » [٢] .

(١) أيوب ١ : ١ - ٢ ، ١٥ : ٨ ، مزامير ٨٢ ، ٨٩ : ٧

(٢) المرجع السابق : ص ٥١

فقد استشار الشعب أرميا أن يخبرهم عن الطريق الذى يسيرون فيه ، « فقال لهم أرميا النبى : قد سمعت . ها أنذا أصلّى إلى الرب إلهكم كقولكم ويكون أن كل الكلام الذى يجيبكم الرب أخبركم به ..

وكان بعد عشرة أيام أن كلمة الرب صارت إلى أرميا » ...

(أرميا ٤٢: ٤ ، ٧)

* *

● ملامح مشتركة بين الأنبياء :

يقول هيتون : « إن رجال الله حينما حملوا الرسالة إلى البَشر فإنهم بقوا بَشراً كما كانوا ، ولهذا أمكنهم أن يُبَلّغوا البَشرية فى قوة وعزم وحى الله الذى نزل إليهم .

وإذا أردنا الحديث عن القوة الجبرية التى تلقى بها الأنبياء وحى الله ، فيجب أن نعلم أنها كانت أقوى نوع من الجبرية وأعظمه ، وأنها قامت على أساس علم اختص به الله النبى الذى قام بتبليغه بأمانة .

إن رجال الله لم يولدوا لمهنة ، ولم يمروا خلال فترة للتلمذة ، ولم تكن هناك نقابة للأنبياء ينتسبون إليها ، كذلك فإنهم لم يتلقوا دراسة خاصة فى التعاليم اللاهوتية تؤهلهم لذلك . لقد انتهوا كما بدأوا رجالاً بسطاء أنقياء . وكان عاموس مثل الهشع ، كلاهما جاءته كلمة الله وهو يعمل فى الحقل :

« أخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل » .
(عاموس ٧ : ١٥) [١]

إن بساطة هذا القول تعطيه الصدق والثقة فيه .

(١) انظر أيضا : الملوك الأول ١٩ : ١٩ - ٢١ ، وصموئيل الثانى ٧ : ٨ - ٩

وبالمثل كان موسى يرعى غنم حميه عندما رأى الشجرة المشتعلة ، وهى تماثل ما رآه أشعياء فى الهيكل (أشعياء - الإصحاح ٦) [١] .

لكن أغلب بنى آدم بدّلوا نعمة الله نقمة ، ووضعوا أمام أنفسهم أحجاراً للعثرات وذلك حين استكبروا أن تبلغهم رسالة الله على أيدى أناس مثلهم من البَشر . وتصوروا خطأ أن هداية الله للبَشرية ما ينبغى أن يتصدر لها سوى مخلوقات عُلوية كالملائكة .

حدث ذلك لنوح مع قومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَؤُاْ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

(المؤمنون : ٢٣ - ٢٥)

وما كان جواب نوح إلا أن قال :

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ ، إِنِّى إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . (هود : ٣١) .

وحدث نفس الشيء لهود وصالح مع أقوامهم عاد وثمود :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللَّهَ ، قَالُواْ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

(فصلت : ١٣ - ١٤)

وبالمثل كان موقف المشركين من العرب مع محمد رسول الله :

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً .. ﴾ (الفرقان : ٧) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ (الفرقان : ٢١) .

﴿ وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الحجر : ٦ – ٧) .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾.

(الأنعام : ٨ – ٩)

فتلك حكمة الله ورحمته بخلقه أن ينزل رسله من ملائكة السماء إلى رسله من البشر – وكأنهم ملائكته فى الأرض – وهؤلاء تساعدهم بشريتهم على هداية بنى جنسهم . ولو صفت نفوس جميع بنى آدم ، وطهرت سرائرهم من كل ما بها من شوائب ومظالم ، لصاروا كالملائكة إلا أنهم يعيشون على الأرض ، ولنزلت عليهم حينئذ ملائكة الله رسلاً من السماء :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُلْ لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء : ٩٤ – ٩٥) .

*

ويقول هيتون : « **ونرى الشعور بالضعف ، كما نلمح شيئاً من عدم الثقة بالنفس كأنها عوارض مشتركة للطبيعة البشرية ، وذلك كرد فعل مباشر لعملية الاتصال بالله التى فوجىء بها الأنبياء** . ونجد هذا فى اعتراف أرميا حين جاءته الكلمة :

« آه ياسيد الرب ، إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » (أرميا ١ : ٦) .

ونجده كذلك فى قول موسى :

« استمع أيها السيد الرب ، لستُ أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا حين كلمتَ عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان » (خروج ٤ : ١٠) [١] .

وفى جميع هذه الحالات نجد أوامر الله إلى أنبيائه لا يمكن تنفيذها دون مَدَدٍ من عنده . ولهذا كان يلحقها دائماً وعد « الحق » بتأييدهم والأخذ بأيديهم . فكان القول إلى موسى :

« فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ماتتكلم به »

(خروج ٤ : ١٢) [٢]

وقد يكون الوعد بالتأييد الإلهى عن طريق لمسة رمزية كما حدث لأرميا :

« ومَدَّ الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى : قد جعلتُ كلامى فى فمك » .
(أرميا : ١ : ٩) [٣]

ولقد حدث نفس الشىء لأشعياء حين لمس الملاك شفتيه بالجمر الملتهب ، وبالمثل مع حزقيال حين أكل الدرج (حزقيال ٣ : ٢) .

وفى كل هذه الحوادث نجد إشارة واضحة إلى أن رسالة النبى لا بد أن تلقى معارضة شديدة . وبالرغم من ذلك فيجب إعلانها ، وما على الرسول إلا البلاغ : « وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا » (حزقيال ٢ : ٧) [٤] .

*

وبعد أن يعتاد النبى على كلمة الله ، ويخبر طرق الوحى ، فإن كثيراً من أقواله وأفعاله تتسم بالثقة الزائدة فى النفس وفى العقيدة :

---

(١) انظر أيضاً : الخروج ٦ : ١٢ ، والقضاة ٦ : ١٥

(٢) انظر أيضاً : أرميا ١٥ : ١٩ ، والقضاة ٦ : ١٦ ، ٢٢ - ٢٣

(٣) انظر أيضاً : أشعياء ٦ : ٧ ، وحزقيال ٢ : ٨ ، ٣ : ٣ ، وصموئيل الأول ٣ : ١٩

(٤) المرجع السابق - ص ٥٢ ، ٥٣

« فلقد عبّر كل من أرميا وخادم الله – الذى تذكره الأسفار – عن ثقتهما المتناهية فى أن نبوّتهما قد اختصهما الله بها قبل مولدهما من بطنى أمهاتهما .

« كانت كلمة الرب إلىّ قائلاً : قبلما صوّرتك فى البطن عرفتك ، وقبلما خرجتَ من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (أرميا ١ : ٤ – ٥) .

« اسمعى لى أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد ، الرب من البطن دعانى ، من أحشاء أمى ذكر اسمى .. والآن قال الرب جابلى من البطن عبداً له » (أشعياء ٤٩ : ١ ، ٥)

وعلى كل حال فلقد كانت معرفة الأنبياء بالله عميقة الجذور ، شخصية الخبرة والتجربة ، بعيدة عن المقارنة بأى نوع من أنواع المعرفة حتى ولو كانت معرفة أهل التُقَى والورع » [١] .

*

ومن هنا يتبيّن أن الشىء المتفَق عليه فى حقيقة أنبياء الله ورسله ، هو تأكيد بَشريتهم ، من قبل أن تأتيهم كلمة الله ومن بعد ما جاءتهم . وهى بَشرية كاملة بكل ما يلازمها من غرائز وخواص ونقاط ضعف ومواقع قوة – ثم تسمو بعد ذلك آفاقاً بعيدة فوق مستوى بَشرية كل الناس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : ٢٠) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد : ٣٨) .

*

هذا .. وبعد أن قدّمنا لموضوع الأنبياء فى صورته العامة – ولأنبياء بني إسرائيل على وجه الخصوص – فإننا نستطيع الآن إلقاء نظرة خاطفة على بعض

(١) المرجع السابق – ص ٥٢ – ٥٤

ما تُخبرنا به الكتب المقدسة من أنباء كوكبة من أكرم الأنبياء على اللّه وعلى الناس . وفى عملنا هذا لا نقوم به من وجهة نظر التاريخ أو السيرة الذاتية ، فذاك شىء فوق الطاقة من حيث المكان والزمان ، فلا هذا الحيز المحدود من الصفحات ، ولا تلك الفترة الزمنية القصيرة التى اغتنمت لإخراج هذا الكتاب ، تسمح بشىء من ذلك . ويعنينا الآن أن نذكر بديهية يتفق عليها المؤمنون باللّه ورسالاته ، هى أن أنبياء اللّه ورسله هم مُثُل عُليا من البَشر ، جعلهم اللّه أهلاً للاقتداء ، ومن ثَمَّ وجب أن تكون صورهم أمامنا دائماً غاية فى الحسن والصفاء . فإذا حدث وأُلقِيت شبه حول سلوكهم أو التصق بقصهم شىء من المثالب ، كان من اللازم تمحيص هذا وذاك حتى نُميِّز الخبيث من الطيب ، ونستبين بذلك حقيقة الأنبياء والمرسلين .

* * *

أنبياء القرون الأولى

- نوح .
- إبراهيم .

*

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى العَالَمِينَ ﴾ (الصافات : ٧٩)
﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (الصافات : ٨٣)

*

نوح

هو أبو البَشرية الثانى ، الذى حمل فى فُلكه بذور الحياة فأنقذها بأمر اللّه من الطوفان . وتقول التوراة - أسفار موسى الخمسة التى تتصدر العهد القديم: « كان بنو نوح الذين خرجوا من الفُلك ساماً وحاماً ويافثاً . وحام هو أبو كنعان ... ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض .

وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كَرْماً ، **وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عَورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً .** فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . **فلما استيقظ نوح من خمره ، علِمَ ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته** . وقال : مبارك الرب إله سام ، وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح اللّه ليافث فيسكن فى مساكن سام ، **وليكن كنعان عبداً له** » .

(تكوين ٩ : ١٨ - ٢٧)

من الواضح أن هذه أول بذرة لما يُعرف بـ « **السامية** » باعتبارها عِرقاً جنسياً يتعالى عن بقية البَشر ، ولو كانوا إخوة « أبناء أب واحد » . وإذا كان علماء اليوم على إدراك تام بأن الحديث عن السامية لا يعنى مدلولاً عِرقياً ، وإنما يمكن أن يعطى مفهوماً لُغوياً بمعنى أن الشعوب التى عاشت فى منطقة الشرق الأوسط تكلمت لغات بينها أواصر قربى ، وتُعرف بمجموعة اللُّغات السامية . وهذه تنقسم إلى عدة أُسر هى :

أُسرة اللُّغات الأكادية والبابلية والآشورية ، وأُسرة اللُّغات الكنعانية ، وأُسرة اللُّغات العربية ، وأُسرة اللُّغات الحبشية .

وثمة تسأول يلح عن الظلم الفادح الذى أصاب كنعان بسبب تصرف نُسِبَ إلى أبيه حام ، إذ من الواضح أن كنعان برىء تماماً من كل خطية تُورثه اللّعنة

والعبودية أو حتى ما هو أقل منهما بمراحل كاللّوم والتقريع . وإذا كان هناك من يُدان فهو بلا شك شخص آخر غير كنعان وأبيه حام .

ومن المحزن حقاً أن يكون قصص الكتاب المقدس مصدر إلهام للمبشرين بالتفرقة العنصرية وسنداً قويا يحتجون به . فلقد أصدرت مجلة « **لايف** » (١) عدداً خاصاً عن الكتاب المقدس ، جاء فيه :

« لا تزال حكومة جنوب إفريقيا تعتمد على ما جاء فى سفر التكوين – الذى يصف أحد أبناء حام (وهو كنعان) بأنه عبد العبيد – لتبرير سيطرتها على السود وإذلالهم » (٢) .

هذا .. وتذكر لنا التوراة أن قصة نوح أمام الله لم تزد عن أنه حدث أن «رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم .

فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه ، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، **لأنى حزنتُ أنى عملتهم** . وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب ... فقال الله لنوح : نهاية كل بشر قد أتت أمامى لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم . اصنع لنفسك فُلكاً » – (تكوين ٦ : ٥ - ١٤) .

*

لكن القرآن الكريم يُعَلّمنا أن نوحاً كان نبياً يُوحَى إليه .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ .

(النساء : ١٦٣)

---

(١) LIFE, April 19, 1965 .

(٢) نقرأ النص الإنجليزى لهذه الفقرة الهامة كما يلى :

<<The government of South Africa, still relies on Genesis (Which deseribes a son of Ham as << a slave of slaves >> to justify its subordination of Negroes >>

وكان نوح رسولاً يدعو إلى التوحيد ، ويُحَذِّر من أهوال اليوم الآخر :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِه فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِّنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٥٩ - ٦٢) .

وكان نوح فطناً كيساً استخدم فى دعوته كل لباقة ودبلوماسية تعين على ترويض ذوى الطبائع الجامدة والقلوب المتحجرة . وفى تقرير منه يبين خطته فى مختلف مراحل الدعوة نقرأ قول الحق :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَاراً * مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ (نوح : ٥ - ٢٠) .

وقد رأى عليّةُ القوم أن استجابة المستضعَفين لدعوة نوح تعتبر سبباً كافياً لصدهم عنها :

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود : ٢٧) .

لقد كان الشرك وتعدد الآلهة سائداً فى عهد نوح وكانت له كهنة ومرتزقة ودجالون ، فقام هؤلاء يصرفون الناس عن دعوته : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ . (نوح : ٢١ - ٢٣) .

وحين بلغت دعوة نوح غايتها واستنفدت كل وسائل الإقناع ، لم يبق لقومه خيار فيما ينتظرهم من عقاب : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

(هود : ٣٦ - ٣٧)

إن هذا يتفق وعدل الله فى خلقه ، ألاَّ يهلك نفساً لم يأتها نذير : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص : ٥٩) .

لقد عاش نوح يجاهد فى سبيل الله مئات السنين ، إلا أن حصيلة ذلك كله كانت عدداً ضئيلاً من المؤمنين : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود : ٤٠) .

ولقد استحق بجهاده الشاق وصبره الجميل ما أُسبغ عليه من كرامة ونعماء ، ويكفى أن يقول الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصافات : ٧٥ - ٨١) .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ (الإسراء : ٣) .

هكذا نرى نوح فى القرآن العظيم : نبى عظيم ورسول ذو دعوة واسعة .

من أجل ذلك كان إماماً يقتدى به الأنبياء والمرسلون علاوة على مَن دونهم من الناس ، وكان أول أُولى العزم الذين قيل فى شأنهم لخاتم الأنبياء والمرسلين :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

* * *

إبراهيم

هو النبى الكريم أبو الأنبياء وأول حلقة فى سلسلة النبوّة الإبراهيمية الطاهرة، طار ذكره فى العالمين وصار يمثل الميراث المشترك بين أبنائه فى عقيدة التوحيد من يهود ومسيحيين ومسلمين .

ويأتى أول ذكر لإبراهيم فى التوراة عند الحديث عن مولده وإخوة له من أبيه تارح الذى بدأ إنجابهم على الكبر وعمره آنذاك سبعون عاماً .

لقد كان تارح يعيش مع قبيلته فى موطنهم الأصلى بمدينة أور بالعراق القديم - وإذا به يقرر فجأة الذهاب إلى أرض كنعان (فلسطين) فيرتحل إليها عبر طريق طويل ماراً بحران - مدينة القوافل - التى تقع حالياً بتركيا قرب الحدود السورية ، وهناك يموت تارح .

وفى حران تلقى إبراهيم أمراً إلهياً بالذهاب إلى أرض كنعان « وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران . فأخذ إبرام ساراى امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران ، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان » (تكوين ١٢ : ٥) .

لقد صمتت التوراة عن حياة إبراهيم السابقة وجهاده ، فلم يبدأ ظهوره على مسرح الأحداث فيها إلا بعد أن شاخ وبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً .

ثم جاء القرآن الكريم يقص علينا سيرة إبراهيم منذ اشتد عوده ، ويركز على جهاده الذى بدأه مبكراً .

فلقد نشأ إبراهيم فى بيئة وثنية لم تتفق عقائدها وتقاليدها مع فطرته السليمة ولذلك بدأ يتفكر فى خلق السموات والأرض . وكان أن هداه اللّه إلى الدين الحق ، **فبدأ رسالته بالدعوة إلى التوحيد وهو لا يزال فتى في مطلع شبابه ، وفى هذا يقول الحق :**

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ *

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ *

قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ *

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٥١ - ٧١) .

لقد كان السبب الرئيسى الذى من أجله ذهب إبراهيم من العراق إلى فلسطين ، هو الهجرة من أرض الوثنية والقهر إلى أرض تحفظ عليه دينه ونفسه .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .
(العنكبوت : ٢٦)

*

وبعد أن استقر إبراهيم بفلسطين « قالت ساراى لإبرام هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، ادخل على جاريتى .. فأخذت ساراى .. هاجر المصرية من بعد عشر سنين لإقامة إبرام فى أرض كنعان وأعطتها لإبرام .. زوجة له ، فدخل على هاجر فحبلت .. فولدت هاجر لإبرام إبناً .. إسماعيل . كان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل » (تكوين ١٦) .

وتتفق الكتب المقدسة على أن إبراهيم تعرَّض بعد ذلك لامتحان إلٰهى صعب ، هَمَّ فيه أن يذبح ابنه وحيده الذى رُزِقَ به على الكِبَر استجابة لوحى تعرَّض له ، لكن رحمة الله تداركت الوالد الشيخ الفانى وابنه الوليد الصابر « فناداه ملاك الرب من السماء ..

فقال : لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً ، لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى » (تكوين ٢٢ : ١١ - ١٢) .

ولقد بيَّنا فى موضع سابق [1] بما لا يدع مجالاً للشك أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق على عكس ما تقول به المصادر الإسرائيلية .

*

ثم كان عهد الله لإبراهيم لما قارب عمره مائة عام ..

إذ « لما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له :

أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملاً ، فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً ..

« نادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة .

وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس .. وأخذت له أمه زوجة من مصر » (تكوين ٢١ : ١٧ - ٢١) .

---

(١) راجع كتاب « فلسطين بين الحقائق والأباطيل » للمؤلف - ص ٤٤ - ٥١ .

« هؤلاء هم بنو إسماعيل .. إثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم . وهذه سنو حياة إسماعيل مئة وسبع وثلاثين سنة ، وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه . وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو آشور » .

(تكوين ٢٥ : ١٦ - ١٨)

ويذكر التلمود أن إبراهيم كان دائم التردد على ابنه إسماعيل فى موطنه البعيد بالصحراء . فقد زاره مرة وكانت له زوجة قابلت حماها بجفاء فطلّقها إسماعيل . ولما زاره أبوه إبراهيم مرة أخرى بعد ثلاث سنوات كانت زوجته الثانية كريمة مع أبيه ، فَسُرَّ بها إسماعيل واصطحبها لزيارة والده بفلسطين [١].

*

لقد كان لإبراهيم فى الجزيرة العربية نشاط روحى عظيم ، بدأه مبكراً حين ارتحل إليها بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، وأنزلهما مهبط الأمن والسكينة . هنالك دعا الله لأهله بالخير واستودعهم مَن لا تضيع عنده وديعة ، ثم تركهم ورحل إلى حين .

وكان دعاء إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم : ٣٧) .

وما إن اشتد ساعد إسماعيل حتى كان له مع أبيه عمل خالد لا تزال تذكره الملايين الحاشدة من البشر عبر عشرات القرون . فنحن نعلم ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) . ثم ما لبث أن تعرَّض هذا البيت العتيق لعاديات الزمن وبغى الأهل والخُلطاء ، فتصدع البناء وتدنس المكان بما صنعته يد الإنسان من إفك وأضاليل . ثم كانت رحمة الله بالإنسانية حين تجدد البيت بناءً وشعائر على يد إبراهيم وابنه إسماعيل وفى هذا يقول الحق :

---

(١) المرجع السابق - ص ٤٧

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ *

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج : ٢٦ - ٢٧) .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ *

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٧ - ١٣١) .

* *

هذا هو إبراهيم ، الأب الروحى للمؤمنين بالله من اليهود والمسيحيين والمسلمين وكلهم يرجو السلامة فى دينه ونفسه كما سلم وكمل إبراهيم أمام الله « القدير » رب العالمين . فدين إبراهيم هو الدين الحق ، على هذا يتفق أصحاب هذه العقائد وكفى به جوهراً يجتمعون عليه رغم ما هم فيه بعد ذلك من خلاف عجيب .

فلقد كان أول وحى لموسى : « أنا إله أبيك إله إبرهيم ..

هكذا تقول لبنى إسرائيل إله آبائكم ، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم » (خروج ٣ : ٦ ، ١٥) .

وفى محاورة بين المسيح واليهود كان قوله لهم عن إبراهيم ذى الدين الحق :

« أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب .. فلما سمع الجمع بهتوا من تعليمه » (متى ٢٢ : ٣١ - ٣٣) .

و « قال لهم يسوع : لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم .

ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . هذا لم يعمله إبراهيم . أنتم تعملون أعمال أبيكم .. أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا . ذاك كان قتّالاً للناس من البدء » .
(يوحنا ٨ : ٣٩ - ٤٤)

وأخيراً ، بعد أن طال الأمد على قلوب قست ونست حقيقة دين إبراهيم ، جاء محمد ليجدد البناء ويدعو إلى الله على بصيرة ، فيقيم بالحق دين إبراهيم :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦١) .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٣) .

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ ، وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ٦٨) .

* * *

الفصل الثالث

أنبياء بني إسرائيل

- موسى .. الكليم .
- إلياس .. العجيب .
- عيسى .. المسيح .

« أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد بهم إلى جبل عال .. وظهر لهم إيليا مع موسى . وكانا يتكلمان مع يسوع » (إنجيل مرقس ٩ : ٢ - ٤) .

*

« لا يحتاج الأصحاب إلى طبيب ، بل المرضى » ...

(إنجيل متى ٩ : ١٣)

من أجل ذلك ، جاءهم أطباء (أنبياء) كثيرون ...

*

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ .. ﴾ ؟ ! (سورة البقرة : ٨٧) .

*

موسى

يمكن تلخيص قصة موسى منذ مولده حتى رسالته بما تقوله أسفار العهد الجديد :

« **تهذب موسى بكل حكمة المصريين ، وكان مقتدراً فى الأقوال والأعمال ..**

وصار غريباً فى أرض مديان حيث ولد ابنين ..

وظهر له ملاك الرب فى برية جبل سيناء ، لهيب نار عليقة . فلما رأى موسى ذلك تعجب من المنظر . وفيما هو يتقدم ليتطلع صار إليه صوت الرب : أنا إله آبائك ، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب .. فهلم الآن أرسلك إلى مصر » (أعمال الرسل ٧ : ٢٣ - ٣٤) .

ثم نعود الآن إلى التوراة لنعلم منها أنه :

« كان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاثة وثمانين سنة حين كلما فرعون » (خروج ١٧ : ٧) .

وفى أول وحى لموسى ، بعد أن علّمه الله الكثير مما يقول ويفعل ، وأراه آيات وأعاجيب ، كان عاقبة ذلك أن « **قال موسى للرب : استمع أيها السيد ، لستُ أنا صاحب كلام** منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمتَ عبدك بل **أنا ثقيل اللسان** .

فقال له الرب : مَن صنع للإنسان فماً ، أو مَن يصنع أخرس أو أصم أو أعمى . أما هو أنا الرب ؟ فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به .

فقال : استمع أيها السيد . أرسل بيد مَن ترسل .

فحمى غضب الرب على موسى ، وقال : أليس هارون اللاوى أخاك . أنا أعلم أنه هو يتكلم وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك .. فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه ، وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان » .

(خروج ٤ : ١٠ - ١٥)

لكن القرآن يبرىء موسى عن كل قول غليظ يمكن أن يُعَرِّضه فى مثل تلك الساعات الخالدات لشىء من غضب الله ، ويبيِّن أن حديث الوحى الأول لموسى كان كله رحمة ولطفاً من الله ، أظهر فيه موسى من التهذيب والخشوع والإدراك ما يتفق ووقار النبوَّة لشيخ فى الثمانين من عمره .

لقد قال موسى : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِسَانِى * يَفْقَهُواْ قَوْلِى * وَاجْعَلْ لِّى وَزِيراً مِّنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخِى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً *

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (طه : ٢٥ - ٣٦) .

لقد كان موسى واعياً أن ما يطلبه فى هذا المشهد الخالد من خير يعينه على تبليغ رسالته لا بد وأن يناله ، لأنه يطلب من أكرم الأكرمين . وكان حرياً أن يجاب إلى طلبه وزيادة ، فلقد تعهد له الله بالنصر النهائى إذ قال له :

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ ﴾ . (القصص : ٣٥) .

* *

وبعد جهدك جهيد ومحن وأزمات استطاع موسى أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر ويقودهم عبر سيناء قاصداً أرض فلسطين .

وفى سيناء تلقى موسى التوراة . « ولما رأى الشعب (الإسرائيلى) أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل **اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا** لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه .

فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون .

فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . **فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ، ونادى هارون وقال : غداً عيد للرب .** فبكّروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدّموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب .

فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر ..

صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له .

وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة . فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم .. فتضرع موسى أمام الرب إلٰهه .. **فندم الرب عن الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه .**

فانصرف موسى ونزل من الجبل .. ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حّتى صار ناعماً وذرّاه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل .

وقال موسى لهارون : ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبتَ عليه خطية عظيمة ؟

فقال هارون : لا يحم غضب سيدى . أنت تعرف الشعب أنه فى شر .

فقالوا لى اصنع لنا آلهة تسير أمامنا .. فقلت لهم : مَن له ذهب فلينزعه ويعطنى فطرحته فى النار فخرج هذا العجل » .

(خروج ٣٢ : ١ - ٢٥)

لقد سجلت التوراة على هارون أنه شارك الشعب الإسرائيلى كفره إذ صنع بيده العجل الذى عبدوه ونصب نفسه كاهناً له فبنى له مذبحاً وجعل له فى الغد عيداً .

ومعاذ اللّه أن يكون هارون النبى كذلك .. !

فلقد تكفل القرآن ببراءة هارون من هذا الجرم الشنيع الذى لا يمكن الاعتذار عنه ، فقرر أن الذى صنع العجل إنما هو شخص آخر غير هارون ، كما سجل رفض هارون لتلك الفكرة الخبيثة وتنديده بها – وذلك فى قول الحق :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ، قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِى *

قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّنْ زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُواْ أَمْرِى *

قَالُواْ لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ .

(طه : ٨٦ – ٩١)

*

وتنسب التوراة إلى موسى وهارون عدم إيمانهما بالله ، بل وتسجل عليهما الخيانة التى كان ثمنها أن حرمت عليهما أرض فلسطين . فلقد كان آخر وحى تلقاه موسى يقول على لسان الرب :

« اصعد إلى جبل عباريم .. الذى قبالة أريحا وانظر إلى أرض كنعان التى أنا أعطيها لبنى إسرائيل ومت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك فى جبل هود وضم إلى قومه ، **لأنكما خنتمانى فى وسط بنى إسرائيل** عند ماء مريبة قادش فى برية صين إذ لم تقدسانى فى وسط بنى إسرائيل ، فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك » .

(تثنية ٣٢ : ٤٩ – ٥٢)

لقد كان ما حدث فى برية صين أن الشعب الإسرائيلى تذمر على الرب وسخط على عملية إخراجه من أرض مصر ولم يكن لموسى وهارون دخل فى ذلك ولا يمكن أن يكون وفى هذا تقول التوراة :

« أتى بنو إسرائيل الجماعة كلها إلى برية صين .. **ولم يكن ماء للجماعـــة ، فاجتمعوا على موسى وهارون . وخاصم الشعب موسى وكلموه قائلين :**

ليتنا فنينا فناء إخوتنا أما الرب . لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لكى نموت فيها نحن ومواشينا ؟ ليس هو مكان زرع وتين وكَرْم ورمان ولا فيه ماء للشرب .

فأتى موسى وهارون من أمام الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع وسقطا على وجهيهما .

فتراءى لهما مجد الرب . وكلّم الرب موسى قائلاً : خذ العصا واجمع الجماعة أنت وهارون أخوك وكَلّمَا الصخرة أمام أعينهم أن تعطى ماءها .

فأخذ موسى العصا من أمام الرب كما أمره وجمع موسى وهارون الجمهور أما الصخرة فقال لهم : اسمعوا أيها المردة ، أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماء ؟ ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين فخرج ماء غزير ، فشربت الجماعة ومواشيها .

فقال الرب لموسى وهارون : من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل لذلك لا تُدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتهم إياها. هذا ماء مريبة حيث خاصم بنو إسرائيل الرب فتقدس فيهم .

وكلّم الرب موسى وهارون فى جبل هور .. قائلاً : **يضم هارون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التى أعطيتُ لبنى إسرائيل لأنكم عصيتم قولى عند ماء مريبة ..**

فمات هارون هناك على رأس الجبل » (العدد : ٢٠) .

*

لكن القرآن يبرىء موسى وهارون من كل ما يمسهما من أذى ألحقه بهما كَتَبة الأسفار من الإسرائيليين فحين تخاذل بنو إسرائيل عن دخول أرض فلسطين كان موسى مقداماً – كصورته المشرقة فى القرآن – يتقدم بنفسه ويضمن كذلك نفس أخيه . وفى هذا يقول القرآن :

﴿ قَالُواْ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ *

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ *

قَالُواْ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَـةً ، يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

(المائدة : ٢٢ – ٢٦)

لقد عطرت سيرة موسى فى القرآن ويكفى أن يقول الحق فيه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ (مريم : ٥١ – ٥٣) .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . (الصافات : ١١٤ – ١٢٢) .

* * *

إلياس

هو إيليا ذو العزائم والنبى أبو العجائب ، يجد فى سيرته الباحثون عن المعجزات والخوارق الشىء الكثير والمثير .

لقد كان إلياسين هذا شديداً على نفسه وكانت هيئته أنه « رجل أشعر ، متنطق بمنطقة من جلد على حقويه » (الملوك الثانى ١ : ٨) يسكن البرارى ويلجأ إلى الجبال ، ويعيش زاهداً تقياً ورعاً .

وكان إيليا التشبى هذا قوياً فى الحق شديداً على أعداء اللّٰه ، فقد ابتلى فى زمنه بملك جبار يخضع لزوجة طاغية ، ذلك هو آخاب الذى عمل « الشر فى عينى الرب أكثر من جميع الذين قبله .. حتى اتخذ إيزابل ابنة ملك الصيدونيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له .. وزاد آخاب فى العمل لإغاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله » .

(الملوك الأول ١٦ : ٣٠ - ٣٣)

*

لقد كان إيليا يتنبأ باسم الإلٰه الحى الذى لا يموت - بحدوث القحط والجفاف فتتحقق نبوّته تماماً :

« قال إيليا .. لآخاب : حى هو الرب إلٰه إسرائيل الذى وقفت أمامه ، أنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين ، **إلا عند قولى** ..

وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض » .

(الملوك الأول ١٧ : ١ - ٧)

ثم عاد إيليا وتنبأ بانقضاء سنوات الجفاف فتحققت نبوّته بانهمار الأمطار :

« وبعد أيام كثيرة كان كلام الرب إلى إيليا ، فى السنة الثالثة ، قائلاً : اذهب وتراء لآخاب فأعطى مطراً على وجه الأرض . فذهب إيليا ليتراءى لآخاب،

وكان الجوع شديداً فى السامرة .. وقال إيليا لآخاب : اصعد كل واشرب لأنه حس دوى مطر .. وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وخرّ إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه ، وقال لغلامه : اصعد تطلع نحو البحر . فصعد وتطلع وقال : ليس شىء ، فقال : ارجع سبع مرات ..

وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسوَدّت من الغيم والريح وكان مطر عظيم » .
(الملوك الأول : ١٨)

وفى مواجهة عاصفة بين إيليا وآخاب تحدى إيليا أنبياء البعل الكذّابين أن يتقدم هو بقربان إلى الرب إلهه ، ويتقدم أولئكم الكذّابون بقربان إلى البعل إلههم وتكون علامة الإله الحق أن يرسل ناراً من السماء لتأكل القربان الذى دعى باسمه :

« لما رأى آخاب إيليا قال له آخاب : أأنت هو مكدر إسرائيل ؟ فقال : لم أكدر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم ..

فالآن ارسل واجمع إلىّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل **وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المئة** الذين يأكلون على مائدة إيزابل .

فأرسل آخاب إلى جميع بنى إسرائيل وجمع الأنبياء (الكذأبين) إلى جبل الكرمل ..

فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال : حتى متى تعرجون بين الفرقتين . إن كان الرب هو الله فاتبعوه ، وإن كان البعل فاتبعوه .. ثم قال إيليا للشعب : أنا بقيت نبياً للرب وحدى وأنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلاً ، فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثوراً .. وأنا أُقرِّب الثور الآخر .. ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب . والإله الذى يجيب بنار فهو الله ، فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن ..

فأخذوا الثور .. وقرّبوه ودعوا باسم البعل .. فلم يكن صوت ولا مجيب ..

وقال إيليا لجميع الشعب : تقدموا إلىّ .. وقطع الثور ووضعه على الحطب .. وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبى تقدم وقال : **أيها الرب إله إبراهيم**

وإسحق وإسرائيل ، ليعلم اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور ..

استجبنى يارب ..

فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة ..

فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله ..

فقال لهم إيليا : امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل . فأمسكوهم ، فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك » (الملوك الأول ١٨)

إن العبرة الواضحة فى قصة إيليا ومعجزاته أن ما يجرى من آيات على يد كل نبى ولو كان عجباً ، إنما يتم بأمر الله ، وليس هناك عذر لأى إنسان كائناً مَن كان أن يتيه فى نبى بسبب معجزاته فذاك بُعْدٌ عن الحقيقة وضياع .

*

وكان أمر تدبير الطعام إلى إيليا عجيباً فقد عهد به الله إلى مخلوقات ضعيفة كالغربان من الطير ، أو امرأة أرملة من بنى الإنسان حلت بها بركة إلياس :

« وكان كلام الرب له قائلاً : انطلق من هنا .. واختبىء عند نهر كريث ...

فتشرب من النهر وقد أمرتُ الغربان أن تعولك .

فانطلق وعمل حسب كلام الرب .. وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساءً .

وكان له كلام الرب قائلاً : قم اذهب إلى صرفة وأقم هناك هو ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك فقام وذهب إلى صرفة .. وإذا بامرأة أرملة هناك تقشر عيداناً فناداها .. وقال : هاتى لى كسرة خبز فى يدك . فقالت : عندى ملء كف فى الكوار وقليل من الزيت فى الكوز . فقال لها إيليا : لا تخافى ..

لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل : أن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطراً على وجه الأرض .

فذهبت وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وبيتها أياماً ، كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذى تكلم به عن يد إيليا » .

(الملوك الأول ١٧)

*

وحدث أثناء إقامة إيليا عند تلك الأرملة أن مرض ابنها مرضاً قضى عليه ، فتضرع إيليا إلى الله أن يُحيى ذلك الميت ، وقد استجاب الله دعاءه :

« قال لها (إيليا) : أعطينى ابنك وأخذه من حضنها .. وأضجعه على سريره ، وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهى ، أأيضاً إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأتَ بإماتتك ابنها .. فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال : يارب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه .

فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش .

فأخذ إيليا الولد .. ودفعه إلى أمه وقال إيليا : انظرى ابنك حى .

فقالت المرأة لإيليا : هذا الوقت علمتُ أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق » (الملوك الأول ١٧ : ١٩ - ٢٤) .

إن الحق هو ما شهدت به المرأة وهو ما يشهد به كل عاقل على صدق إيمان هذه المرأة التى لم تأخذها روعة الموقف ولم يذهب بعقلها ما صنعه إيليا من إيحاء لابنها بعد موت أحزنها وأثكلها . ولم تقل المرأة لإيليا :

علمتُ أن فيك جانباً إلهياً لأنك فعلتَ ما اختص به الإله المحيى المميت ، ولكنها قالت له بإيمان الراسخين : علمتُ أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك ومن ثَمَّ إن أحييتَ أو أمَتَ فلن يكون ذلك إلا بأمر الله .

*

وحين انتهت حياة إيليا فإنه رُفِعَ إلى السماء ولم يذق الموت على الأرض :

« قال إيليا لإليشع (تلميذه) : اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك .

فقال إليشع : ليكن نصيب اثنين من روحك عليَّ ...

وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا بمركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء .

وكان إليشع يرى وهو يصرخ : يا أبى ، يا مركبة إسرائيل وفرسانها ، ولم يره بعد..

فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه فضرب الماء .. فانطلق إلى هنا وهناك فعبر إليشع .

ولما رآه بنو الأنبياء .. قالوا : قد استقرت روح إيليا على إليشع فجاءوا للقائه وسجدوا له إلى الأرض » (الملوك الثانى ٢ : ٩ - ١٥) .

هذا هو إيليا العجيب - كما يُرَى فى أسفار العهد القديم - ذو الرداء العجيب الذى شابه عصا موسى حين فلق الماء فعبر العابرون .

* *

وفى أسفار العهد الجديد نجد إيليا يحظى بما يليق به كنبى عظيم ، فقد كان له نشاط بعد انقضاء حياته على الأرض .

إذ ظهر إيليا للمسيح وتلاميذه ، وهؤلاء سمعوه يلقى القول إلى المسيح :

« أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وحدهم ..

وظهر لهم إيليا مع موسى ، وكانا يتكلمان مع يسوع .

فجعل بطرس يقول ليسوع : ... فلنصنع ثلاث مظال ، لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة ، لأنه لم يكن يعلم ما يتكلم به إذ كانوا مرتعبين .. فنظروا حولهم بغتة ولم يروا أحداً غير يسوع وحده معهم » (مرقس ٩ : ٢ - ٨) .

ولقد كان الكهنة والشعب الإسرائيلى يتوقع عودة إيليا قبل مجىء المسيح كما فهموا ذلك من نبوءات الكتب والأنبياء ولذلك ترددوا فى الإيمان بالمسيح :

« سأله تلاميذه قائلين : فلماذا يقول الكَتَبة إن إيليا ينبغى أن يأتى أولاً » .

(متى ١٧ : ١٠)

*

وفى القرآن الكريم نجد إيليا موضع تكريم ككل أنبياء الله ورسله :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ *

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(الصافات : ١٢٣ - ١٣٢)

هذا هو إيليا الأول الذى طابت سيرته فى كل الكتب المقدسة ، والذى تمضى بعده القرون الطويلة قبل أن يظهر إيليا آخر - يحيى بن زكريا - يعيد لنا سيرته فى القوة على نفسه والشدة على الحاكم الظالم .

* * *

• لفظ المسيح :

ظهر فى بنى إسرائيل مسحاء كثيرون ، كانوا يحظون بهذا اللقب بمجرد أن يمسحهم أحد الأنبياء بالزيت المقدس الطاهر . فهكذا كان الحال مع شاول الذى مسحه النبى صموئيل :

« والرب كشف أذن صموئيل .. قائلاً : غداً فى مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين ، فامسحه رئيساً لشعبى إسرائيل ..

فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه ..

وكان عندما أدار (شاول) كتفه لكى يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه قلبا آخر .. وإذا بزمرة من الأنبياء لقيته **فحل عليه روح الله فتنبأ فى وسطهم** » (صموئيل الأول ٩ : ١٥ - ١٦) .

فكان المسيح هو اللقب الذى حظى به شاول كما أعلن صموئيل :

« وقال صموئيل لكل إسرائيل : « اشهدوا علىّ قُدّام الرب وقُدّام مسيحه .. .. شاهد الرب عليكم وشاهد مسيحه اليوم هذا أنكم لم تجدوا بيدى شيئاً » .

(صموئيل الأول : ١٢ : ١ - ٥)

وكذلك شهد داود لشاول بأنه مسيح الرب :

« قال (داود) لرجاله : حاشا لى .. أن أعمل هذا الأمر بسيدى (شاول) بمسيح الرب ، فأمد يدى إليه لأنه مسيح الرب » (صموئيل الأول ٢٤ : ٦) .

وبعد شاول ، قام صموئيل بمسح داود ، فتحول إلى مسيح آخر :

« قال الرب (لصموئيل) : قم امسحه .. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه . .. **وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً** » .

(صموئيل الأول ١٦ : ١٢- ١٣)

وقبل أن يصعد إلياس إلى السماء فإنه مسح تلميذه إليشع نبياً من بعده :

« وقال الرب (لإيليا) : اذهب .. وامسح إليشع بن شافاط .. نبياً عوضاً عنك » (الملوك الأول ١٩ : ١٥ - ١٧) .

وأخيراً جاء المسيح عيسى ، أعظم مسيح ظهر فى بنى إسرائيل ، والذى سمى فى الإنجيل مسيح الرب :

« كان رجل فى أورشليم اسمه سمعان . أوحى إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى **مسيح الرب .. أخذه على زراعيه وبارك الله** » .

(لوقا ٢ : ٢٥ - ٢٨)

* *

● ولادة العذراء :

اقتضت إرادة الله أن تلد سارة العجوز لإبراهيم الشيخ الهَرِم ابناً هو إسحق . وإذا كان إنجاب الرجل العجوز ذُرِّية فى شيخوخته محتمَلاً إلى حد ما فإن إنجاب المرأة حين تتقدم بها السن وتتعدى التسعين عاماً يُعتبر شبه مستحيل . ولكنه أمر الله يقول للشىء : ﴿ كُنْ ، فَيَكُونُ ﴾ . ولهذا حدث لإبراهيم ما أثار عجبه حين بشَّرته الملائكة بإسحق ، إذ كان قد « سقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه : هل يولد لابن مئة سنة ، وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة » ؟!

(تكوين ١٧ : ١٧)

وفعلاً ولدت سارة - على الرغم من عقرها - وعلى الرغم من شيخوخة إبراهيم ومرت القرون .. أكثر من سبعة عشر قرناً من الزمان .

ثم كانت إرادة الله أن يُذَكِّر الناس بما حدث لأبى الأنبياء إبراهيم ، فأعاد سيرته الأولى فى الإنجاب على الكِبَر ممثلة تماماً فى زكريا وزوجه العاقر ، إذ تعجب هذا كما سبق أن تعجب جده إبراهيم وقال للملاك :

« كيف أعلم هذا لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قُدَّام الله وأُرْسِلتُ لأكلمك وأُبَشِّرك بهذا » .

(لوقا ١ : ١٨- ١٩)

وبعد هذا التمهيد الإلهى المحكم ، والذى تحقق فيه حدوث إنجاب فى حالة عجيبة ، أعقبه فى حينه بحالة أعجب ، ألا وهى حدوث إنجاب للعذراء مريم .

فالإنجيل يقول : « أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا . لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا (كزوجين) وُجِدَت حبلى من الروح القدس » .

(متى ١ : ١٨)

والدليل على أن توقيت حمل زوجة زكريا العاقر كان حكمة أُريد بها التمهيد لحادث حمل العذراء - لكى يتقبله الناس دون زيغ أو طغيان - أن حمل زوجة زكريا العجيب استُخدم حجة لإقناع مريم ذاتها بالاستسلام لما يثيره حملها الأعجب من مشاكل واضطراب فى نفسها وفى بيئتها .

فبعد أن بشَّرها الملاك بالحمل والولادة « قالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟

فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك .. وهو ذا اليصابات (زوجة زكريا) نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن فى شيخوختها ، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً ، لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله .

فقالت مريم : هو ذا أنا أَمَة الرب (واحدة من عبيد الله) ليكن لى كقولك . فمضى من عندها الملاك » (لوقا ١ : ٣٤ - ٣٨) .

ولا شك فى أن حدوث حمل لفتاة عذراء دون اتصال برجل ما على أية صورة من الصور ، إنما هو شىء خارق للعادة لأن ما اعتاد عليه الناس هو ضرورة تلقيح المرأة من الرجل حتى يتم الحمل وتحدث الولادة . لكن المؤمنين بالله ينظرون إلى حادث حمل مريم العذراء بابنها المسيح إثر نفخة من الروح القدس باعتباره واحداً من مظاهر قدرة الله ورعايته لخلقه .

فالله - سبحانه - أوجد المسيح من امرأة فقط دون تدخل من رجل ، وكان نتاج ذلك مولد إنسان بالصورة التى تلد بها كل النساء . وبذلك خلق الله إنساناً ذا روح من إنسان ذى روح .

ومن قبل أوجد الله حواء ، الأم الأولى للبَشرية كجزء من آدم ، وبذلك خلق الله إنساناً ذا روح من إنسان ذى روح ، لكن عملية مولد حواء كانت على غير الصورة التى توالدت بها البَشرية بعد ذلك ، فحواء لم يُحمل بها فى بطن ولم تنزلق عند ولادتها من رحم .

ومن قبل أوجد الله آدم من قبضة من طين ، أى خلق إنساناً ذا روح من جماد غير ذى روح . ولقد كانت الروح التى حلّت فى آدم نفخة من روح الله .

ومن قبل آدم خلق الله الأكوان الرهيبة بعجائبها وعظائمها من العدم ، أى خلق أشياء من لا شىء .

فالله عند المؤمنين ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٠) .

ويمكن البرهنة على أن احتمالات الإنجاب للحالات الثلاث التى عرضناها وهى: إبراهيم الشيخ وزوجه العاقر سارة ، وزكريا الشيخ وزوجه العاقر اليصابات ، ومريم العذراء بلا زوج - كلها متساوية ، وذلك كالآتى :

نعلم من علوم الطبيعة أنه إذا توقّف حَدَث على عاملين (أ) ، (ب) بحيث لا يقع الحَدَث إلا إذا وُجِدَ العاملان معاً ، فإن احتمال وقوع الحَدَث يتوقف على احتمال وجود العاملين الذى نُعَبِّر عنه بالصورة المبسطة التالية :

احتمال الحَدَث = احتمال العامل (أ) × احتمال العامل (ب) .

وفى حالاتنا هذه نقول إن :

الحَدَث = الحمل .

العامل (أ) = حيوانات منوية صالحة .

العامل (ب) = بويضة أنثى صالحة .

ففى حالة إبراهيم نجد أن :

العامل (أ) محتمل وجوده ، أى أن قيمته أكبر من الصفر ولتكن (س) .

العامل (ب) غير محتمل وجوده ، لأن سارة بلغت ۹۰ عاماً ، أي أن قيمته تساوى صفر

∴ احتمال الحمل فى حالة إبراهيم = س × ٠ = صفر .

وبالمثل فى حالة زكريا لأن الحالتين متماثلتين تماماً .

وفى حالة مريم نجد أن :

العامل (أ) غير موجود أى أن قيمته = صفر

العامل (ب) يحتمل - بل يغلب - وجوده فى العذراء الناضجة ، أى أن قيمته أكبر من الصفر ولتكن (ص) .

∴ احتمال الحمل فى حالة مريم = ٠ × ص = صفر

ومن ذلك يتبيَّن أن الحالات الثلاث متساوية . ولا يبقى لنا إلا أن نرد الأمر فيها جميعاً « لله العلى الكبير » .

*

هذا .. ولم تكن ولادة العذراء مريم أول حادثة من نوعها ، فقد سبقتها على الأقل حالة أخرى ذكرتها المصادر المسيحية عند الحديث عن تفسير النبوءة التى نقلها متى فى إنجيله من سِفر أشعياء ، وفيها يقول :

« هو ذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل (الذى تفسيره الله معنا) » (١ : ٢٣) .

يقول المفسِّرون :

« هذه النبوءة مذكورة فى (إش ٧ : ١٤) وقد أوحى بها نحو (٧٤٠ ق . م) والعبارة منقولة عن الترجمة السبعينية (وهى ترجمة نقلها من العبرانية إلى اليونانية بعض علماء اليهود فى الإسكندرية بين سنة ٢٠٠ و ٣٠٠ ق . م . وهى النسخة التى غلب استعمال اليهود لها فى أيام المسيح) .

وظن البعض أن هذه النبوءة تمت أولاً فى أيام أحاز الملك فى ولادة ولد من فتاة كانت حينئذ عذراء لكنها تزوجت فيما بعد . ثم إنها تمت ثانياً بأسمى معنى بولادة المسيح ، وظن آخرون أن أشعياء لم يشر إلا إلى يسوع ابن مريم . **والرأى الأول هو الأرجح لأنه كثيراً ما رأينا النبوءة الواحدة تمت عدة مرات** » [١] .

من ذلك يتبيَّن أن الشعب الإسرائيلى قد ولدت فيه عذراء مرة – على الأقل – منذ حوالى سبعة قرون قبل أن تلد فيه عذراء أُخرى هى مريم . وفى جميع الحالات فإن هذه الولادة العذرية لا يمكن أن تعنى شيئاً بالنسبة للمولود – مثل الحديث عن جانب لاهوتى له أو نحو ذلك – لكنها تعنى شيئاً واحداً وهو أن الله – سبحانه – ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [٢] ، لأن الله ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . [٣] .

*

وإذا تركنا موضوع ولادة العذراء عند هذا الحد الذى يكفى لتقرير أن مجىء المسيح عيسى على تلك الصورة المعروفة ليس أكثر عجباً من حوَّاء أُم البشرية أو مجىء آدم الإنسان الأول – ثم انتقلنا إلى ميدان العلم الحديث ، لوجدناه يتمشى تماماً مع هذا الذى قررناه :

فمنذ ثلاثة عشر عاماً نشرت مجلة « لانست » [٤] الطبية الإنجليزية المعروفة ، بحثاً بعنوان « التوالد العذرى فى الثدييات » جاء فيه : « إن إمكانية حدوث حمل لامرأة دون إدخال واحد – على الأقل – من الحيوانات المنوية إلى رحمها يعتبر أمراً لا يستطيع الإنسان العادى قبوله برضا . ولبضع قرون وقفت الفكرة العلمية فى صف هذا الإنسان العادى ، لكن علماء الأحياء اليوم وخاصة علماء الوراثة الخلوية قد يكونون أقل تشدداً فى استبعاد مثل هذا الاحتمال ..

(١) الكنز الجليل فى تفسير الإنجيل : تفسير إنجيل متى – ص ٩

(٢) آل عمران : ٤٧ — (٣) البقرة : ٢٠ . — (٤) مجلد عام ١٩٥٥

إن بعض الدوافع لذلك ناقشتها فى الأسبوع الماضى الدكتورة « هيلين سبيرواى » أستاذة علم البيولوچيا الإحصائية بجامعة لندن ، وذلك فى محاضرة لها بعنوان : ولادة العذارى . ولقد كان ذلك بمناسبة ما **تلاحظ من أن بعض أنواع الأسماك التى عُزِلت أناثها منذ ولادتها قد وُجِدَت مخصبة ونتج عن ذلك ولادتها لنسل يتكوّن فى غالبيته من إناث ..**

إن التوالد العذرى الذى تبدأ فيه البويضة بالانقسام ذاتياً ، منتجة جنيناً بسيطاً ، أو قيامها بتعويض الكروموزوم الأبوى الناقص بشكل ما من أشكال الازدواج يعتبر شيئاً نادراً جداً فى الفقاريات ذات الدم الحار ، لكنه شىء عادى فى اللافقاريات .

وقد أمكن تسجيل عملية انقسام البويضة عذرياً فى القطط [١] ، وحيوان ابن مقرض [٢] ثم حديثاً فى بعض دجـاج الرومى غير المخصب [٣] .

لكن تطور التوالد العذرى بمعناه الكامل بحيث يعطى نسلاً قابلاً للنمو والحياة ، يمكن عمله فى الثدييات وذلك بتبريد قنوات فالوب ، ولقد أمكن إنتاج كثير من الأرانب عديمة الآباء بهذا الأسلوب ... وبمراعاة كل تلك الاعتبارات ، علينا أن نعيد النظر فى مبررات اعتقادنا بأن التوالد الذاتى فى الفقاريات شىء نادر ، وأنه لا وجود له فى الثدييات » .

هذا .. وكانت صحيفة « الصنداى بكتوريال » البريطانية قد أشارت فى عددها الصادر بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٥٥ إلى محاضرة الدكتورة « هيلين سبيرواى » عن « ولادة العذارى » وتلقت نتيجة لذلك عدداً من الرسائل من أمهات يقلن أنهن تعرضن لعملية حمل وولادة عذرية دون تدخل من أى رجل على أية صورة

(١) Strassmann, E.O. Amer. J. Obstet. Gynec. 1949 , 58, 237 .

(٢) Chang, M.C. Anat. Rec. 1950,108,31.

(٣) Olsen, M.W., Marsden, S.J. Science, 1954, 120, 545.

من الصور . وآنذاك شكلت الصحيفة لجنة من الأخصائيين أجرت فحوصاً طبية واختبارات علمية على عدد من تلكم الأمهات واستقر رأى اللجنة على استمرار بحث حالة سيدة تدعى إيمارى چونز وابنتها مونيكا ذات الأحد عشر عاماً والتى قالت أمها إنها ولدتها من غير أب . وبعد ستة أشهر قالت اللجنة فى تقريرها :

« لقد استخدمنا جميع التجارب والاختبارات العلمية الهامة المعروفة فى عالم الطب ، ولم نستطع أن نثبت أن أى رجل قد اشترك بأية وسيلة فى خلق هذه الفتاة . إن جميع النتائج التى وصلنا إليها تتمشى مع نظرية الولادة العذرية ، ولم نجد فى هذه الفتاة أثراً يمكن أن يأتى من أى شخص آخر سوى أمها » [1] .

كذلك أثبتت التجارب أنه بتنشيط البويضة بطرق كيميائية أو طبيعية فمن المحتمل تكوين الجنين كما حدث للضفادع منذ ٤٥ عاماً عندما وُخزَت بويضة الأنثى بدبوس فنشطت وكوَّنت جنيناً دون حيوانات منوية من الذكر وتحدث هذه الحالة فى معظم اللافقاريات كالنمل .

وقد يكفى لتلقيح البويضة تنبيه ميكانيكى أو كهربائى كما سبق أن أعلن ذلك الأستاذ « سيفرز » رئيس مجمع ترقية العلوم البريطانى عام ١٩١٢ [2] .

واليوم ونحن فى عام ١٩٧٨ يطالعنا ما أذاعته وكالة يونيتدبرس للأنباء وهذا نصه : « وضعت أمس سيدة فى جزر الرأس الأخضر طفلة حاملاً وظن الأطباء أن الطفلة مصابة بورم فى بطنها ولكن الأشعة أوضحت أن ببطنها جنيناً عمره عدة أشهر ، وقرر الأطباء إجراء عملية جراحية عاجلة لإنقاذ حياة الطفلة » [3] .

*

(١) صحيفة « أخبار اليوم » بتاريخ ٣٠ يونية ١٩٥٦

(٢) من كتاب : العلم والعمران - فؤاد صروف - ص ١٣٢

(٣) صحيفة « الجمهورية » بتاريخ ٩ مارس ١٩٧٨

لقد ضل كثيرون فى أمر ولادة العذراء مريم ، فالبعض أنكره وكفر وقال عليها آنذاك « **بهتاناً عظيماً** » لا يزال يتردد صداه فى الإنجيل حتى اليوم . ففى إحدى محاورات المسيح مع اليهود ، قالوا له : « **إننا لم نولد من زنا** » .

(يوحنا ٨ : ٤١)

بينما رأى البعض الآخر أن ولادة المسيح عيسى على تلك الصورة النادرة تعنى أن فيه جانباً إلهياً يتميَّز به عن بقية البَشر وإن جاء على صورة بَشر .

وبين رفض المسيح والغلو فيه تبقى حقيقة أمره واضحة كل الوضوح لا غموض فيها ولا إبهام . فالمؤمنون بالله جميعاً يشهدون : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الشورى : ٤٩) .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس : ٨٢)

* *

● أسماء عيسى وألقابه :

لقد نسب كتَبَة الأناجيل المسيح عيسى إلى يوسف النجار زوج أمه مريم ، فيقول متى : « كتاب ميلاد يسوع المسيح .. إبراهيم ولد إسحق ، وإسحق ولد يعقوب ...... وسليمان ولد – رحعبام ... ومتان ولد يعقوب ويعقوب ولد يوسف رجل مريم ، التى وُلِدَ منها يسوع الذى يدعى المسيح » (متى ١ : ١ - ١٦) .

ويقول لوقا : « ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة ، وهو على ما كان يظن : ابن يوسف بن هالى ... ... ابن ناثان بن داود » (لوقا ٣ : ٢٣ - ٣١) .

ولقد صدَّقت مريم على نسبة ابنها عيسى إلى زوجها يوسف ، إذ يقول لوقا :

« **كان أبواه (مريم ويوسف)** يذهبان كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح . ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد . وبعد ما أكملوا الأيام بقى عند رجوعهما الصبى يسوع فى أورشليم ، ويوسف وأمه لم يعلما .. ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه .. فلما أبصراه اندهشا .

وقالت له **أمه** : يا بنى ، لماذا فعلتَ بنا هكذا . هو ذا **أبوك وأنا** كنا نطلبك معذَّبين » (لوقا ٢ : ٤١ - ٤٨) .

وعُرِفَ المسيح عيسى أيضاً بابن داود ، يقول لوقا : « أرسل جبرائيل الملاك من اللّه .. إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف . فقال لها الملاك : لا تخافى يا مريم .. ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً .. ويعطيه الرب الإلهى كرسى **داود أبيه** » (لوقا ١ : ٢٦ - ٣٢) .

وقد قبل المسيح لقب ابن داود من المؤمنين به : « وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير ، كان بارتيماس الأعمى .. جالساً على الطريق .. فلما سمع أنه يسوع الناصرى ابتدأ يصرخ ويقول يا **يسوع بن داود** ارحمنى - فأجاب يسوع وقال له : ماذا تريد أن أفعل بك ؟ فقال له الأعمى : يا سيدى أن أبصر . فقال له يسوع : اذهب ، إيمانك قد شفاك . فللوقت أبصر وتبع يسوع فى الطريق » (مرقس ١٠ : ٤٦ - ٥٢) .

على أن الاسم الذى اختاره المسيح لنفسه وكرَّره كثيراً فى أحاديثه هو « **ابن الإنسان** » وما ذلك إلا لكى يعى الناس جميعاً أنه أولاً وأخيراً بَشر مثل كل البَشر ، ومَن غلا فيه بعد ذلك وخلط بينه وبين اللّه على أية صورة من الصور ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ (المؤمنون : ١١٧) .

لقد شاع استخدام هذا الاسم فى الأناجيل الأربعة وكان هو المفضَّل عند المسيح حين يتكلم عن نفسه :

« كل مَن اعترف بى قُدَّام الناس يعترف به **ابن الإنسان** قُدَّام ملائكة اللّه ، وكل مَن قال كلمة على **ابن الإنسان** يُغْفَر له ، وأما من جَدَّف على الروح القدس فلا يُغْفَر له » (لوقا ١٢ : ٨ - ١٠) .

« قال له واحد : ياسيد ، أتبعك أينما تمضى ؟ فقال له يسوع : للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما **ابن الإنسان** فليس له أن يسند رأسه » .

(لوقا ٩ : ٥٧ - ٥٨)

« **ابن الإنسان** قد جاء لكى يُخَلِّص ما قد هلك » (متى ١٨ : ١١) .

« الحق أقول لكم : لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى **ابن الإنسان** » .

(متى ١٠ : ٢٣)

« من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على **ابن الإنسان** » (يوحنا ١ : ٥١) .

« اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى للحياة الأبدية الذى يعطيكم **ابن الإنسان** » (يوحنا ٦ : ٢٧) .

ولقد أكَدَّ عيسى لتلاميذه أنه المسيح ، فليعلموا ذلك وهو لا يطلب منهم أكثر من هذا :

« خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيليبس . وفى الطريق سأل تلاميذه قائلاً لهم : مَن يقول الناس أنى أنا ؟ فأجابوا : يوحنا المعمدان ، وآخرون : إيليا ، وآخرون : واحد من الأنبياء .

فقال لهم : وأنتم من تقولون إنى أنا ؟

فأجاب بطرس وقال له : **أنت المسيح** » (مرقس ٨ : ٢٧ - ٧٩) .

لكن كاتب إنجيل متى أضاف على قول بطرس هذا شيئاً آخر من تلك الأقوال التى فتحت الأبواب واسعة للجدل والشقاق بل والحروب عَبر القرون . فهو يقول: « ولما جاء يسوع إلى نواحى قيصرية فيليبس .. قال لهم : وأنتم مَن تقولون إنى أنا ؟ فأجاب سمعان بطرس وقال : أن المسيح ابن الله الحى » .

(متى ١٦ : ١٣ - ١٦)

ويقول چون فنتون [١] فى تعليقه على هذه الفقرة من إنجيل متى : « لقد أضاف متى كلمات : ابن الله الحى ، إلى كلمات مرقس : أنت المسيح ، كما أضاف أيضاً كلمات يسوع التالية ...

---

(١) عميد كلية اللاهوت بليتشفيلد بإنجلترا .

ومن هذا يتبين أن سياق الكلام حالياً – يحتمل ألا يكون هو المضمون الأصلى . لقد مارس متى هنا عادته فى إضافة أقوال إلى أقوال مرقس » [1] .

ومن المعلوم أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل وأن كُلاً من متى ولوقا استعانا به عندما كتبا إنجيلهما . ومهما يكن من أمر فإن تعبير « ابن اللّه » قد استخدمه الإسرائيليون القدامى وكتبة الأسفار ليدل على محبة اللّه ورعايته ولا يسمح بشىء أكثر من هذا .

فحين ذهب موسى لفرعون ، يقول كتبة التوراة : « قال الرب لموسى .. تقول لفرعون : هكذا يقول الرب : إسرائيل ابنى البكر .. أطْلِقْ إبنى (الشعب الإسرائيلى) ليعبدنى ..

بعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون : هكذا يقول الرب إلٰه إسرائيل : أطلق شعبى ليعيدوا لى فى البرية » (خروج ٤ : ٢١ – ٢٣ ، ٥ : ١) .

« أنتم أولاد الرب إلٰهكم .. لأنك شعب مقدس للرب إلهك » .

(تثنية ١٤ : ١– ٢)

« أبو اليتامى ، وقاضى الأرامل ، اللّٰه » (مزمور ٦٨ : ٥) .

« وجدت داود عبدى بدهن قدسى مسحته . هو يدعونى : أبى أنت . إلٰهى وصخرة خلاصى » (مزمور ٨٩ : ٢٠ – ٢٦) .

« كما يترأف الأب على البنين ، يترأف الرب على خائفيه »

(مزمور ١٠٣ : ١٣)

« الذى يحبه الرب يؤدبه ، وكأب بابن يُسَرُّ به » (أمثال ٣ : ١٢) .

« قال داود لسليمان .. كان إلىّ كلام الرب قائلاً : .. هو ذا يولد لك ابن .. اسمه يكون سليمان .. هو يبنى بيتاً لاسمى وهو يكون لى إبناً وأنا له أباً » .

(أخبار الأيام الأول ٢٢ : ٧ – ١٠)

(١) J. C. Fenton : SAINT MATTEW, P. 265.

ويقول أشعياء : « إنك أنت أبونا .. أنت يا رب أبونا ، ولينا منذ الأبد اسمك » (أشعياء ٦٣ : ١٦) .

وفى محاورة بين المسيح واليهود قالوا له : « لنا أب واحد وهو الله » . (يوحنا ٨ : ٤١)

ويشتهر إنجيل يوحنا بكثرة تفسيراته ، وهو هنا يقول : « أولاد الله أى المؤمنون باسمه » (يوحنا ١ : ١٢) .

كذلك يقول : « ربى ، الذى تفسيره : يا معلم » (يوحنا ١ : ٣٨) ، « ربونى الذى تفسيره : يا معلم » (يوحنا ٢٠ : ١٦) .

ويقول : « الله ، الآب » - (بمد الهمزة) . (يوحنا ٦ : ٢٧) .

ويقول إنجيل متى على لسان المسيح : معلمكم واحد ، المسيح ، وأنتم جميعاً إخوة ، ولا تدعوا لكم أباً على الأرض ، لأن أباكم واحد الذى فى السموات » . (متى ٢٣ : ٨ - ٩)

وعلى كل فقد حدَّد المسيح لقبه وحقيقته لتلاميذه تحديداً واضحاً أشد الوضوح ، مبرأ عن كل لبس وبغير حاجة إلى تأويل . ففى ساعاته الأخيرة مع تلاميذه قال لهم ، « **أنتم تدعوننى معلماً وسيداً ، وحسناً تقولون ، لأنى أنا كذلك** » (يوحنا ١٣ : ١٣) .

وخلاصة القول فى أسماء عيسى : إن أدقها ولا شك : « المسيح عيسى ابن مريم » ثم ما نقرأه بعد ذلك فى الأناجيل : « ابن الإنسان » - « يسوع بن يوسف الذى من الناصرة » - « ابن النجار » - « ابن داود » - « معلماً وسيداً » .

* *

• شخصية المسيح فى الأناجيل :

نعرض هنا بعض الصور والحالات والمواقف التى عرضها كَتَبة الأناجيل الأربعة لشخصية المسيح منذ مولده حتى رفعه والتى يكفى ذكرها دون الحاجة إلى كثير من الشروح والتأويلات فحقيقتها واضحة لا تحتاج إلى تعليق .

*

● مولد المسيح وطفولته :

يقول متى : « أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا . لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجِدَت حبلى من الروح القدس .. فيوسف رجلها .. أراد تخليتها ولكن إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلاً .. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك .. فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذ امرأته . ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر . ودعا اسمه يسوع ».

(متى ١ : ١٨ - ٢٥)

لقد حملت مريم بابنها عيسى بنفخة من الروح القدس ، ثم سار الحمل بعد ذلك طبيعياً ، وكذلك الميلاد ، إذ يقول لوقا : « وبينما هما (يوسف ومريم) هناك ، تمت أيامها لتلد . فولدت ابنها البكر وقمَّطته وأضجعته فى المذود » .

(لوقا ٢ : ٦ - ٧)

لقد كان حديث كَتَبَة الأناجيل عن عدم معرفة يوسف لمريم - أى معاشرتها كزوجة قبل أن تلد ابنها البكر - سبباً لإثارة الجدل بين شيوخ المسيحية - وخاصة منذ القرن الخامس الميلادى - عما إذا كان يوسف قد عاشرها كزوجة بعد ذلك ، وعما إذا كانت قد أنجبت له ذُرِّية ، خاصة وأن الأناجيل سمت عيسى « ابنها البكر » وذكرت أن له إخوة يعيشون فى حضن أمه .

ويقول « چون فنتون » فى تفسيره للجزء الأخير من الفقرة التى ذكرها متى : « ليس من الضرورى أن يعطى هذا إنطباعاً بأن يوسف عرفها بعد أن ولدت ابنها ، لكن الإشارة إلى إخوة يسوع وأخواته التى ذكرها متى فى (١٢ : ٤٦ ، ١٣ : ٥٥) دون أى بيان آخر توحى بأنه عرفها بعد ذلك » [(١)] .

*

هذا .. « **ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبى سمى يسوع .. ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدِّموه للرب .**

(١) المرجع السابق - ص ٤٤

كما هو مكتوب فى ناموس الرب أن **كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوساً للرب** . ولكى يقدِّموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب زوج يمام أو فرخى حمام » .
(لوقا ٢ : ٢١ - ٢٤)

*

• المسيح فى صباه :

« كان أبواه (يوسف ومريم) يذهبان كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد .

وبعد ثلاثة أيام وجداه فى الهيكل جالساً وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ..

ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما .

وأما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » .

هذا .. ومن المعلوم أن الأناجيل صمتت صمتاً تاماً عن الفترة بين صباه لما كان له من العمر اثنتا عشرة سنة إلى أن بدأ دعوته وله نحو ثلاثين سنة كما يقول لوقا .

*

• التمهيد للرسالة :

« جاء يسوع من الناصرة واغتمد من يوحنا فى الأردن . وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه » .

(مرقس ١ : ٩ - ١٠)

« وإذ كان يصلى انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة » (لوقا ٣ : ٢١ - ٢٢) .

« وشهد يوحنا قائلاً : إنى قد رأيتُ الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه وأنا لم أكن أعرفه لكن الذى أرسلنى لأُعَمِّد بالماء قال لى : الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذى يُعَمِّد بالروح القدس » .

(يوحنا ١ : ٣٢ - ٣٣)

بعد ذلك تعرَّض المسيح لفتنة الشيطان وتجربته حتى يظهر مدى طاعته لله ، وشدة إيمانه به ، وتمسكه بتوراة موسى :

« أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس وكان يقتاد بالروح فى البرية ، **أربعين يوماً يُجَرَّب من إبليس** ولم يأكل شيئاً فى تلك الأيام ، ولما تمت جاع أخيراً .

وقال له إبليس : إن كنتَ ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً .

فأجابه يسوع قائلاً : مكتوب [١] أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة من الله .

ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان وقال له إبليس : لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن .. فإن سجدت أمامى يكون لك الجميع .

فأجابه يسوع وقال : اذهب يا شيطان ، إنه مكتوب [٢] : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد .

ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له : إن كنتَ ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ، لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك .

فأجاب يسوع وقال له : إنه قيل [٣] : لا تجرب الرب إلهك .

---

(١) يقصد ما فى توراة موسى التى تقول : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان » (تثنية ٨ : ٣) .

(٢) يقصد ما تقوله التوراة : « الرب إلهك تتقى وإياه تعبد وباسمه تحلف » (تثنية ٦ : ١٣).

(٣) القول هنا يقصد به ما فى التوراة : « لا تجربوا الرب إلهكم » (تثنية ٦ : ١٦) .

ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين .

ورجع يسوع بقوة الروح إلى الجليل .. وكان يُعَلِّم فى مجامعهم ممجداً من الجميع » (لوقا ٤ : ١ - ١٥) .

*

لقد عاش المسيح بين الناس يتعرض لما يتعرضون له من مشقات تتعبهم وآلام تحزنهم ومسرات تفرحهم وكان ينفعل وتجيش نفسه بشتَّى العواطف والانفعالات التى يعرفها كل الناس . بل إنه كان يُقبل على الحياة أكثر مما فعل سَلَفه يحيى ابن زكريا ، فذلك ما شهد به المسيح ، وكذلك شهد كَتَبة الأناجيل .

*

● الطعام والشراب :

يقول المسيح : « جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ، فيقولون : به شيطان ..

جاء ابن الإنسان (المسيح) يأكل ويشرب ، فيقولون : هو ذا إنسان أكول وشريب خمر » (متى ١١ : ١٨ - ١٩) .

ويقول « چون فنتون » فى تعليقه على هذه الفقرة : « لقد دعا كل من يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) والمسيح إلى التوبة ، لكن اليهود لم يستجيبوا لهما . فاليهود يشبهون أولاداً سيئى المزاج مثيرين للخصام ، لا يعجبهم شىء . لقد عاش يوحنا بينهم ناسكاً متقشفاً فقالوا : به شيطان ، ولما لم يكن المسيح متقشفاً فقد قالوا : إنه ماجن ملحد »[1] .

وفى الساعات الأخيرة للمسيح مع تلاميذه « قال لهم شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم .. ثم تناول كأساً (من الخمر) وشكر وقال : خذوا هذه واقتسموها بينكم » (لوقا ٢٢ : ١٤ - ١٦) .

---

(١) المرجع السابق - ص ١٨٠.

« وأقول لكم : إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكَرْمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً » (متى ٢٦ : ٢٩) .

*

● **الحب** : « قدَّموا إليه أولاداً لكى يلمسهم ، وأما التلاميذ فانتهروا الذين قدَّموهم : فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ وقال لهم : دعوا الأولاد يأتون إلىَّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله .. **فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم** » (مرقس ١٠ : ١٣ - ١٥) .

« **كان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر** ، فلما سمع أنه مريض مكث حينئذ فى الموضع الذى كان فيه يومين » (يوحنا ١١ : ٥ - ٦) .

*

● **متاعب الحياة وأحزانها** : « أتى إلى مدينة من السامرة .. وكانت هناك بئر يعقوب . **فإذ كان يسوع قد تعب من السفر** جلس هكذا على البئر .. فجاءت امرأة من السامرة لتستقى ماء ، فقال لها يسوع : أعطينى لأشرب . لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً » (يوحنا ٤ : ٥ - ٨) .

وقالت مريم أخت لعازر المريض الذى توفى حديثاً : « يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى . فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج **بالروح واضطرب** وقال : أين وضعتموه ، قالوا له : يا سيد ، تعالى وانظر ، **بكى يسوع** » (يوحنا ١١ : ٣٢ - ٣٥) .

« جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جثسيمانى .. ثم أخذ معه بطرس وابنى زيدى **وابتدأ يحزن ويكتئب .. فقال لهم : نفسى حزينة جداً حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معى** » (متى ٢٦ : ٣٦ - ٣٨) .

*

● **العجز** : « قال لهم يسوع : ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته . **ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة** » .

(مرقس ٦ : ٤ - ٥)

« خرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكى يُجَرِّبوه . فتنهد بروحه وقال : لماذا يطلب هذا الجيل آية . **الحق أقول لكم لن يُعْطى هذا الجيل آية** . ثم تركهم ودخل أيضاً السفينة ومضى إلى العبر » .

(مرقس ٨ : ١١ - ١٣)

ولقد قال المسيح بوضوح : « **أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً** » .

(يوحنا ٥ : ٣٠)

وكما عجز عن الفعل واعترف بذلك ، فقد عجز عن القول واعترف بذلك أيضاً . فحين سأله تلاميذه عن « انقضاء الدهر » ويوم القيامة قال لهم : « **أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الآب** » (مرقس ١٣ : ٣٢) .

*

● **الغضب والعنف** : « صعد يسوع إلى أورشليم ووجد فى الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً . **فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل . الغنم والبقر وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم** »(يوحنا ٢ : ١٣ - ١٥) .

« جاء إلى يسوع كتبة وفريسيون .. قائلين : لماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ ؟

فأجاب وقال لهم : وأنتم أيضاً لماذا تتعدون وصية الله .. **يا مراءون** .

ثم دعا الجمع وقال لهم .. **اتركوهم ، هم قادة عميان وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة** » (متى ١٥ : ١ - ١٤) .

« **لما رأى يسوع ذلك اغتاظ** » (مرقس ١٠ : ١٤) .

« نظر حوله إليهم **بغضب حزيناً** على غلاظة قلوبهم » (مرقس ٧ : ٥) .

« **جيل شرير فاسق يلتمس آية** » (متى ١٦ : ٤) .

« **ابتدأ يوبخ المدن** التى صنعت فيها أكثر قواته لأنها لم تتب . ويل لكِ يا كوزين ، ويل لك يا بيت صيدا .. وأنتِ يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية » (متى ١١ : ٢٠ - ٢٣) .

« **ويل لكم أيها الكتَبة والفريسيون المراءون** .. ويل لكم أيها القادة العميان.. أيها الجهال والعميان .. أيها الفريسى الأعمى نَقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكى يكون خارجهما أيضاً نقياً . ويل لكم أيها الكَتَبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءة عظام أموات ونجاسة .. **أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم** » (متى ٢٣ - ١٥ - ٣٣) .

*

● **الخوف والاضطراب والفزع** : « لما كان فى أورشليم فى عيد الفصح آمن كثيرون باسمه .. **لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع** » (يوحنا ٢ : ٢٣ - ٢٤) .

« كان يسوع يتردد بعد هذا فى الجليل لأنه **لم يرد أن يتردد فى اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه** » (يوحنا ٧ : ١) .

« فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه . **فلم يكن يسوع أيضاً يمشى بين اليهود علانية** بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية » .

(يوحنا ١١ : ٥٣ - ٥٤)

« **انزعج بالروح واضطرب .. انزعج يسوع أيضاً فى نفسه** » .

(يوحنا ١١ : ٣٣ - ٣٨)

« الآن نفسى **قد اضطربت** وماذا أقول . **أيها الآب نجنى من هذه الساعة** » (يوحنا ٢١ : ٢٧) .

« **لما قال يسوع هذا اضطرب بالروح** » (يوحنا ١٣ : ٢١) .

« وظهر له ملاك من السماء يقويه . **وإذ كان فى جهاد كان يصلى بأشد الحاجة وصار عَرقه كقطرات دم نازلة على الأرض** » .

(لوقا ٢٢ : ٣٣ - ٤٤)

* *

● المسيح بين الناس :

حرفته : « لما كان السبت ابتدأ يُعَلِّم فى المجمع . وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين : من أين لهذا هذه .. **أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان ؟ أو ليست أخواته ههنا عندنا** ؟ فكانوا يعثرون به » (مرقس ٦ : ١ - ٣) .

ويقول « دنيس نينهام » فى تعليقه على هذه الفقرة : « إن كلمة النجار هنا مترجمة عن كلمة إغريقية تعنى - مثل نظيرتها العبرية - **عامل فى الحجر أو الخشب أو المعدن** ، وإن المعنى الدقيق يجب استخراجه فى كل حالة من سياق الكلام . إن آباء الكنيسة منقسمون تماماً بالنسبة لمعنى كلمة النجار هنا ، **فربما كان يسوع بنَّاء القرية وفى تلك الحالة كان لا بد أن تشتمل مهاراته على بعض أعمال النجارة** »[1] .

ويذكر « وليم باركلى » فى تفسيره للعهد الجديد أن حرفة المسيح - وهى النجارة - قد أثرَّت فى تعاليمه فقوله فى إنجيل متى : « تعالوا إلىَّ يا جميع المتعَبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم ، أحملوا نيرى عليكم وتعلَّموا منى .. لأن نيرى هين وحملى خفيف » (١١ : ٢٨ - ٣٠) فإن قول المسيح : « نيرى هين » - معناه فى اللغة اليونانية : نيرى مناسب . فقد كانت أنيار الثيران تصنع من الخشب وعادة كانوا يحضرون الثور إلى النجار ليقيس النير .. وتقول الروايات القديمة إن يسوع فى السنوات الصامتة قبل بدء خدمته الجهارية كان يعمل بالنجارة ، واشتهر بأنه كان يصنع أفضل الأنيار فى كل بلاد فلسطين ، وأن الناس كانوا يأتون إليه من كل مكان ليصنع أنياراً مناسبة لثيرانهم . وتقول الروايات

---

(١) D.E.Nineham : SAINT MARK, p, 185.

إن المحلات كانت تضع لوحات فوق أبوابها إعلاناً عن نوع العمل فيها ، **وغالباً كان يسوع يضع فوق دكان النجارة لوحة تقول : نيرى مناسب - أو نيرى هين** - وربما استخدم يسوع التعبير عينه الذى كان يضعه على دكان النجارة فى الناصرة » [١] .

*

● **إخوته** : « وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه . فقال له واحد : **هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك** . فأجاب وقال للقائل له : مَن هى أمى ومَن هم إخوتى .

ثم مَدَّ يده نحو تلاميذه وقال : ها هى أمى وإخوتى »(متى ١٢ : ٤٦ - ٤٩) .

ويقول چون فنتون : « ليس هنا ما يُعلم عن علاقة هؤلاء الإخوة بيسوع ، ومنذ القرنين الرابع والخامس جرى العُرف على أن مريم لم يكن لها أولاد سوى يسوع ، وإن أولئك الإخوة كانوا إما أولاداً ليوسف من زواج سابق أو كانوا أبناء عمومة أو خئولة ليسوع .

وعندما يقول متى إن يوسف : لم يعرفها (مريم) حتى ولدت ابنها البكر (١ : ٢٥) فيمكن أن يعنى هذا أن إخوة يسوع وأخواته كانوا الأولاد الصغار ليوسف ومريم » [٢] .

*

● **ردّةُ أصحابه** : « قال لهم يسوع .. كما أرسلنى الآب الحى ، وأنا حى بالآب ، فمن يأكلنى فهو يحيا بى .. فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا : إن هذا الكلام صعب . مَن يقدر أن يسمعه . فعلم يسوع فى نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا .

---

(١) تفسير العهد الجديد - تأليف الدكتور وليم باركلى - ترجمة الدكتور بطرس عبد الملك وآخرين - ص ٤١٤ ، ٤١٥

(٢) J. C. Fenton : SAINT MATTEW, p. 206

من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه . فقال يسوع للإثنى عشر : ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا » ؟ !

(يوحنا ٦: ٥٣ - ٦٧)

« وكان عيد اليهود عيد المظال قريباً . فقال له إخوته : انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية لكى يرى تلاميذك أيضاً أعمالك التى تعمل .. لأن **إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به** » (يوحنا ٧ : ٢ - ٥) .

« أقام إثنى عشر (تلميذاً) ليكونوا معه وليرسلهم ليُكَرِّزوا .. ثم أتوا إلى بيت . فاجتمع أيضاً جمع حتى لم يقدروا ولا على أكل خبز .

ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا إنه مختل (العقل) » .

(مرقس ٣ : ١٤ - ٢١)

*

● **عقيدة الذين شاهدوا المسيح ومعجزاته وآمنوا به** : « كان بارتيماس الأعمى .. جالساً على الطريق يستعطى . فلما سمع أنه يسوع الناصرى ابتدأ يصرخ ويقول : **يا يسوع ابن داود ارحمنى** .. فأجاب يسوع وقال له : ماذا تريد أن أفعل بك ؟ فقال له الأعمى : يا سيدى أن أبصر . فقال له يسوع : **اذهب ، إيمانك قد شفاك** . فللوقت أبصر وتبع يسوع فى الطريق » .

(مرقس : ١٠ : ٤٦ - ٥٢)

« ذهب إلى مدينة تدعى نايين .. فلما اقترب إلى باب المدينة إذا ميت محمول ، ابن وحيد لأُمه وهى أرملة ومعها جمع كثير من المدينة . فلما رآها تحنن عليها وقال لها : لا تبكى ، ثم تقدَّم ولمس النعش فوقف الحاملون . فقال : أيها الشاب لك أقول قم . فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه .

فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين : قد قام فينا نبى عظيم ».

(لوقا ٧ : ١١ - ١٦)

« مضى يسوع إلى عبر الجليل .. وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التى

كان يصنعها فى المرضى .. قال له واحد من تلاميذه .. هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء . وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزَّع على التلاميذ ، والتلاميذ أعطوا المتكئين وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا . فلما شبعوا قال لتلاميذه : اجمعوا الكسر الفاضلة لكى لا يضيع شىء ، فجمعوا وملأوا اثنتى عشرة قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التى فضلت عن الآكلين .

فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا : إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم » (يوحنا ٦ : ١ - ١٤) .

« وفيما هو مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولاته .. **فتفل على الأرض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين عينى الأعمى** وقال له : اذهب واغتسل فى بركة سلوام .. فمضى واغتسل وأتى بصيراً .

فالجيران .. قالوا له : كيف انفتحت عيناك ؟ أجاب ذلك وقال : إنسان يقال له يسوع .

فاتوا إلى الفريسيين .. وكان بينهم شقاق ، قالوا أيضاً للأعمى : ماذا تقول أنت عنه من حيث إنه فتح عينيك . **فقال : إنه نبى** ..

فدعوا ثانية الإنسان الذى كان أعمى وقالوا له : أعط مجدا لله . نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطىء .. أجاب الرجل وقال لهم : إن فى هذا عجباً إنكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عينى . ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة ، **ولكن إن كان أحد يتقى الله ويفعل مشيئته فلهذا يسمع »** (يوحنا ٩ : ١ - ٣١) .

« لما قربوا من أُورشليم .. حينئذ أرسل يسوع تلميذين .. أتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما . والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق ..

والجموع الذين تقدَّموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين : **أوصنا لابن داود . مبارك الآتى باسم الرب .**

ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة : مَن هذا .

فقالت الجموع : هذا **يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل** » .

(متى ٢١ : ١ - ١١)

« ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم . وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع **لأنه كان عندهم مثل نبى** » .

(متى ٢١ : ٤٥ - ٤٦)

من الواضح الآن أن الذين شاهدوا المسيح ورأوا الآيات التى صنعها أمامهم أو صنعها من أجلهم - مثل إحياء ابن الأرملة - جميعهم آمنوا به باعتباره نبى عصره . فهو « يسوع بن داود » و « نبى عظيم » .

و « بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم » و « إنسان .. نبى .. يتقى الله ويفعل مشيئته فلهذا يسمع له » .

فالمسيح عند الذين آمنوا « **مثل نبى** » تماماً كما كان أمر يحيى بن زكريا :

« فإن هيرودس كان قد أمسك يوحنا .. وطرحه فى سجن .. ولما أراد أن يقتله خاف من الشعب ، **لأنه كان عندهم مثل نبى** » (متى ١٤ : ٣ - ٥) .

* *

● المسيح بين يدى الله :

جاء المسيح رسولاً من الله يدعو إليه - سبحانه - بإذنه ، ولذا تكفل الله بتعليمه ماذا يقول وماذا يفعل . ولقد بيَّن المسيح هذه الحقيقة الهامة فى محاوراته مع اليهود :

« صعد يسوع إلى الهيكل وكان يُعَلِّم ، فتعجب اليهود قائلين : كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم ؟

أجابهم يسوع وقال : تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى . إن

شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى .

مَن يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما مَن يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم » (يوحنا ٧ : ١٤ - ١٨) .

« لم أتكلم من نفسى لكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم . وأنا أعلم أن وصيته هى حياة أبدية ، فما أتكلم أنا به فكما قال لى الآب هكذا أتكلم » .

(يوحنا ١٢ : ٤٩ - ٥٠)

ثم بيَّن المسيح بعد ذلك أن مَن يطمع فى الحياة الأبدية والنعيم الخالد ، عليه أولاً أن يؤمن بالله الذى أرسله ، فذاك جوهر العقيدة التى جاء بها المسيح :

« **الحق الحق أقول لكم : إن مَن يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى ، فله حياة أبدية ولا يأتى إلى دينونة ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة** » (يوحنا ٥ : ٢٤) .

ولقد كانت صلاة المسيح فى ساعاته الأخيرة دعوة إلى التوحيد الخالص تقول : « لا إله إلا الله ، المسيح رسول الله » :

« **تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال .. وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته** » (يوحنا ١٧ - ١ - ٣) .

وفى حديث مع اليهود قال لهم : « كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض ، والمجد الذى من **الإله الواحد** لستم تطلبونه » .

(يوحنا ٥ : ٤٤)

ولقد انحسمت تماماً قضية التوحيد فى عقيدة المسيح الصحيحة التى جاء بها ودعا إليها ، كما يُستبان بوضوح من هذا القصص الذى سجله ثلاثة من الأناجيل الأربعة .

فقد « جاء واحد من الكَتَبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله : أية وصية هى أول الكل ؟

فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هى : اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد . وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى .

وثانية مثلها هى : تحب قريبك كنفسك .

ليس وصية أخرى أعظم من هاتين .

فقال له الكاتب : جيداً يا معلم . بالحق قلتَ ، لأنه الله واحد ، وليس آخر سواه .

ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة ، ومحبة القريب كالنفس هى أفضل من جميع المحرقات والذبائح .

فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل قال له : لستَ بعيداً عن ملكوت الله » (مرقس ١٢ : ٢٨ - ٣٤ ، متى ٢٢ : ٣٥ - ٤٠ ، لوقا ١٠ : ٢٥ - ٢٨) .

وحتى لا تكون هناك فرصة للتقول على المسيح والخلط بينه وبين الله - وبعد أن نتذكر تفسير الإنجيل بأن : ابن الله يعنى المؤمن به - نورد ما سجله كَتَبة الأناجيل على لسان المسيح حيث حدَّد حقيقة الأمر بينه وبين الله تحديداً قاطعاً لا لبس فيه ولا اجتهاد :

« لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الآب ، **لأن أبى أعظم منى** » (يوحنا ١٤ : ٢٨) .

« **أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم** » (يوحنا ٢٠ : ١٧) .

« وسأله رئيس قائلاً : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

فقال له يسوع : لماذا تدعونى صالحاً ؟؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله .

أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكْرِم أباك وأمك » (لوقا ١٨ : ١٨ - ٢٠) .

بل إن المسيح حدَّد وضعه بالنسبة للروح القدس فقال : « كل خطية وتجديف يُغفر للناس ، وأما التجديف على الروح فلن يُغفر للناس . ومَن قال كلمة على ابن الإنسان (المسيح) يُغفر له ، وأما مَن قال على الروح القدس فلن يُغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى » (متى ١٢ : ٣١ - ٣٢) .

ولقد بيَّن المسيح : أن الله ذات ، وأن المسيح ذات أخرى ، فهما اثنان وليسا واحداً ، ومحال أن يكون الاثنان واحداً .

فلقد قال للفريسيين : « فى ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق : أنا هو الشاهد لنفسى ،. ويشهد لى الآب الذى أرسلنى » .

(يوحنا ٨ : ١٧ - ١٨)

إن هذا القول واضح تماماً لدرجة أنه لم يعد يقبل أى تعليق .

كذلك بيَّن المسيح أن لله مشيئة ، وللمسيح مشيئة أخرى ، وهو - ككل عبيد الله الصالحين يجاهد دائماً لتتطابق مشيئته مع مشيئة الله . وتلك مرتبة الرضا الكامل بقضاء الله والتى لا ينالها إلا العباد المخلصون .

فحين أحس المسيح بالخطر يتهدده « كان يُصَلّى لكى تعبر عنه الساعة إن أمكن .

وقال : يا أبا الآب ، كل شىء مستطاع لك ، فأجز عنى هذه الكأس . ولكن ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت » (مرقس ١٤ : ٣٥ - ٣٦) .

وفى حديث مع اليهود كان قوله لهم : « كما أسمع أدين ودينونتى عادلة ، **لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى** » .

(يوحنا ٥ : ٣٠)

ولقد كان المسيح خاشعاً لله ، يُصَلّى له فى كل حين ويُفَضّل أن تكون صلاته على انفراد ، ويتوجه إليه بالدعاء عند الحاجة ، وبالشكر فى كل حين وخاصة

حين يُستجاب له « **وفى الصبح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء ، وكان يصلى هناك** ، فتبعه سمعان والذين معه ، ولما وجدوه قالوا له : إن الجميع يطلبونك » (مرقس ١ : ٣٥ - ٣٦) .

« وللوقت ألزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع . **وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلى ولما صار المساء كان هناك وحده** » (متى ١٤ : ٢٢ - ٢٣)

« **فى تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلى . وقضى الليل كله فى الصلاة لله** » (لوقا ٦ : ١٢) .

« فى تلك الساعة تهلَّل يسوع بالروح وقال : « **أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض** » (لوقا ١٠ : ٢١) .

« ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : **أيها الآب ، أشكرك لأنك قد سمعتَ لى** » (يوحنا ١١ : ٤١) .

*

● معجزات المسيح :

ينتهى إنجيل يوحنا هكذا : « وأشياء أُخر صنعها يسوع إن كُتبَت واحدة واحدة فلست أظن أن العالَم نفسه يسوغ الكتب المكتوبة » (٢١ : ٢٥) .

من الواضح أن هذا القول قائم على الظن ، ومن أُمهات الحقائق ، ﴿ إنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ ومع ذلك فلنفرض أن المسيح قضى فترة رسالته - التى لم تزد عن ثلاث سنوات - وهو يصنع آيات ومعجزات ، فمن المؤكد أنها لو كُتبَت جميعها فإن العالَم يسعها وزيادة . على أن ما يعنينا فى هذا المقام هو تركيز إنجيل يوحنا على معجزات المسيح باعتبارها الأساس الذى يقوم عليه القول بأن « المسيح ابن الله » كما يتضح من نهاية الإصحاح قبل الأخير الذى يقول :

« وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قُدام تلاميذه لم تُكْتَب فى هذا الكتاب . وأما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه » (يوحنا ٢٠ : ٣٠ - ٣١) .

لقد سبق أن بيَّنا أن « ابن الله » لا يعنى - حسب تفسير يوحنا نفسه - أكثر من « المؤمنين باسمه » وأحبائه ومتقيه الذين يسمع لهم - سبحانه - ويظلهم برحمته - ومع ذلك فلننظر فى معجزات المسيح وآياته التى تكلمت عنها الأناجيل .

لقد سبق أن بيَّنا كيف عجز المسيح فى بعض مواقف التحدى عن صنع آية تُلْجِم خصومه ومعارضيه « **فلم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة** » ولقد قالها المسيح صراحة : « **أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً** » فهو قد رد الفضل كله لله وبَرَّأَ نفسه أن يكون له فى ذلك فضل . وفى هذا يقول الإنجيل :

« أجاب يسوع وقال لهم : **الحق الحق أقول لكم : لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل .. لأن الآب يحب الابن ويُريه جميع ما هو يعمله** » (يوحنا ٥ : ١٩ - ٢٠) .

ولقد كان المسيح يفعل آياته كلها باسم الله الذى أرسله . فقد قال لليهود :

« الأعمال التى أنا أعملها **باسم** أبى هى تشهد لى »(يوحنا ١٠ : ٢٤ - ٢٥)

ومن المؤكد أنه مهما جرت من آيات وعجائب على أيدى المؤمنين فإنها ليست مبرراً لأى خلط بينهم وبين الله على أية صورة من الصور ، فالإنجيل يذكر قولاً للمسيح فى هذا الصدد يهدم نظرية إتخاذ المعجزات برهاناً على صدق النظريات الفلسفية التى شاعت فى العالم القديم عن حلول الإله فى الإنسان أو حدوث اتحاد بينهما . فهو يقول على لسان المسيح :

« **الحق الحق أقول لكم : مَن يؤمن بى فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها** » (يوحنا ١٤ : ١٢) .

فالحديث عن الروابط بين الله والمسيح ، أو بين المسيح والمؤمنين ، أو بين الله

والمؤمنين لا يسمح بالحديث عن « روابط بين جواهر » أو « اتصال ذات بذات » أو « انبثاق ذات من ذات » وإنما غاية القول فيه أن يكون حديثاً عن صلات روحية ومعنوية .

يقول الإنجيل على لسان المسيح : « الذى يقبل مَن أرسله يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل الذى أرسلنى » (يوحنا ١٣ : ٢٠) .

« الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى ، بل بالذى أرسلنى » (يوحنا ١٢ : ٤٤) .

« كما أحبنى الآب كذلك أحببتكم أنا . اثبتوا فى محبتى . إن حفظتم وصاياى تثبتون فى محبتى ، كما أنى أنا قد حفظت وصايا أبى وأثبت فى محبته » (يوحنا ١٥ : ٩ - ١٠) .

« أنا قد أعطيتهم كلامك والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم كما أنى لستُ من العالم .. ليكون الجميع واحداً ، كما أنك أنت أيها الآب فىَّ ، وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (يوحنا ١٧ : ١٤ ، ٢١) .

*

هذا .. ولقد كانت أول معجزة صنعها المسيح - حسب رواية إنجيل يوحنا - هى تحويله الماء خمراً ، بناء على إيحاء من أمه . وكان ذلك فى عرس حضراه مع تلاميذه :

« فى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك . ودُعىَ أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع : ليس لهم خمر . قال لها يسوع : ما لى ولك يا امرأة ، لم تأتِ ساعتى بعد . قالت أمه للخدَّام : مهما قال لكم فافعلوه . وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك ..

قال لهم يسوع : املأوا الأجران ماء ، فملأوها إلى فوق . ثم قال لهم : استقوا الآن وقدِّموا إلى رئيس المتكأ ، فقدَّموا فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هى .. دعا رئيس المتكأ العريس وقال له : كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ، ومتى سكروا فحينئذ الدون . أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن .

« **هذه بداية الآيات فعلها يسوع فى قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه** » (يوحنا ٢ : ١ - ١١) .

وتذكر الأناجيل أن المسيح صنع آيات ومعجزات يجملها إنجيل متى فى معرض الحديث عن رسالته بقوله : « وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يُعَلِّم فى مجامعها . ويُكرِّز ببشارة الملكوت . ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب » (متى ٩ : ٣٥) .

على أن نوعين من الآيات جديران بالعرض المفصَّل لما لها من أهمية وإثارة ، وهما : إحياء الموتى ، والتنبؤ بأحداث المستقبل .

*

● إحياء الموتى :

تذكر الأناجيل الأربعة أن المسيح مارس عملية إقامة الراقدين رقاد الموت ثلاث مرات ، الأولى ذكرها مرقس ومتى ، والثانية انفرد بذكرها لوقا ، كما انفرد يوحنا بذكر الثالثة . ونبدأ بالحالة الأولى فنعلم أنها ابنة رئيس المجمع وكانت مريضة على وشك أن تموت ، وبينما ذهب أبوها يرجو المسيح أن يأتى لزيارتها لعلها تُشْفَى جاء مَن يخبره بموتها لكن المسيح يذهب إليها ويأخذ بيدها فتقوم من رقادها . ونعرض القصة حسب رواية مرقس فنقول :

« كان (المسيح) عند البحر ، وإذا واحد من رؤساء المجمع اسمه يايرس جاء .. وطلب إليه كثيراً قائلاً : ابنتى الصغيرة على آخر نسمة . ليتك تأتى وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا . فمضى معه وتبعه جمع كثير ، وكانوا يزحمونه .

وبينما هو يتكلم جاءوا من دار رئيس المجمع قائلين : ابنتك ماتت . لماذا تتعب المعلم بعد ؟ فسمع يسوع لوقته الكلمة التى قيلت فقال لرئيس المجمع : لا تخف ،آمن فقط . ولم يدع أحداً يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب .

فجاء إلى بيت رئيس المجمع ، ورأى ضجيجاً يبكون ويولولون كثيراً ، فدخل وقال لهم : لماذا تضجون وتبكون ؟ **لم تمت الصبية لكنها نائمة** .

فضحكوا عليه ، أما هو فأخرج الجميع ، وأخذ أبا الصبية وأمها والذين معه ودخل حيث كانت الصبية مضطجعة . وأمسك بيد الصبية وقال لها : طليثا قومى ، الذى تفسيره : يا صبية لك أقول قومى . وللوقت قامت الصبية ومشت لأنها كانت ابنة اثنتى عشرة سنة . فبهتوا بهتاً عظيماً ، **فأوصاهم كثيراً أن لا يعلم أحد بذلك** وقال : أن تعطى لتأكل » (مرقس ٥ : ٢١ - ٤٣) .

لقد أكد مرقس على لسان المسيح قوله : « **لم تمت الصبية ، لكنها نائمة** » وكذلك أكد متى نفس الحالة إذ قال على لسان المسيح : « **إن الصبية لم تمت ، لكنها نائمة** » (متى ٩ : ٢٤)

فهل يستطيع أحد يؤمن بالمسيح والإنجيل ، أن يصر على اعتبار هذه الفتاة ميتة أحياها المسيح ؟ !

إن أقصى ما يمكن قوله فى هذه الحالة أن تلك الفتاة كانت فى حالة إغماء ، أو فقدان وعى ، أو على وشك الموت ، ثم شفاها المسيح .

وأما الحالة الثانية التى ذكرها لوقا فقد ذكرناها عند الكلام عن « عقيدة الذين شاهدوا المسيح ومعجزاته وآمنوا به » ، وكانت لابن وحيد لأمه الأرملة وقد حمله المشيعون فى النعش ، فتقدم المسيح « ولمس النعش فوقف الحاملون . فقال : أيها الشاب ، لك أقول قم ، فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه ».

(لوقا ٧ : ١٤ - ١٥)

وأخيراً .. كانت الحالة الثالثة التى انفرد بذكرها يوحنا لميت توفى حديثاً إثر مرض . يقول يوحنا : « كان إنسان مريضاً وهو لعازر من بيت عنيا من قرية مريم ومرثا أختها . فأرسلت الأختان إليه قائلتين : يا سيد ، هو ذا الذى تحبه مريض .

فلما سمع يسوع قال : هذا المرض ليس للموت ، بل لأجل مجد الله ..

ثم بعد ذلك قال لتلاميذه : لعازر مات ، وأنا أفرح لأجلكم أنى لم أكن هناك لتؤمنوا ، ولكن لنذهب إليه .. فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام فى القبر .. فقالت مرثا ليسوع :

يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى ، **لكنى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه .**

قال لها يسوع : سيقوم أخوك ..

وجاء إلى القبر وكانت مغارة وقد وُضِعَ عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر .. فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : **أيها الآب ، أشكرك لأنك سمعتَ لى ، وأنا علمتُ أنك فى كل حين تسمع لى ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ، ليؤمنوا أنك أرسلتنى .**

ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هَلُمَّ خارجاً ، فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة .. فقال لهم يسوع : حِلُّوه ودعوه يذهب » .

(يوحنا ١١ : ١ - ٤٤)

وبهذا تكتمل قصة الراقدين الذين أقامهم المسيح بعد موات ، حسبما روتها الأناجيل .

*

● التنبؤ بأحداث المستقبل :

تذكر الأناجيل أن المسيح تنبأ لتلاميذه . بانقضاء الدهر وانهدام النظام الكونى بأكمله ، ثم عودته بعد ذلك ليدين الناس . وأن كل تلك الأحداث الجسام سوف تحدث فى الجيل الذى عاش فيه تلاميذه . يقول إنجيل متى : « فيما هو جالس على جبل الزيتون تقدَّم إليه التلاميذ على انفراد قائلين : قل لنا متى يكون هذا وما هى علامة مجيئك وانقضاء الدهر ؟

فأجاب يسوع وقال لهم : انظروا لا يضلكم أحد ، فإن كثيرين سيأتون باسمى قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين ..

وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس ، والقمر لا يعطى ضوءه ، والنجوم تسقط من السماء ، وقوات السماء تتزعزع ، وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ، ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير . متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب .

الحق أقول لكم : لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله » .

(متى ٢٤ : ٣ - ٣٤)

وبالمثل قال إنجيل مرقس : « الحق أقول لكم : لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله » (مرقس ١٣ : ٣٢) .

وكذلك قال إنجيل لوقا : « الحق أقول لكم : إنه لا يمضى هذا الجيل حتى يكون الكل » (لوقا ٢١ : ٣٢) .

إن تنبؤ المسيح بانقضاء العالم وعودته ثانية إلى الأرض لم يُذكر فقط فى تلك المناسبة التى اختارها التلاميذ لسؤاله ، إنما تكرر ذلك فى مواضع كثيرة من الأناجيل ، مما يبيِّن أنها كانت عقيدة سادت بين المسيحيين الأوائل الذين عاصروا المسيح ومن بينهم واحد من كَتَبة الأناجيل هو متى .

إن الحديث عن التنبؤ بانقضاء العالم فى الجيل الذى عاصر المسيح لم يعد فى حاجة إلى تعليق بعد أن ظل العالم قائماً بعد جيل المسيح إلى اليوم بما يقرب من خمسين جيلاً .

* *

● معجزات المسيح بين معجزات سابقيه :

تحدثت الأناجيل عن معجزات كثيرة للمسيح شملت مجالات أربع هى : شفاء المرضى والعاجزين ، ومباركة الطعام وتكثيره ، وإحياء الموتى ، والتنبؤ بأحداث المستقبل . وقد استعرضنا بالتفصيل ما قيل فى معجزات المجالين الأخيرين باعتبارهما أكثر أهمية وإثارة .

ونريد الآن أن نستعرض معجزات المسيح مع معجزات عدد محدود من الأنبياء الذين سبقوه لننظر أوجه الائتلاف والاختلاف ، ثم نقرر بعد ذلك الوضع الصحيح لمعجزات المسيح بين معجزات سابقيه .

*

فإذا بدأنا بمجال إحياء الموتى لوجدنا أن إلياس – كما سبق بيانه – قد سبق المسيح فى هذا المجال وأحيا ابن الأرملة (الملوك الأول : ١٧) ، وكذلك فعل تلميذه وخليفته إليشع نفس الشىء بابن المرأة الشونمية . فقد « دخل إليشع البيت وإذا بالصبى ميت ومضطجع على سريره . فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلّى إلى الرب . ثم صعد واضطجع فوق الصبى ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديه على يديه وتمدّد عليه فسخن جسد الولد . ثم عاد وتمشى فى البيت تارة إلى هنا وتارة إلى هناك وصعد وتمدّد عليه **فعطس الصبى سبع مرات ثم فتح الصبى عينيه .**

فدعا حيجزى (غلامه) وقال : ادع هذه الشونمية ، فدعاها ، ولما دخلت إليه قال : احملى ابنك ، فأتت وسقطت على رجليه وسجدت إلى الأرض ثم حملت ابنها وخرجت » (الملوك الثانى ٤ : ٣٢ – ٣٧) .

بل إن إليشع هذا مارَسَ عملية إحياء الموتى بعد وفاته . فقد حدث عندما كان قومه يدفنون أحد موتاهم على عجل خوفاً من الغزاة أن أسقطوا ذلك الميت فى قبر إليشع ، فلمس جسده عظام إليشع ، وفى الحال عادت له الروح وقام الرجل الميت يسعى على رجليه :

« مات إليشع فدفنوه . وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة. وفيما كانوا يدفنون رجلاً إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل فى قبر إليشع . **فلما نزل الرجل ومس عظام إليشع ، عاش وقام على رجليه** ».

(الملوك الثانى ١٣ : ٢٠ – ٢١)

بل إن حزقيال لم يحيى عدداً محدوداً من الموتى حديثى الوفاة فقط ، إنما

أحيا جيشاً عظيماً من الموتى بعد أن طال عليهم الأمد وتحللت رفاتهم ونخرت عظامهم :

« كانت على يد الرب فأخرجنى بروح الرب وأنزلنى فى وسط البقعة وهى ملآنة عظاماً وأمرنى عليها من حولها وإذا هى كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هى يابسة جداً . فقال لى : يابن آدم .. أتحيا هذه العظام ؟ فقلت : يا سيد الرب ، أنت تعلم ، فقال لى : تنبأ على هذه العظام وقل لها : أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب . هكذا قال السيد الرب لهذه العظام : هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أنى أنا الرب .

فتنبأتُ كما أُمِرْت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه ونظرتُ وإذا بالعصب واللّحم كساها وبُسِطَ الجلد عليها من فوق وليس فيها روح .

فقال لى : تنبأ للروح ، تنبأ يابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب : هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا .

فتنبأتُ كما أمرنى فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً » (حزقيال ٣٧ : ١ - ١٠) .

*

وفى مجال التنبؤ بأحداث المستقبل نجد إلياس قد تنبأ بحدث الجفاف والقحط وذلك فى موقف التحدى لآخاب الملك الشرير حيث قال له : « حى هو الرب إله إسرائيل الذى وقفت أمامه : أنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى » .

وقد حدث الجفاف كما تنبأ إيليا « فلم يكن مطر فى الأرض » .

وبعد انقضاء سنوات الجفاف « كان كلام الرب إلى إيليا فى السنة الثالثة

قائلاً : اذهب وتراء لآخاب فأعطى مطراً على وجه الأرض . فذهب إيليا ليتراءى لآخاب .

وقال إيليا لآخاب : اصعد كُلْ واشرب لأنه حس دوىَ مطر . وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم » ..

وكذلك تنبأ إليشع بالجفاف سبع سنين وتحققت نبوءته :

« كلم إليشع المرأة التى أحيا ابنها قائلاً : قومى انطلقى أنتِ وبيتك وتغرَّبى حيثما تتغرَّبى لأن الرب قد دعا بجوع فيأتى أيضاً على الأرض سبع سنين .

فقامت المرأة وفعلت حسب كلام رجل الله وانطلقت هى وبيتها وتغرَّبت فى أرض الفلسطينين سبع سنين وفى نهاية السبع سنين رجعت المرأة من أرض الفلسطينيين » (الملوك الثانى ٨ : ١ - ٣) .

وكما سبق أن نبَّأت الملائكة إبراهيم بمولد ابن له من زوجته سارة العاقر ، على لسان الرب قائلة :

« إنى أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن » .

(تكوين ١٨ : ١٠)

« وفعل الرب لسارة كما تكلم ، فحبلت وولدت لإبراهيم ابناً .. إسحق » .

(تكوين ٢١ : - ٣)

كذلك فعل إليشع تلميذ إلياس مع المرأة الشونمية التى « لم يكن لها ابن ورجلها قد شاخ .. فقال (إليشع) : فى هذا الميعاد نحو زمان الحياة تحتضنين ابناً .. **فحملت المرأة وولدت ابناً فى ذلك الميعاد نحو زمان الحياة كما قال لها إليشع ، وكبر الولد** » (الملوك الثانى ٤ : ١٤ - ١٨) .

*

وفى مجال شفاء المرضى والعاجزين نجد موسى قد فعل أكثر من هذا إذ أوقف سريان وباء مميت اجتاح بنى إسرائيل عقاباً لهم على تذمرهم على موسى

وهارون فقال موسى لهارون : « خذ المجمرة .. وضع بخوراً واذهب بها مسرعاً إلى الجماعة وكَفِّرْ عنهم لأن السخط قد خرج من قِبَلِ الرب ، فأخذها هارون كما قال موسى .. **فامتنع الوبأ** .

فكان الذين ماتوا بالوبأ أربعة عشر ألفاً وسبعمائة » .

(عدد ١٦ : ٤٦ - ٤٩)

كذلك أوقف موسى عملية إبادة جماعية لبنى إسرائيل حين سَلَّطَ الله عليهم الحيَّات لتهلكهم عقاباً لهم على تذمرهم فقد « أرسل الرب على الشعب الحيَّات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل فأتى الشعب إلى موسى وقالوا : قد أخطأنا ، تكلمنا على الرب وعليك ، فَصَلِّ إلى الرب ليرفع عنا الحيَّات .. فصلَّى موسى لأجل الشعب . فقال الرب لموسى : اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل مَن لُدِغَ ونظر إليها يحيا . **فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية ، فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا** » (العدد ٢١ : ٦ - ٩) .

كذلك نجد إليشع قد برأ نعمان قائد جيش الأراميين عندما جاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب بيت إليشع « فأرسل إليه اليشع رسولاً يقول : اذهب واغتسل سبع مرات فى الأردن فيرجع لحمك إليك .. **فرجع لحمه كلحم صبى صغير وطهر** » (الملوك الثانى ٥ : ٩ - ١٤) .

كذلك رد إليشع البصر إلى جيش كبير من الأراميين بعد أن دعا عليهم بالعمى حتى يستطيع أسرهم وقيادتهم إلى حيث يريد . فقد أرسل ملك أرام : « خيلاً ومركبات وجيشاً ثقيلاً وجاءوا ليلاً وأحاطوا بالمدينة فبكَّر خادم رجل الله وقام وخرج ، وإذا جيش محيط بالمدينة وخيل ومركبات . فقال غلامه له : آه يا سيدى، كيف نعمل ؟ فقال : لا تخف لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم .

ولما نزلوا إليه صلَّى إليشع إلى الرب وقال : اضرب هؤلاء الأمم بالعمى ، فضربهم بالعمى كقول إليشع . فقال لهم إليشع : اتبعونى

فأسير بكم إلى الرجل الذى تفتشون عليه ، فسار بهم إلى السامرة . **فلما دخلوا السامرة قال إليشع : يا رب ، افتح أعين هؤلاء فيبصروا . ففتح الرب أعينهم فأبصروا وإذا هم فى وسط السامرة .**

فقال ملك إسرائيل لإليشع لما رآهم : هل أضرب ؟ .. فقال : لا تضرب .. ضع خبزاً وماء أمامهم فيأكلوا ويشربوا ثم ينطلقوا إلى سيدهم .. فأكلوا وشربوا ثم أطلقهم .

ولم تعد جيوش أرام تدخل إلى أرض إسرائيل » .

(الملوك الثانى ٦ : ١٣ - ٢٣)

*

وفى مجال مباركة الطعام وتكثيره ، سوف لا نتكلم عن الأعاجيب الكبيرة والكثيرة التى جرت على يد موسى فى هذا المجال ، ولكننا نذكر إلياس وكيف كانت تعوله الغربان وتأتى إليه بالخبز واللحم صباح مساء ، وكيف استمر يقتات هو ومَن فى بيت المرأة التى كان نازلاً عندها من كنار دقيق وكوز زيت طيلة سنوات القحط . (الملوك الأول : ١٧) .

كذلك بارك إليشع دهنة زيت فى بيت امرأة فقيرة « فقال : اذهبى استعيرى لنفسك أوعية من خارج من عند جميع جيرانك أوعية فارغة لا تقللى ثم ادخلى وأغلقى الباب على نفسك وعلى بيتك وصُبّى فى جميع هذه الأوعية وما امتلأ انقليه .

فذهبت من عنده وأغلقت الباب على نفسها وعلى بنيها وكانوا هم يقدّمون لها الأوعية وهى تصب ، ولما امتلأت الأوعية قالت لابنها : قَدّم لى أيضاً وعاء ، فقال لها : لا يوجد بعد وعاء ، فوقف الزيت فأتت وأخبرت رجل الله (إليشع) فقال : اذهبى بيعى الزيت وأوفى دينك وعيشى أنتِ بما بقى »

(الملوك الثانى ٤ : ٣- ٧)

وأيضاً « جاء رجل ... وأحضر لرجل الله خبز باكورة عشرين رغيفاً .. فقال (إليشع) : أعط الشعبَ ليأكلوا . فقال خادمه : ماذا ؟ هل أجعل هذا أمام

مئة رجل . **فقال : أعط الشعب فيأكلوا لأنه هكذا قال الرب : يأكلون ويفضل عنهم ، فجعل أمامهم فأكلوا وفضل عنهم »** .

(الملوك الثانى ٤ : ٤٢ - ٤٣)

* *

هذا .. وإذا ما تركنا تلك المجالات الأربع التى تحدثنا فيها عن معجزات المسيح بين معجزات سابقيه ، لوجدنا سبقاً كذلك فى المجالات الأخرى لمن كان قبله من الأنبياء .

فقد حدث للمسيح مع تلاميذه أنهم « لما خرجوا من بيت عنيا ، جاع ، فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئاً ، فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً ، لأنه لم يكن وقت التين ، فأجاب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد . وكان تلاميذه يسمعون .

وجاءوا إلى أورشليم .. ولما صار المساء خرج إلى خارج المدينة . وفى الصباح إذ كانوا مجتازين رأوا التينة قد يبست من الأصول . فتذكر بطرس وقال له : يا سيدى ، انظر التينة التى لعنتها قد يبست » (مرقس ١١ : ١٢ - ٢١) .

وهنا نذكر ما كان من أمر إليشع « وفيما هو صاعد فى الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع .. اصعد يا أقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب .

فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولداً ».

(الملوك الثانى ٢ : ٢٣ - ٢٤)

وعندما كذب خادم إليشع عليه وأخذ من الهدية التى كان نعمان يريد تقديمها إليه اعترافاً بفضله فى شفائه والتى رفضها إليشع من قبل ، دعا عليه قائلاً : « **برص نعمان يلتصق بك وبنسلك إلى الأبد ، فخرج من أمامه أبرص كالثلج** » (الملوك الثانى ٥ : ٢٧) .

*

وأخيراً - وليس آخراً - نأتى إلى مجال الرفع إلى السماء ، فنجد الأنبياء السابقين ، قد سبقوا أيضاً فى هذا المجال .

فهذا أخنوخ (إدريس) قد رُفِعَ إلى السماء فقد « سار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » (تكوين ٥ : ٢٥) .

كذلك انتهت حياة إلياس بالرفع إلى السماء أمام أعين الناس « وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما ، فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء » .

*

والآن نصل إلى الحقيقة التى تُرَى واضحة كل الوضوح يراها كل المبصرين فيقولون صدقاً : **إن أقصى ما يقال فى معجزات المسيح هو ما قاله بطرس رئيس تلاميذه وأعلنه على رءوس الأشهاد** : « أيها الإسرائيليون .. اسمعوا هذه الأقوال :

يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم تعلمون » .

(أعمال الرسل ٢ : ٢٢)

« فتح بطرس فاه وقال .. أنتم تعلمون الأمر الذى صار فى كل اليهودية .. **يسوع الذى من الناصرة وكيف مسحه الله بالروح القدس والقوة الذى جال يصنع خيراً ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس لأن الله كان معه »** (أعمال الرسل . ١ : ٣٤ - ٣٨) .

فهى معجزات وآيات الفضل الأول والأخير فيها لله الذى أكرمه بها كما أكرم الأنبياء قبله . ومن لطف الله بخلقه أن جعل معجزات المسيح تكراراً لبعض معجزات سابقيه . ويُلاحَظ أنها جميعاً معجزات أرضية خلافاً لما فعله موسى من الكثير من المعجزات الأرضية منها والسماوية على السواء . لقد شاهد بنو إسرائيل المعجزات تنزل عليهم من السماء أثناء خروجهم من مصر ، إذ « انتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل وصار السحاب والظلام وأضاء الليل فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل .

ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء » (خروج ١٤ : ١٩ - ٢١) .

وفى سيناء شاهد بنو إسرائيل الخبز ينزل عليهم من السماء « فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وفى الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة . ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شىء دقيق مثل قشور ، دقيق كالجليد على الأرض . فلما رأى بنو إسرائيل قالوا بعضهم لبعض : مَن هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو . فقال لهم موسى : هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا .. التقطوا منه كل واحد حسب أكله » (خروج ١٦ : ١٣ - ١٦) .

ولذلك كان بنو إسرائيل على عهد المسيح فخورين بمعجزات موسى ، يرونها أكبر وأعظم من تلك التى يُجريها المسيح ، وكان قولهم له : « **أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟ ماذا تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المنَّ فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا** » (يوحنا ٦ : ٣٠-٣١)

« وجاء إليه الفريسيون والصدوقيون ليُجَرِّبوه **فسألوه أن يريهم آية من السماء** » (متى ١٥ : ١) .

الحق إن معجزات المسيح ليس فيها جديد ، وإذا ما استعرنا لغة سفر « الجامعة » نقول : **ليس تحت الشمس جديد** .

* *

● المسيح ومعجزاته :

هناك ظاهرة تغلب فى الأناجيل حين تتحدث عن معجزات المسيح فنجدها تبيِّن على لسانه حرصه الدائم على كتمان ما أجراه الله على يديه من آيات ، وما ذلك إلا حرصاً منه على عدم فتنة القوم فيه . لقد كان المسيح يعلم تماماً مقدار التخلف الفكرى والعقائدى فى زمانه وكيف كان الناس يخترعون آلهة ينسجون حولها أساطير وينسبون لها أفعالاً يخلطونها بأفعال البَشر ، فيقولون : هذا إله نزل من السماء ، وذلك ابن إله صعد إلى السماء .

ويرينا سفر « أعمال الرسل » كيف كانت الألوهية تُخلع على البشر بكل بساطة فى ذلك الزمان وبين تلك الأمم التى بدأت فيها الدعوة للمسيحية . فقد « كان يجلس فى لسترة رجل عاجز . هذا كان يسمع بولس يتكلم فشخَصَ إليه

وإذ رأى أن له إيماناً ليشفى قال بصوت عظيم : قم على رجلك منتصباً ، فوثب وصار يمشى .

فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم بلغة ليكاونية قائلين: إن الآلهة تشبّهوا بالناس ونزلوا إلينا . فكانوا يدعون برنابا « زفس » وبولس « هرمس » .. فأتى كاهن زفس الذى كان قُدَّام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح .

فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما . واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين :

أيها الرجال ، لماذا تفعلون هذا ؟ نحن أيضاً بَشر تحت آلام مثلكم نُبَشِّركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها » (أعمال الرسل ١٤ : ٨ - ١٥) .

« ولما نجوا وجدوا أن الجزيرة تدعى مليطة فقدَّم أهلها البرابرة إحساناً غير المعتاد لأنهم أوقدوا ناراً وقبلوا جميعنا من أجل المطر الذى أصابنا ومن أجل البرد .

فجمع بولس كثيراً من القضبان ووضعها على النار فخرجت من الحرارة أفعى ونشبت فى يده .. فنفض هو الوحش إلى النار ولم يتضرر بشىء ردىء ، وأما هم فكانوا ينتظرون أنه عتيد أن ينتفخ أو يسقط بغتة ميتاً .

فإذ انتظروا كثيراً ورأوا أنه لم يعرض له شىء مضر ، تغيَّروا وقالوا : هو إله » (أعمال الرسل ٢٨ : ١ - ٦) .

« وفى يوم معين لبس هيرودس الحلة الملوكية وجلس على كرسى المُلك وجعل يخاطبهم ، فصرخ الشعب : **هذا صوت إله لا صوت إنسان »** .

(أعمال الرسل ١٢ : ٢١ - ٢٢)

من أجل ذلك حرص المسيح على كتمان معجزاته التى ارتبط حدوثها دائماً بإيمان الذين طلبوها فصُنعَت من أجلهم . هكذا قال المسيح وعَلَّم بأن إيمان الإنسان هو الذى صنع المعجزة وهو إيمان مشترك بين الفاعل وذلك الذى صُنعَت من أجله ، وحين يُفقد ذلك الإيمان يحدث دائماً العجز والإخفاق .

فلقد حدث أن جاء المسيح وتلاميذه إلى المجمع « فتقدم إليه رجل جاثياً وقائلاً : يا سيد ، ارحم ابنى فإنه يُصرع ويتألم شديداً .. وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه . فاجاب يسوع وقال : أيها الجيل غير المؤمن الملتوى ، إلى متى أكون معكم ؟ إلى متى أحتملكم ؟

قدّموه إلى ههنا . فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشُفِيَ الغلام من تلك الساعة .

ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وقالوا : لماذا لم نقدر نحن أن نُخْرِجه؟

فقال لهم يسوع : لعدم إيمانكم ، فالحق أقول لكم : لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » (متى ١٧ : ١٤ - ٢٠) .

فلنبحث دائماً فى معجزات المسيح عن شيئين هما : الإيمان والكتمان ، ولسوف نجدهما دائماً متلازمين . فهكذا تقول الشواهد التى نذكر منها :

● **إحياء بنت رئيس المجمع** : فبعد أن « **قامت الصبية ومشت .. أوصاهم كثيراً أن لا يعلم أحد بذلك »** .

(مرقس ٥ : ٣٥ - ٤٣ ، لوقا ٨ : ٤٩ - ٤٦)

● **تطهير الأبرص** : « أتى إليه أبرص . قائلاً له : إن أردت تقدر أن تطهرنى . فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له : أريد فاطهر . فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص »

بعد ذلك « انتهوا للوقت وقال : انظر لا تقل لأحد شيئاً » (مرقس ١ : ٤٩ - ٤٤ ، متى ٨ : ١ - ٤ ، لوقا ٥ : ١٢ - ١٤) .

● **شفاء الأعمى** : تبعه أعميان يصرخان ويقولان : ارحمنا يابن داود .. فقال لهما يسوع : أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل هذا ؟ قالا له : نعم يا سيد . حينئذ لمس أعينهما **قائلاً : بحسب إيمانكما ليكن لكما . فانفتحت أعينهما** » .

بعد ذلك « **انتهرهما يسوع قائلاً : انظرا لا يعلم أحد** . ولكنهما خرجا وأشاعاه فى تلك الأرض كلها » .

(متى ٩ : ٢٧ - ٣١ ، مرقس ٨ : ٢٢ - ٢٦)

● **إخراج الشياطين** : « قدّموا إليه جميع السقماء والمجانين . فشفى كثيرين كانوا مرضى .. وأخرج شياطين » .

بعد ذلك « **لم يدع الشياطين يتكلمون لأنهم عرفوه** » .

(مرقس ١ : ٣٢ - ٣٤ - ، لوقا ٤ : ٤٠ - ٤١)

ويلاحَظ أننا لم نقتبس شواهد من إنجيل يوحنا وما ذلك إلا لأن كاتب هذا الإنجيل قد ركَّز - كما بيَّنا - على إظهار معجزات المسيح باعتبارها الوسيلة الرئيسية للإيمان ومن ثَمَّ فهو يدعو إلى إذاعتها ونشرها بشتَّى السُبل ، ولهذا اختفت منه أقوال المسيح التى تطلب كتمان معجزاته . على أن شيئاً واحداً بقى فى هذا الإنجيل وهو شطر الإيمان الذى لم يستطع إغفاله فسار فيه على شاكلة الأناجيل الثلاثة الأخرى التى أظهرته تماماً .

فنجد الإيمان ملازماً لحدوث الآية الكبيرة فى إنجيل يوحنا ألا وهى إحياء لعازر . فلقد قالت أخته « مرثا » ليسوع : « يا سيد ، **لو كنت ههنا لم يمت أخـى** . لكنى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من اللّه يعطيك اللّه ، فقال لها يسوع : سيقوم أخوك ..

ودعت (مرثا) مريم أختها سراً قائلة : المعلم قد حضر وهو يدعوك ..

فمريم لما أتت إلى حيث كان يسوع ورأته خرَّت عند رجليه قائلة له : **يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخى** »

لقد آمنت الأختان بالمسيح ولقد قالها المسيح لمرثا « ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد اللّه » ثم « رفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أيها الآب ، أشكرك لأنك سمعتَ لى » بعد ذلك « خرج الميت »(يوحنا ١١ : ٢١ - ٤٤) .

وأما عن شطر الإيمان فى الأناجيل الثلاثة الأخرى فحَدِّث ولا حَرَج .

فهذا قائد المئة قال للمسيح : « يا سيد ، لستُ مستحقاً أن تدخل تحت سقفى لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامى » .

« فلما سمع يسوع تعجب وقال للذين يتبعون : الحق أقول لكم ، لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا » .

« **ثم قال يسوع لقائد المئة : اذهب وكما آمنتُ ليكن لك . فبرأ غلامه فى تلك الساعة** » (متى ٨ : ٨ - ١٣ ، لوقا ٧ : ٦ - ١٠) .

وتلك « امرأة نازفة دم منذ اثنتى عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هدب ثوبه لأنها قالت فى نفسها : إن مسستُ ثوبه فقط شُفيتُ » .

« فالتفت يسوع وأبصرها فقال : « **ثقى يا ابنة ، إيمانك قد شفاك** فشُفيَت المرأة من تلك الساعة » .

(متى ٩ : ٢٠ - ٢٢ ، لوقا ٨ : ٤٣ - ٤٨ ، مرقس ٥ : ٢٥ - ٣٤)

وتلك المرأة الكنعانية التى « صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد يابن داود. ابنتى مجنونة جداً .. **حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ، عظيم إيمانك ، ليكن لك كما تريدين . فشُفيَت ابنتها من تلك الساعة** » .

(متى ١٥ : ٢٢ - ٢٨ ، ومرقس ٧ : ٢٦ - ٣٠)

وفى جميع الأحوال التى صنع فيها المسيح معجزاته كانت تصاحبها دائماً صلاته إلى الله ودعائه بالتوفيق والإكرام ثم الشكر على نعماء الله .

رأينا ذلك عند إحياء لعازر ، إذ « رفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أيها الآب ، أشكرك لأنك سمعتَ لى » .

ونراها فى مواقف كثيرة كما حدث عند شفاء الأصم : فقد « أخذه من بين الجمع ..

ورفع نظره نحو السماء ، وأنَّ ، وقال له : أفثا - أى انفتح - وللوقت انفتحت أذناه . فأوصاهم أن لا يقولوا لأحد » (مرقس ٧ : ٣٣ - ٣٦) .

وعند مباركة الطعام « أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وباركَ ، وكسر وأعطى للتلاميذ والتلاميذ للجموع . فأكل الجميع وشبعوا » .

(متى ١٤ : ١٩ - ٢٠ ، لوقا ٩ : ١٦ - ١٧ ، يوحنا ٦ : ١١)

وحين نجح تلاميذه فى إخراج شياطين تقدَّم بالشكر الجزيل للّه : « فى تلك الساعة تهلَّل يسوع بالروح وقال : أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيتَ هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال » .

(لوقا ١٠ : ٢١ ، متى ١١ : ٢٥)

*

وبعد .. إذا كانت هذه هى حقيقة معجزات المسيح وموقفه منها - وقد رأيناه يحرص دائماً على كتمانها واعتبارها فقط عاملاً يخفف من آلام المؤمنين - فكيف يمكن اتخاذها بعد ذلك برهاناً لعبادته وتأليهه ؟!

* *

● المسيح فى القرآن :

يتفق القرآن مع الإنجيل فى أن مريم العذراء ولدت ابنها المسيح بعد أن حملت به إثر نفخة من الروح القدس . فهو يذكر ذلك فى آيات فرادى وفى سور متفرقات مثل قوله :

﴿ وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ . (الأنبياء : ٩١) .

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيه مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ . (التحريم : ١٢)

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾.

(المؤمنون : ٥٠)

ويذكر القرآن قصة حمل مريم وولادتها فى آيات كثيرة كما جاء فى سورة آل عمران وسورة مريم ، وفى غيرهما من السور .

فالمسيح كلمة الله الملقاة ، وروح منه :

﴿ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء : ١٧١) .

ولله كلمات كثيرة كثرة لا نهائية ، ولذلك تعجز المخلوقات عن حصرها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان : ٢٧) .

ومن كلمات الله : قضاؤه فى أكوانه وأحكامه العادلة الثابتة :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَىٰ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (يونس : ٦٢ - ٦٤) .

ومن كلمات الله ما يُلْقَى فيفعل فعلاً : قد ينشىء إنشاءً أو يمحو كائناً :
﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل : ٤٠) .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس : ٨٢ - ٨٣) .

ولذلك كان أمر تخليق عيسى ليس أكثر عجباً من أمر تخليق آدم فكليهما تنفيذ لإرادة الله :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران : ٥٩) .

ونُلفت النظر إلى خطأ جسيم يقع فيه البعض حين يقولون إن المسيح روح الله ، وحقيقته أنه : **روح من الله** ، جاء بنفخة إلهية كتلك التى حدثت لآدم ، فقد

قال الله للملائكة إبّان عملية خلق آدم : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٩) .

فالمسيح ليس أكثر من عبد من عبيد الله المكرّمين ..

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ .

(الزخرف : ٥٩)

لقد جاء المسيح عيسى مثلاً ملموساً على قدرة الله على التخليق ، وذلك فى زمن طغت فيه المادية على بنى إسرائيل فأنكروا إعادة تخليق الإنسان وبعثه فى القيامة للحساب . وتحدثنا الأناجيل عن طائفة الصدوقيين التى كانت تنكر القيامة أيام المسيح ، وكان لها نفوذ وسلطان فتقول :

« وجاء إليه قوم من الصدوقيين الذين يقولون ليس قيامة وسألوه ».

(مرقس ١٢ : ١٨ ، متى ٢٢ : ٢٣ ، لوقا . ٢ : ٢٧)

ومع بولس فى رحلاته التبشيرية « حدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين وانشقت الجماعة ، لأن الصدوقيين يقولون إنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح » .

(أعمال الرسل ٢٣ : ٧ - ٨)

فالمسيح عبد الله أولاً وأخيراً ، و ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً *

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ (النساء : ١٧٢ - ١٧٣) .

وبعد ذلك فالمسيح مقرّب من الله ، مفضّل بين الرسل :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٥) .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ .
(البقرة : ٢٥٣)

ولقد غلا كثيرون فى المسيح ، ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ (البقرة : ١١٦) وعبدوه فها هى (الرسالة إلى العبرانيين) تقول : « الله .. كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثاً لكل شىء .. صائراً أعظم من الملائكة .. لأنه لمن من الملائكة قال قط : أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك ، وأيضاً : أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً » (١ : ١ - ٥) .

ويقول بولس : « أمين هو الله الذى به دعيتم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا » [1] (كورنثوس ١ : ٩) .

وها هو (إنجيل يوحنا) يقول فى مقدمته الشاعرية : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله [1] . هذا كان فى البدء عند الله » (١ : ١ - ٢) .

---

(١) هذه الفقرة فى الترجمة الانجليزية للنسخة المعتمدة من الكتاب المقدس تُقرأ هكذا :

< In the beginning was the Word, and the Word was with God, and the Word was God >.

ولكن ظهرت ترجمة حديثة تهذب الخلط بين الله وكلمة الله إلى حد ما وتقول :

< Before the world was created, the word already existed; he was with God, and he was the same as God > .

فهذه الترجمة الحديثة تقول : « وكان (الكلمة) مثل الله » بدلا من الترجمة القديمة التى تقول : « وكان الكلمة الله » . وعندما يكون شىء مثل شىء اخر فإن هذا يعنى بداهة أن هناك شيئين - عددهما ٢ - لكن الشىء الثانى يماثل الشىء الأول وعلى صورته . وتقول التوراة : « خلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه » (تكوين ١ : ٢٧) فهذا القول يعنى حسب مفهوم كَتَبة التوراة أن كل البشر قد خُلقوا على صورة الله تماماً مثل الكلمة .

هذا .. وقد صدرت هذه الترجمة عن : جمعية التوراة الأمريكية - بنيويورك - عام ١٩٧١

ولقد جاء القرآن يبيِّن الحق فى المسيح بأقوال محكمات ، تقطع كل شك فيه بيقين لا يعرف سوى الثبات - فهو يقول :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

(المائدة : ٧٢ - ٧٧)

وجاء القرآن قاطعاً فى بيان حقيقة ذلك الذى قتلوه على الصليب ، فنفى نفياً قاطعاً أن يكون ذلك قد حدث للمسيح ، فقال :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (النساء : ١٥٧ - ١٥٨) .

لقد رفعه الله كما سبق أن رفع إدريس (أخنوح) . وإلياس (إيليا) اللذين سبقا المسيح فى عملية الرفع .

وإن رفع المسيح قبل اصطياده بيد أعدائه ليتفق تماماً ونبوءات المزامير التى نذكر منها :

« لأنك قلتَ : يا رب ملجأى ؛ **جعلت العلى مسكنك** ، لا يلاقيك شر ، ولا تدنو ضربة من خيمتك .

لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك ، على الأيدى يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك . لأنه تعلق بى أنجيه . أرفعه لأنه عرف اسمى . يدعونى فأستجيب له ، معه أنا فى الضيق . أنقذه وأمجده . من طول الأيام أشبعه ، وأريه خلاصى » .

(مزمور ٩١ : ٩ - ١٦)

ونجد صدى لهذا فى إنجيل يوحنا الذى يذكر قصة القبض على المصلوب بطريقة تخالف ما ذكرته الأناجيل الثلاثة الأخرى . فهذه الأناجيل تقول إن يهوذا الخائن سار مُرشداً لقوة الظلم التى جاءت لتقبض على المسيح الذى سيميزونه من أصحابه عندما يُقَبِّله يهوذا :

« وللوقت فيما هو (المسيح) يتكلم أقبل يهوذا واحد من الإثنى عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعصى .

وكان مُسَلِّمه قد أعطاهم علامة قائلاً : الذى أُقَبِّله هو هو . أمسكوه وامضوا بحرص .

فجاء للوقت وتقدَّم إليه قائلاً : يا سيدى ، يا سيدى ، وقَبَّله .

فألقوا أيديهم عليه وأمسَكوه » (مرقس ١٤ : ٤٣ - ٤٦ ، متى ٢٦ : ٤٧ - ٥٠ ، لوقا ٢٢ : ٤٧ - ٤٨) .

لكن إنجيل يوحنا يذكر قصة مختلفة لا دخل فيها لقُبلَةَ الخيانة ، فقد قدَّم المسيح نفسه لطالبيه وآنذاك حدث شىء غير متوقع أصابهم بصدمة كبيرة أوقعتهم على الأرض خاصة وأن العملية كانت فى الليل :

« أخذ يهوذا الجند وخُدّاماً .. **وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح .**

فخرج يسوع وهو عالِم بكل ما يأتى عليه ، وقال لهم : مَن تطلبون ؟ أجابوه : يسوع الناصرى . فقال لهم يسوع : أنا هو . وكان يهوذا مُسَلِّمه أيضاً واقفاً معهم .

فلما قال لهم : إنى أنا هو ، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض » (يوحنا ١٨ : ٣ - ٦) .

وعلى كل فليست هذه هى المرة الأولى التى يختلف فيها إنجيل يوحنا مع الثلاثة الآخرين فقد اختلفوا كذلك فى يوم الصلب ، إذ جعله يوحنا يوم الخميس، بينما جعله الآخرون يوم الجمعة . وما من شك فى أن صلب يهوذا الخائن بدل المسيح ليتفق ونبوءات المزامير التى نذكر منها :

« أحمد الرب بكل قلبى . أحَدِّث بجميع عجائبك ..

عند رجوع أعدائى إلى خلف يسقطون ويهلكون من قُدَّام وجهك لأنك أقمتَ حقى ودعواى .. أهلكتَ الشرير ..

يا رافعى من أبواب الموت ..

تورَّطت الأمم فى الحفرة التى عملوها . فى الشبكة التى أخفوها انتشبت أرجلهم . معروف هو الرب . قضاء أمضى : الشرير يُعَلَّق بعمل يديه » (مزمور ٩ : ١ - ١٦) .

والحق أن قول القرآن بعدم صلب المسيح أو قتله ، لهو فى رأيى من أكبر المعجزات . وإن الدراسة الدقيقة للمراجع والأسفار المسيحية لتتفق تماماً وما جاء به القرآن [١] .

---

(١) راجع كتاب : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية - للمؤلف .

هذا .. وما من شك فى أن إلصاق أية ألوهية بالمسيح على أية صورة من الصور ، إنما هو شرك حرّمه اللّه تحريماً قاطعاً ، وجعله إثماً غير قابل للمغفرة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٤٨) .

ولا يصح إيمان باللّه إلا إذا تبرأ من كل شرك وأقر بالتوحيد المطلق . فذاك هو الإخلاص للّه ، وبه الخلاص من عاقبة السوء . والمخلصون دائماً يقولون :

﴿ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (سورة الإخلاص) .

* * *

الفصل الرابع

نبي العالمين
محمد .. خاتم النبيين

« متى جاء ذاك ، روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل بما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية .

ومتى جاء ذاك ، يُبَكِّت العالَم على خطية .. لأنهم لا يؤمنون بى » (إنجيل يوحنا ١٦ : ٨ - ١٣)

*

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلعَالَمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء : ١٠٧)

*

محمد رسول الله

هو خاتم النبيين ... أكمل الله به الدين ، وأتم على يديه الرسالة ، وجعله رحمة للعالمين .

والحديث عنه دائماً حديث متجدد ..

فمنذ حمل رسالة الله إلى الناس وهو حديث العالَم ، قاصيه ودانيه ، ولا يزال كذلك إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها .

ولقد تعرَّض محمد رسول الله لأذى كثير من القريب والبعيد ، سواء الذين عاصروه أو أولئكم الذين جاءوا من بعده ، حتى إن واحداً من علماء المسيحية المعاصرين قال فى دراسته : « ربما لا يوجد صاحب دعوة تعرَّض للتجريح والإهانة ظلماً على مدى التاريخ مثل محمد ، كذلك لا يوجد أى اتهام أساسه السياسة - لا الدين - مثل الاتهامات التى وُجهَت للإسلام » [(١)] .

ومع ذلك فإن الإسلام - دين الله الذى جاء به محمد للناس - ظل قوياً أبداً يلقى بظله الممدود عبر صنفوف البَشر ومختلف القارات .

وأخيراً وبعد زمان طويل بدأ العالِمون من غير المسلمين فى الاعتراف بصدق محمد وكمال رسالته واعتباره « الإنسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحاً مطلقاً على كلا المستويين : الدينى والدنيوى ، فهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وبعد ١٣ قرناً من وفاته فإن أثر محمد ما يزال متجدداً » [(٢)] .

---

(١) من بحث للدكتور ميجيل ايرناندث فى المؤتمر الإسلامى المسيحى بقرطبة عام ١٩٧٧

(٢) من كتاب : « المائة .. الأعظم أثرا فى التاريخ » - للعالِم الفلكى الرياضى الأمريكى ميخائيل هارت .

وفى الحديث هنا عن محمد رسول الله نجد صغر الحيز المتاح فى هذا الجزء من الكتاب يضطرنا إلى التركيز الشديد ، لذلك نكتفى بعرض شىء من « البشارات » ، ثم نُلقى نظرة على « الرسول فى القرآن » مع ذكر « قبس من سيرة الرسول » وحديث عن « معجزات الرسول » وأخيراً نتحدث عن « محمد نبى الملكوت » .

* *

البشارات

لا يزال بين أيدينا إلى الآن بقية من البشارات بنبى الإسلام نكتفى بعرض نماذج منها فى إيجاز شديد مما جاء فى الأسفار المقدسة فى الديانات : اليهودية ، والمسيحية ، والبرهمية ، والمجوسية .

*

أولاً - بشارات العهد القديم

١ - بشارة التوراة :

(أ) تقول التوراة - التى تكوّن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم - إنه قبيل موت موسى فإنه جمع بنى إسرائيل كلهم ووقف فيهم معلّماً وخطيباً وكان « هذا هو الكلام الذى كلّم به موسى جميع بنى إسرائيل فى عبر الأردن .. فى أرض موآب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلاً : الرب إلهنا كلّمنا فى حوريب .. فالآن يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التى أنا أعلّمكم لتعملوها لكى تحيوا » (تنثنية ١ : ١ - ٦ ، ٤ : ١) .

ولقد كان ما أعلنه موسى أمام جميع بنى إسرائيل تلك البشارة بنبى مرتقَب عظيم الشأن ، قال فيها :

« قال لى الرب : قد أحسنوا فى ما تكلموا ، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أُوصيه .

ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه ، وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أُوصِه به أو الذى يتكلم باسم آلهة أُخرى فيموت ذلك النبى » .

(تثنية ١٨ : ١٧ - ٢٠)

بادىء ذى بدء نقول إن هناك إتفاقاً تاماً بين المسيحيين والمسلمين على أن هذا النبى المرتقَب لم يظهر فى بنى إسرائيل حتى عهد المسيح . ويتبين ذلك من شهادة كل من بطرس واستيفانوس الذى كان يعتقد أن تلك النبوءة قد تحققت فى المسيح .

فقد قال بطرس : « يسوع المسيح المبشَّر به لكم قبل .. فإن موسى قال للآباء : إن نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم له تسمعون فى كل ما يكلمكم به » (أعمال الرسل ٣ : ٢٠ - ٢٢) .

وكذلك قال استيفانوس : « هذا هو موسى الذى قال لبنى إسرائيل : نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلٰهكم من إخوتكم ، له تسمعون » .

(أعمال الرسل ٧ : ٣٧)

ولا مانع من الموافقة على ذلك بشرط الإقرار بأن : المسيح مثل موسى تماماً، فقد كان موسى عبد الله ورسوله وكذلك يكون المسيح .

إن هذا الإقرار يقضى تماماً على الخلافات فى أساسيات العقيدة بين المسيحيين بعضهم البعض من جانب ، وبينهم وبين المسلمين من جانب آخر .

ولكن واقع الأمر - للأسف الشديد - على خلاف ذلك من جميع الوجوه .

*

والآن ننظر فى علامات هذا النبى المرتقب فنجد كلمات النبوءة تقول :

(أ) « نبياً من وسط إخوتهم » : وإخوة بنى إسرائيل هم أولاد عمومتهم أو أقرباؤهم الذين يشاركونهم نسب الآباء ، فأولاد الجد الأكبر إبراهيم وأحفاده يعتبرون إخوة لأنهم ذُرِّية لأب واحد . وقد شاع استخدام لفظ « الإخوة » فى العهد القديم ليعنى الأقرباء وأولاد العمومة كما فى قوله :

« أرسل موسى رسلاً من قادش إلى ملك أدوم . هكذا يقول **أخوك إسرائيل** » (العدد ٢٠ : ١٤) .

فالمقصود بـ « إسرائيل » هنا هم الشعب الإسرائيلى الذى كان يقوده موسى ، وهؤلاء كانوا أحفاد ... إسرائيل (يعقوب) بن إسحق بن إبراهيم ، كما كان ملك أدوم وشعبه ، من أحفاد .. عيسو أخى إسرائيل ، علاوة على كون الأدوميين من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . ذلك أن عيسو بن إسحق هذا كان قد ذهب إلى عمه « إسماعيل ، وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبرهيم .. زوجة له » .

(تكوين ٢٨ : ٩)

وتكرر نفس المعنى فى قوله : « أوصى الشعب قائلاً : أنتم مارون بتخم **إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير** » (تثنية ٢ : ٤) .

فلغة العهد القديم تقول إن : ذُرِّية الأحفاد يعتبرون إخوة لذُرِّية الأحفاد الذين يشتركون معهم فى الجد الأكبر .

مما سبق نتبين أن هذا النبي المرتقَب : ليس إسرائيلياً لكنه يشارك الإسرائيليين جدهم الأكبر .

(ب) « **مثلك** » إن أهم ما يتميز به موسى أنه جاء بكتاب أُنْزِل من عند اللّٰه هو التوراة ، يقوم على التوحيد الخالص ويدعو إلى قتل الوثنيين وعَبَّاد الأصنام، ثم يفرض شرائع وأحكاماً تتعلق بالعبادات والمعاملات ..

كذلك يتميَّز موسى بأنه « **رجل حروب** » فقد نظَّم صفوف بنى إسرائيل وقادهم فى الحروب ضد أعدائهم . ومن أمثلة مجهوداته الحربية :

بعد خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر « أتى عماليق وحاربَ إسرائيل .. فقال .. موسى ليشوع (تابعه) انتخب لنا رجالاً واخرج حارب عماليق .. وأما موسى وهارون وحور فصعدوا على رأس التلة .. وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أن عماليق يغلب » (خروج ١٧ : ٨ - ١١) .

ثم بدأ موسى يُجَهِّز بنى إسرائيل للحرب فقد « كلَّم الرب موسى فى برية سيناء .. فى السنة الثانية لخروجهم .. أحصوا كل جماعة بنى إسرائيل بعشائرهم .. من ابن عشرين سنة فصاعداً كل خارج للحرب فى إسرائيل » .

(العدد ١ : ١ - ٣)

وفى حروب بنى إسرائيل بقيادة موسى ذاقوا النصر حين أطاعوه وساروا وفق خطته فقد « أرسل إسرائيل رسلاً إلى سيحون ملك الأموريين قائلاً : دعنى أمر فى أرضك .. فلم يسمح سيحون لإسرائيل بالمرور فى تخومه .. وحاربَ إسرائيل فضربه إسرائيل بحد السيف وملك أرضه » .

(العدد ٢١ : ٢١ - ٢٤)

كذلك ذاق بنو إسرائيل الهزيمة فى معركة الجبل (١) **- وفيهم موسى- حين خرجوا إلى الحرب** بهواهم ورفضوا أوامره . وفى هذا قال لهم موسى : «تنطقتم كل واحد بعدة حربه واستخففتم الصعود إلى الجبل فقال الرب لى : قل لهم لا تصعدوا ولا تحاربوا .. فكلمتكم ولم تسمعوا بل عصيتم قول الرب وطغيتم وصعدتم إلى الجبل . فخرج الأموريون الساكنين فى ذلك الجبل للقائكم وطردوكم كما يفعل النحل وكسروكم » (تثنية ١ : ٤١ - ٤٤) .

(جـ) « **أما النبى الذى .. يتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به .. فيموت ذلك النبى** » .

إن هذه الفقرة تحدد عقوبة النبى الذى يفترى على الله الكذب فيدَّعى أن الله أوحى إليه ولم يوحَ إليه شىء ، فعقوبة ذلك النبى وأمثاله هى القتل . إن قوله : « يموت ذلك النبى » تعنى قتله وإلا تصبح عديمة المعنى ، لأن الموت نهاية كل حى سواء أكان نبياً كاذباً أم صادقاً

إن ذلك ما تقوله التراجم القديمة : « أما النبى الذى يجترىء بالكبرياء ويتكلم باسمى ما لم آمره بقوله ، أو باسم آلهة غيرى فليُقتل »

لقد درج الكتاب المقدس على استخدام عقوبة الموت لتعنى القتل كما فى حدود الزنا :

« إذا زنى رجل مع امرأة .. فإنه يُقتل ، الزانى والزانية .. وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزائهما ، تميت المرأة والبهيمة إنهما يُقتلان . دمهما عليهما » .

(لاويين ٢٠ : ١٠ ، ١٦)

---

(١) يذكرنا هذا على الفور بهزيمة المسلمين فى معركة جبل أحد لأنهم خالفوا تعليمات الرسول .

ونقف هنا لنقول : إن توراة موسى تنص بوضوح على أن كل نبى يقول بغير « لا إله إلّا الله » فإن نهايته القتل ، لأنه متنبىء افترى على الله كذباً ، وعلّم غير الحقيقة الكبرى ، وهى التوحيد الخالص ، حتى لو أتى ذلك الدّعِىّ بكل المعجزات والأعاجيب . إن هذا ما تقوله التوراة :

« إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلماً ، وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلّمك عنها قائلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى .. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالِم .. لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلٰهكم ..

وذلك النبى .. يُقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم » .

(تثنية ١٣ : ١ - ٥)

إن آية صدق النبى - إذن - كل نبى ، هو أن يقول ويُعلّم « لا إله إلا الله ».

*

والآن نقول : إن النبى المرتقَب الذى لا تزال تبشّر به التوراة - إلى الآن - لا يمكن أن يكون سوى محمد نبى الإسلام ، فهو النبى الوحيد الذى ظهر بعد موسى وينطبق عليه الوصف أنه « مثل موسى » تماماً ، وذلك لأسباب كثيرة من بينها ما نذكره بعد مسلسلاً من المنشأ إلى نهاية الحياة الدنيوية لكل من هذين النبيين العظيمين :

١ - يُنسب موسى إلى أبيه عمرام بن قهات بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وكانت أمه يوكابد بنت لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، وبهذا يلتقى أبيه مع أُمه فى الجد الأول لأبيه . ونلاحظ أن صلة الأب بذلك الجد أبعد من صلة الأم به بمقدار جيل واحد ..

ويُنسب محمد إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وكانت أُمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤى .. إلخ .

وبهذا يلتقى أبوه مع أُمه فى الجد الرابع لأبيه . ونلاحظ كذلك أن صلة الأب بذلك الجد أبعد من صلة الأُم به بمقدار جيل واحد ..

وغنى عن البيان أن كليهما قد حُمِلَ به ووُلِدَ ولادة طبيعية .

٢ - جاء موسى من بيت اختُص بالخدمة الدينية وهم بنو لاوى ، فقد « أفرز الرب سبط لاوى ليحملوا تابوت عهد الرب ولكى يقفوا أمام الرب ليخدموه ويباروا باسمه » (تثنية ١٠ : ٨) .

وكذلك جاء محمد من بيت اختُص بالخدمة الدينية ، فقد كان بنو عبد مناف يلون الرِفادة والسِقاية ، وهما تقديم الطعام لحجاج البيت الحرام وتقديم الماء العذب لهم .

٣ - وكان موسى راعى غنم قبل رسالته ، وكذلك كان محمد راعى غنم قبل رسالته .

٤ - وقد تزوج موسى قبل رسالته وكانت له ذُرِّية : « أخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر » (خروج ٤ : ٢٠) .

ولقد حدثت هذه العودة بعد الرسالة .

وكذلك تزوج محمد قبل رسالته ، وعمره آنذاك ٢٥ عاماً ، وكانت له ذُرِّية من خديجة بنت خويلد التى كان عمرها آنذاك ٤٠ عاماً .

*

٥ - وكلاهما عدَّد زوجاته بعد الرسالة ، فقد تزوج موسى مرة أخرى من امرأة سمراء أعجبته فتعرَّض من جرَّاء ذلك للنقد والسخرية ، لكن اللّٰه - سبحانه - تكفل بالدفاع عنه . فلقد « تكلمت مريم (أخته) وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية فقالا : هل كلَّم الرب موسى وحده . ألم يكلِّمنا نحن أيضاً ؟

فسمع الرب . وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض .

فقال الرب حالاً لموسى وهارون ومريم : اخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع ، فخرجوا هم الثلاثة .. ودعا موسى وهارون فخرجا كلاهما . فقال (الرب) : اسمعا كلامى .

إن كان منكم نبى للرب فبالرؤيا أستعلن له .. وأما عبدى موسى فليس هكذا، بل هو أمين فى كل بيتى .. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى ؟

فحمى غضب الرب عليهما .. وإذا مريم برصاء كالثلج .. فقال هارون لموسى : أسألك ياسيدى لا تجعل علينا الخطية التى حمقنا وأخطأنا بها .. فصرخ موسى إلى الرب قائلاً : اللّهم اشفها . فقال الرب لموسى : تُحجز سبعة أيام وبعد ذلك ترجع » (العدد ١٢ : ١ - ١٤) .

*

وكذلك عدَّد محمد زوجاته بعد الرسالة بَيْدَ أن هنا وقفة لا بد منها :

لقد بُعثَ الرسول وعمره ٤٠ عاماً ، وكان زوجته الوحيدة خديجة عمرها آنذاك ٥٥ عاماً . واستمرت هى الزوجة الوحيدة فى حياة الرسول حتى توفيت بعد الرسالة بنحو ١٢ عاماً فكان عمر الرسول آنذاك ٥٢ سنة ، وكان عمرها حين توفيت ٦٧ عاماً ، إذ لم يتزوج الرسول ثانية إلَّا بعد وفاة هذه السيدة الفاضلة العجوز ، والتى قضى معها ٢٧ عاماً فى حياة زوجية مستقرة ، استغرقت كل شبابه وجزءاً من مشيبه .

ثم كانت الزوجة الثانية فى حياة الرسول - والأولى بعد وفاة خديجة - هى سَوْدة بنت زمعة ، أرملة السكران بن عمرو بن عبد شمس . ولم تُعرف سَوْدة بالجمال أو الثروة أو المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثراً فى زواجه منها . إنما كانت سَوْدة زوجة لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا فى

سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبى بالهجرة إليها . وقد أسلمت سَوْدَة وهاجرت معه وعانت من المشاق ما عانى ولقيت من الأذى ما لقى . ولما طال المكث على السكران فى أرض الحبشة ، ظن أن الأمور ربما تكون قد تحوَّلت إلى جانب المسلمين ، فعاد بها إلى أرض العرب ، إلا أنه مات عقيب وصوله وترك زوجته مهيضة الجناح .

وهنا يقول الدكتور نظمى لوقا : « كان الموقف عصيباً ، فالمسلمون والمسلمات فى ذلك العهد قليل عددهم .. والتنكيل بهم على أشده بعد أن مات أبو طالب عم الرسول حتى اجترأ المجترئون على إيذائه ايذاءً بدنياً عنيفاً ، بعد أن كان جل إيذائهم من قبل باللسان والإشارة .

وإذا كان هذا حال الرسول ، فكيف يكون حال مَن دونه من أتباعه ؟ كيف يكون حال امرأة فقدت زوجها ولا نصير لها ؟

محنة اهتزت لها قلوب المؤمنين وشغلت بالهم ، وكان التكافل هو الواجب الأول والخاطر فى كل ذهن . من الواجب أن يضم رجل مسلم مثل هذه الأرملة المهدَّدة فى دينها المطعونة فى طمأنينتها .. والتعدد ليس سُنَّة مستحدَثة فى العرب ، بل ذلك حالهم منذ قديم ..

فهل كان محمد ، إذا ارتضى الزواج ، الرجل الذى يتخلى عن هذه المسكينة فيُعَرِّضها للقهر والشماتة ؟ معاذ النخوة !

ليتزوجها إذن ! لتكون مدبرة لبيته ومربية لابنته ، لا لتكون متعة حس ولذَّة مضجع ..

وإن هى إلا سنوات قلائل حتى أحست هذه العجوز الطيبة القلب أنها عبء على كرم زوجها وبره ، فاستأذنته أن تظل فى بيته وتعفيه من حقوق الزوجية .. وبقيت هناك تُصَلِّى وتصوم وتتصدق ، زوجة شرف لا أكثر ، وما كانت تصلح من الزواج إلا لهذا ، وما صلحت لهذا إلا لنخوة فى ذلك الرجل .. هذا هو أول

حظه من النساء بعد وفاة خديجة ، وما هو بحظ الملهوف على لذّات الفراش بعد طول مصابرة ومصانعة » [1] .

واستمر الدكتور نظمى لوقا فى بيان دوافع تعدد زوجات الرسول وظروف كل حالة على حدة وكانت خلاصة قوله :

« هؤلاء زوجاته اللواتى بنى بهن وجمع بينهن . لم تكن واحدة منهن هدف اشتهاء كما يزعمون . وما من واحدة منهن إلا كان زواجه بها أدخل فى باب الرحمة وإقامة العثار والمواساة الكريمة ، أو لكسب مودّة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة ، وهي بعد حديثة عهد بالدين الجديد .

هى ضريبة واجب إذن . وما كان من الهيِّن على رسول قائد جيش وحاكم دولة محاربة أن يزيد أعباءه بما يكون فى بيت كثير النساء من خلافات على صغائر الأمور ...

ولكنه الواجب . واجب الدعوة أو واجب النخوة » [2] .

لقد عَدَّدَ كل من موسى ومحمد زوجاته ولا حَرَج عليه فمن قبل عَدَّدَ الأنبياء ، وعلى رأسهم أبوهم إبراهيم ، الذى تزوج هاجر ومعه زوجه الأولى سارة . وبعد موت سارة « عاد إبراهيم ، فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له (٦ أبناء) .. وأما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم وصرفهم .. شرقاً » (تكوين ٢٥ : ١ ، ٦) . لقد عَدَّدَ إبراهيم الزوجات والسرارى وكانت له منهن ذُرِّية .

وكذلك عَدَّدَ يعقوب زوجاته ، فقد تزوج الأختين ليئة وراحيل كما تزوج جاريتيهما بلهة وزلفة ، فجمع أربعاً فى وقت واحد ، وجاء منهن بنو إسرائيل .

وعَدَّدَ داود زوجاته فقد « أخذ داود نساءً أيضاً فى أورشليم وولد أيضاً داود بنين وبنات » (أخبار الأيام الأول ١٤ : ٣) .

---

(١) محمد فى حياته الخاصة ، ص ٧٠ - ٧٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١١

وكانت له أخينوعم اليزرعيلية وأبيجايل امرأة نابال الكرملى ومعكه بنت تلماى وحجيث وأبيطال وعجلة ، وميكال بنت شاول .

وأما عن سليمان فحَدِّث ولا حَرَج إذ تقول الأسفار : « وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون : موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل : لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة . وكانت له سبع مئة (٧٠٠) !! من النساء السيدات وثلاث مئة (٣٠٠) !! من السرارى فأمالت نساؤه قلبه » (الملوك الأول ١١ : ١ - ٣) .

الحق .. إن الذين يمارون فى تَعَدُّدْ الزوجات إما جهلة وإما منافقون.

وبعد هذه الوقفة التى جاءت فى مكانها للحديث عن تَعَدُّد الزوجات نعود لنستكمل أوجه التشابه بين موسى ومحمد .

*

٦ - كان موسى معافا فى بدنه وعقله ، وظل يتمتع بطاقته العقلية والبدنية حتى توفاه الله . « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته » (تثنية ٣٤ : ٧) .

وكذلك كان محمد معافا فى بدنه وعقله . ولقد كانت رجاحة عقله سبباً فى منع حرب أهلية كادت تنشب بين قبائل قريش من أجل التسابق على وضع الحجر الأسود فى مكانه من الكعبة بعد إعادة بنائها قبل بعثته . فقد اقترح عليهم أن يأتوه بثوب وضع عليه الحجر وأمسكت كل قبيلة بطرف من الثوب ، فكأنهم حملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع البناء ثم تناوله بيده ووضعه فى مكانه .

وكان محمد قوى البدن وسيم الطلعة أزهر اللُّون اشتهر فى قومه بالأمانة فعُرِف بينهم منذ نشأته بالأمين . واجتمعت فيه كل صفات الخُلُق العظيم ، كما

اكتملت فيه المهابة وقوة الشخصية التى تلطفها ألفة ولين جانب ، حتى إن الأطفال لتركن إليه وتفرح بمداعبته .

وكان محمد شجاعاً مقداماً ، أول من يُلَبِّى داعى النصرة ويقتحم مواطن الخطر . يصف علىّ بن أبى طالب - وهو الفدائى المقدام - مواقف الرسول فى الحرب فيقول : « كنا إذا اشتدت الحرب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فما يكون أحدنا أقرب إلى العدو منه » .

ولقد عُرِفَ كل من موسى ومحمد بالطهارة وسلامة الطبع فعافت نفساهما الطاهرتان كل خبيث من مأكل ومشرب فما ذاقا الخمر أو المسكر .

*

٧ - جاء موسى بكتاب من عند الله هو التوراة ، لا يزال يقول الذين أعادوا كتابته بعد أن تعرَّض للضياع والأسر عند الأعداء - ولم يكتمل شرعيته إلا حوالى عام (٤٠٠ ق . م) أى بعد موسى بنحو ٨٠٠ عام - أن ما بين دفتيه هو كلام الله ووحيه . فالحديث عن الوصايا العشر يبدأ هكذا : « ثم تكلَّم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً : أنا الرب إلٰهك .. لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما » (خروج ٢٠ : ١ - ٤) .

« وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات .. فكتب على اللَّوحين كلمات العهد الكلمات العشر » (خروج ٣٤ : ٢٧ - ٢٨) .

وفى آخر أيام موسى : « عندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم » (تثنية ٣١ : ٢٤ - ٢٦) .

*

وجاء محمد بكتاب من عند الله هو القرآن ، يشهد ما فيه على أنه كلام الله الذى أنزلَ وحياً إلى الرسول ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ .

(الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

(الشورى : ٧)

﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام : ١٩) .

*

وبين التوراة والقرآن ، جاء الإنجيل ، إلا أن ما بين أيدينا من أناجيل أربعة قانونية لم يقل واحد منها إنه كلام الله ، أو إن كاتبه قد كتبه بوحى أو إلهام .

فها هو إنجيل يوحنا الذى كُتبَ بعد أكثر من ٧٠ عاماً من رفع المسيح والذى يُنسب إلى أحد تلاميذه يقول كاتبه فى خاتمته : « هذا هو التلميذ الذى يشهد بهذا وكتب هذا . ونعلم أن شهادته حق . وأشياء أُخرى كثيرة صنعها يسوع إن كُتبَت واحدة واحدة فلستُ أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » .

(يوحنا ٢١ : ٢٤ - ٢٥)

ولا شك أن درجة الدقة هنا يحددها اعتراف الكاتب بأنه لا يظن أن العالم يسع الكتب التى تحكى معجزات المسيح وأن ما سطره ليس إلا شهادة منه كتبها بجهوده الشخصية ، وكذلك الحال مع بقية أناجيل متى ومرقس ولوقا بل وبقية أسفار العهد الجديد وخاصة رسائل بولس وتلاميذ المسيح والتى سبق أن عرضنا لها فى موضوع الوحى [1] .

*

(١) راجع كتاب المؤلف : الوحى والملائكة .

هذا .. وثمة ميزة ينفرد بها محمد النبى المرتقَب وكلام الله الذى جاء به كما يتضح من بشارة التوراة [1] : « وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيهم به »

إن هذه النبوءة ينفرد بها محمد خلافاً لكل من موسى والمسيح .

فهى تعنى بوضوح أن كلام الله سينطلق من فم هذا النبى إلى مسامع مَن حوله ، أى أن أول عهدهم به سيكون قراءة كلام الله عليهم ولا مانع أن يُكتب بعد ذلك . وهذا الأمر خلاف لما كان من أمر موسى والتوراة ، ذلك أن أسفار العهد القديم تقول إن أول نسخة من التوراة جاءت مكتوبة بأمر الله : « فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده . لوحان مكتوبان على جانبهما .. اللّوحان هما صنعة الله ، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللّوحين ..

وكان عندما اقترب (موسى) إلى المحلة أنه أبصر العجل (الذى عبده قومه) والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللّوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل » (خروج ٣٢ : ١٥ - ١٩) .

ثم أُعيدت كتابة التوراة مرة ثانية هكذا : « قال الرب لموسى : انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين . فأكتب أنا على اللّوحين الكلمات التى كانت على اللّوحين اللذين كسرتهما ..

وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات .. وكان (موسى) هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة . فكتب على اللّوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر » (خروج ٣٤ : ١ - ٢٨) .

وقرب نهاية موسى « كتب موسى هذه التوراة وسلّمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل » (تثنية ٣١ : ٩) .

لقد كان موسى يعرف القراءة والكتابة ، بل إنه كان مثقفاً دَرَسَ فى جامعة عين شمس القديمة ، « فتهذب موسى بكل حكمة المصريين » .

---

(١) راجع ص ١١٧

وكذلك كان المسيح مثقفاً دَرَسَ الأسفار المقدسة وتتلمذ على طائفة اليهود الأسينيين . ففى بدء رسالته « دخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ . فدفع إليه سفر أشعياء النبى . ولما فتح السفر وجد الموضع الذى كان مكتوباً فيه : روح الرب علىَّ لأنه مسحنى لأُبشِّر المساكين .. وطوى السفر وسلَّمه إلى الخادم .. فابتدأ يقول لهم : إنه اليوم قد تم هذا المكتوب فى مسامعكم » .

(لوقا ٤ : ١٦ - ٢١)

مما سبق نتبين أن كلام اللّه الذى يجعله فى فم النبى المرتقَب هو ما يقرأه على الناس شفاهاً بأنه القرآن الذى جاء به ، وكان فيه : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم : ٣ - ٤) .

*

٨ - وكما نعلم جميعاً فقد كان كل من موسى ومحمد « رجل حرب » قاد أتباعه فى معارك شرسة ضد الكفار وعبَّاد الأوثان ، وذاقت قوات كل منهما النصر ، كما تعرَّضت للهزيمة .

ويجب أن نذكر أن « رجل الحرب » فى الكتاب المقدس ، صفة من صفات اللّه .

فها هو موسى يُعَظِّم ربه بعد غرق فرعون وجنوده ويقول : « الرب قوَّتى ونشيدى .. هذا إلهى فأُمجده ..

الرب رجل الحرب . الرب اسمه » (خروج ١٥ : ٢ - ٣) .

٩ - ولقد تلقى موسى الرسالة الإلهية وعمره ٨٠ عاماً : « وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلَّما فرعون » (خروج ٧ : ٧)

وكما علمنا فقد توفى موسى عن ١٢٠ عاماً ، أى أن فترة رسالة موسى بلغت ثلث عمره . .

كذلك بُعِثَ محمد وعمره ٤٠ عاماً وتوفى عن ٦٣ عاماً أى أن فترة رسالته بلغت ثلث عمره أيضاً .

١٠ - وأخيراً - وليس آخراً - فقد مات كل منهما ميتة طبيعية ولم يتعرَّض فيها لقتل أو تعذيب ، إنما مات رضيَّ النفس في حضن أهله وعشيرته وأتباعه .

* *

(ب) ثم كانت هناك بشارة أخرى لاتزال تذكرها التوراة تتعلق بالإسلام ونبيه وشريعته ، وفتح مكة ودخوله ظافراً على رأس جيش من صحابته الأبرار : ... ١٠ من القديسين ، كما تقول التوراة .

فهذه نبوءة موسى فيهم وفي نبيهم - محمد رسول الله - تقول ، حسب ترجمة البروتستانت :

« جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من **جبل فاران** .

وأتى من **ربوات القدس** وعن يمينه نار شريعة لهم .

فأحَبَّ الشعب . **جميع قديسيه في يدك** ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك » (تثنية ٣٣ : ٢ - ٣) .

وإذا رجعنا إلى **نسخة الملك جيمس** نجد ترجمة الفقرة التي تتحدث عن « **ربوات القدس** » وما بعدها تعطينا صورة أوضح ، إذ تقول : « **وجاء مع عشرة آلاف (... ر.١٠) من القديسين** . ومن يمينه خرجت شريعة ملتهبة لهم » [١] .

أما العبارة التي تقول : « **أحب الشعب** » ، فنجدها في التراجم الفرنسية تتكلم عن حب الله للشعوب ، أي للناس أجمعين ، وليس شعباً واحداً ، التي جرت العادة ، في مثل تلك الحال ، أن يُفهم أنه الشعب الإسرائيلي ، فالفرق كبير بين هذا وذاك . فهذه التراجم تقول : « **أجل ، إنه يحب الشعوب** » [٢] .

---

(١) < and he came with ten thousands of saints : from his right hand went a fiery law for them >.

(٢) < Oui, il aime les peuples > . (L. s.) .

وأما قولهم : « **يتقبلون من أقوالك** » ، فهى فى نسخة الملك چيمس : « وكل واحد سيتلقى من أقوالك » .

وهناك إجماع بين التراجم على أن هذه الفقرة من سفر التثنية ، لها علاقة بفقرة أخرى من سفر حبقوق (٣ : ٣) ، سنتعرض لها فيما بعد .

والآن ننظر فى هذه النبوءة ، كما جاءت في سفر التثنية مع الأخذ فى الاعتبار ما تقوله مختلف التراجم ، نجد أن :

مجىء الرب من سيناء يشير إلى رسالة موسى ، حيث ناداه الله فى البقعة المقدسة .

وإشراق الرب من سعير ، يشير إلى رسالة المسيح عيسى ، حيث تمتد سعير جنوب البحر الميت ، شرق فلسطين ، وحيث اعتزل المسيح نحو ١٨ عاماً مع طائفة من أهل التقوى والورع يُعرفون باسم : الأسينيين .

وأما تلألؤ الرب من جبل فاران ، فهو إشارة إلى رسالة محمد الذى جاء من ذُرِّية إسماعيل بن إبراهيم . فلقد سكن إسماعيل فى « برية فاران » .

(تكوين ٢١: ٢١)

وكان « بنو إسماعيل : اثنا عشر رئيساً ، حسب قبائلهم .. **وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر** » (تكوين ٢٥ : ١٦ - ١٨) .

هذا .. ولقد دخل محمد مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فى ... ر.١ **من أصحابه ، القديسين** كما تقول نبوءة موسى . دخلوها بسلام لهم ولأهلها . فلما دخل المسجد الحرام طاف بالكعبة وسجد لله شاكراً ، ثم دعا القرشيين وقال لهم : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم » ؟

قالوا : خيرا . أخٌ كريم ، وابن أخ كريم .

قال : « **فاذهبوا ، فأنتم الطُلَقاء** » .

ثم أتم رسول الله فى أول يوم لفتح مكة ، ما استمر يدعو إليه طيلة ٢٠ سنة ، وما حاربته مكة بصناديدها أشد الحرب فيه . فقد طهَّرَ المسجد الحرام من الأصنام وقضى تماماً على الوثنية .

هذا .. ونجد إشارة أخرى إلى جبل فاران ، جاءت فى نبوءة حبقوق التى أشارت إليها مختلف التراجم ، كما ذكرنا سَلَفاً . فهى تقول : « **الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران** . سلاه .

جلاله غطّى السمٰوات . والأرض امتلأت من تسبيحه » (حبقوق : ٣ : ٣) .

إن المسلمين هم الوحيدون بين المؤمنين بالله ورسالاته ، الذين يملأون الأرض تسبيحاً ، خمس مرات على الأقل كل يوم فى الأذان للصلاة ، حيث يهتفون قائلين : **الله أكبر** . ثم يعلنون شهادة الحق الكبرى وهى : **لا إله إلا الله** .

وان مكة لهى المدينة المقدسة الوحيدة التى قضى الله - جلت حكمته - ألا يدخلها مشرك نجس . فوجب على المسلمين أن يحافظوا على طهارتها هذه ، فذاك قضاء الله فى كتب النبيين ، كما هتف به أشعياء الذى جاء بعد موسى بستة قرون ، فقال نبوءة عن **البرية** ، بلاد العرب المقفرة الجدباء ، جاء فيها : « **تفرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القفر** ويزهر كالنرجس .. هو ذا إلهكم . الانتقام يأتى . جزاء الله .. **وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة لا يعبر فيها نجس بل هى لهم** » (أشعياء ٣٥ : ١ - ٨) .

ولقد كان قضاء الله فى القرآن العظيم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (التوبة : ٢٨) .

حقاً .. لقد عوَّض الله رسوله بصحابة عظام ، قادهم فى جيش من ١٠٠٠٠ **قديس** ، كان كل منهم - كما تقول نبوءة التوراة - « **يجلس عند قدمى النبى يتلقى من أقواله** » .

*

٢ - بشارة المزامير :

ثم كانت نبوءات المزامير عن ذلك النبى المرتقَب ، ومنها : [١]

(أ) أنه وسيم الخِلْقة حسن المنظر : « أنت أبرع جمالاً من بنى البَشر » .

(ب) رجل حرب من أجل الحق ، يحالفه النصر : « **تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار .. اركب من أجل الحق والدعة ، والبر ، فتريك يمينك مخاوف . شعوب تحتك يسقطون ، بنات ملوك بين حظيَّاتك** » ..

لقد كان محمد نبى الإسلام صاحب هذه الصفات وصاحب هذه الأحداث ،، وفى إحدى الغزوات كانت جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من السبايا ، ففكَّ النبى أسارها وتزوجها فلما بلغ الخبر الناس أطلقوا مَن بأيديهم من أسرى بنى المصطلق إكراماً لمصاهرة رسول الله إياهم حتى لكانت عائشة تقول عن جويرية : « ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها » .

(جـ) كذلك عُرِفَ عن محمد نبى الإسلام أنه لم يُشتهر بسلسلة نسب تضم فى الاباء كثيراً من الملوك وإن كانت قد ضمت رؤساء قبائل سادة موقَّرين فى أقوامهم ابتداءً من أبناء إسماعيل الذين كانوا رؤساء قبائل كبيرة [٢] حتى جده قُصَىّ الذى اجتمع له أمر مكة فى منتصف القرن الخامس الميلادى ممثلاً فى الحجابة والسقاية والرِفادة والندوة واللواء والقيادة .

ولكن الله - جلَّت حكمته - عوَّضه عن ذلك النسب الأبوى بنسب ولدى فقد خرجت منه ذُرِّية وكان له نسب انتشر فى الأرض ، وكان أولئكم « **أهل البيت**» النبوى محل تقدير وتعظيم عبر العصور . وفى هذا يقول المزمور :

---

(١) انظر المزمور : ٤٥ .

(٢) تقول التوراة : « هذه أسماء بنى إسماعيل حسب مواليدهم : نبايوت بكر إسماعيل ، وقيدار ، وأدبئيل ، ومبسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيش ، وقدمه .

هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم . اثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم .. سكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور » .

(تكوين ٢٥ : ١٣ - ١٨)

« **عوضاً عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء فى كل الأرض** » .

لقد مات النبى ودرعه مرهونة عند يهودى ، فلم يُوَرِّث مالاً ، ولا مُلكاً ، وإنما وَرَّثَ علماً وحكمة ومودّة ورحمة . وترك النبى ذُرِّيةً ونسباً وصهراً .

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا المَوَدَّةَ فِى القُرْبَىٰ ﴾ (الشورى : ٢٣)

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

(الأحزاب :٣٣)

* *

٣ - بشارة أشعياء :

ثم كانت نبوءات أشعياء [١] ، وفيها عن هذا النبى :

(أ) اشتهر بأنه عبد الله ورسوله : « **هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سُرَّت به نفسى . وضعتُ روحى عليه فيُخرج الحق للأمم** » .

وقد اشتهر محمد نبى الإسلام بأنه عبد الله ورسوله كما اشتهر بذلك عباد الله المكرَّمون من الأنبياء والمرسلين . يقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ٢١) .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣)

﴿ الحَمْدُ للَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾ .

(الكهف :١)

---

(١) انظر على وجه الخصوص الإصحاح ٤٢

(ب) يسود الدين وتكتمل الشريعة التى جاء بها فى عهده ، لا من بعده : **« لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته »** .

ولقد وعد الله نبى الإسلام أن يتم الأمر الذى جاء به ، فقال :

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة : ٣٢) .

ولقد أكمل الله الدين فى حياة النبى حتى إذا توفاه الله ترك الأمة الإسلامية على المحجة البيضاء ليلها كنهارها . لقد اكتمل الدين ونزل القرآن يقول :

﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾. (المائدة : ٣)

(جـ) يعصمه الله من الناس حتى يُكمل رسالته : **« أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم »** .

ولقد طمأن الله نبى الإسلام ألا يلتفت إلى مؤامرات الكائدين له ، فالله عاصمه من الناس حتى يبلغ الأمر غايته . ولقد نزل القرآن ليُعلن هذا التحدى على رؤوس الأشهاد :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة ٦٧) .

(د) ينتسب النبى إلى إسماعيل بن إبراهيم : **« لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التى سكنها قيدار »** . وقيدار هذا هو الابن الثانى لإسماعيل . (تكوين ٢٥ : ١٣)

(هـ) أعداؤه المنهزمون عبدة أوثان ، أصحاب أصنام : **« يخزى خزياً المتكلون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا »** :

(و) رجل حروب مقدام ينتصر على أعدائه : **« الرب كالجبار يخرج . كرجل حروب ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه »** .

ولقد سجل القرآن المعارك الكبرى فى الإسلام وكان النبى هو القائد والمخطط والمحارب حين البأس :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٢١) .

﴿ فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾.
(النساء : ٨٤)

إن هذا أمر اختص به أولو العزم من الأنبياء والمجاهدين . ولقد كان ذلك أمر موسى بعد أن خرج ببنى إسرائيل من مصر ، وانتهت مرحلة فى جهاده وبدأت مرحلة أخرى ، فآنذاك « كلّم الرب موسى فى برية سيناء .. فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً : أحصوا كل جماعة بنى إسرائيل ..

من ابن عشرين سنة فصاعداً ، كل خارج للحرب فى إسرائيل ، تحسبهم أنت وهارون حسب أجنادهم ويكون معكما رجل لكل سبط ، هو رأس لبيت آبائه » .

(ز) فى دينه هتاف من رءوس الجبال وتسبيح وتكبير : « **من رءوس الجبال ليهتفوا ، ليعطوا للرب مجداً ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر** ».

لقد بُنِىَ الإسلام على خمسة أعمدة خامسها الحج ، وفيه يُعقد أكبر مؤتمر دينى عالمى سنوياً بجبل عرفات ، وقد جُعِلَت الوقفة بهذا الجبل ركن الحج الركين ، إذ قال نبى الإسلام : « الحج عرفة » . فهناك يهتف الحُجَّاج لله ويُسبِّحون ويُكَبِّرون ويُهَلِّلون ويتضرعون بالدعوات وصالح العبادات ، وما أعظمه من نُسُك.

وفى الحج – يتجرد الإنسان عن زخرف الحياة ومتعها ، إذ يحرم عليه ممارسة بعض ما اعتاده فى حياته الزوجية الصالحة مثل العلاقة الجنسية ، والتحلى بأفخر الثياب ، وعوامل الصخب والإثارة .

هناك يواجه الإنسان الحقيقة بين يدى خالقه فيأتى هذه التجربة العظيمة طوعاً فى الدنيا قبل أن يأتيها كرهاً فى الآخرة ، فآنذاك لا ينفع الندم ولا تجدى الحسرات .

﴿ الحَجُّ أشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، واتَّقُونِ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ *

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّنْ رَّبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (البقرة : ١٩٧ - ١٩٨) .

(ح) الشعب الذى ظهر فيه كان متخلفاً ضعيفاً طُعمة لكل آكل : « **شعب منهوب ومسلوب ، وقد اصطيد فى الحفر كله وفى بيوت الحبوس اختبأوا . صاروا نهباً ، ولا منقذ . وسلباً ، وليس من يقول رد** » .

ويقول القرآن : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ (الجمعة : ٢ - ٤) .

(ط) ولكن بعد أن جاءهم النبى خرجوا من الظلمات إلى النور : « **لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين ، من بيت السجن الجالسين فى الظلمة .**

أُسَيِّرُ العُمْىَ فى طريق لم يعرفوها ، فى مسالك لم يدروها أُمَشِّيهم . أجعل الظلمة أمامهم نوراً والمعوجات مستقيمة . هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم » .

ويقول القرآن : ﴿ آلر ، كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ١) .

﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الطلاق . ١٠ - ١١) .

إن تجربة الإسلام فى عرب الجزيرة العربية نموذج فريد فى التاريخ . وأذكر فى هذا المقام مقالة للمؤرخ الإنجليزى **أرنولد توينبى** قال فيها : لكى ندرك ما فعله الإسلام بالعرب - بمقاييس العصر - نتصور دولة فى حجم كوبا تظهر فجأة ، ثم تستولى على نصف الولايات المتحدة الأمريكية وتخضع لها روسيا بأكملها .

ومن الواضح أن توينبى ضرب المثل بهاتين الدولتين الكبيرتين باعتبارهما القوتين الأعظم فى النصف الثانى من القرن العشرين ، ويناظرهما فى القرن السابع الميلادى : الإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية الفارسية على الترتيب.

(ى) هو نبى البِّر الذى يُعَظِّم شريعة الله : « **الرب قد سُرَّ من أجل بِرِّهِ ، يُعَظِّم الشريعة ويكرمها** » .

إن بر نبى الإسلام ورحمته بالناس جميعاً أمر يشهد به الجميع حتى من غير المسلمين ، ومنهم عتاة تطاولوا على الإسلام ونبيه . ولقد حدث أن مرت جنازة يهودى فوقف النبى تكريماً للإخوة الإنسانية ، فإذا ببعض الصحابة يقول له : إنها ليهودى - وقد علم ما أصاب النبى والمسلمين من أذى على يد اليهود تمثَّل فى مؤمرات وفتن وحرب نفسية وحروب دموية - فأمسك عليه النبى اعتراضه قائلاً : « أليست نَفَساً » ؟!

صدق القرآن : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

* * *

ثانياً - بشارات العهد الجديد

١ - « النبى » المرتَقَب :

ظهر يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) نبياً فى اليهود فى مطلع القرن الأول من الميلاد ليبشِّر بالمسيح - قريبه الذى وُلِدَ معه فى نفس العام - ويُمَهِّد له الطريق .

وعند ما ظهر يوحنا كان اليهود يعلمون يقيناً من نبوءات كتبهم أنه لا يزال هناك فى عالم الأنبياء ثلاثة لم يظهروا بعد ولذلك أرسلوا إليه يسألونه :

« وهذه هى شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم ، كهنة ولاويين ليسألوه : من أنت ؟

فاعترف ولم ينكر وأقر : إنى لست أنا المسيح .

فسألوه : إذاً ماذا ؟ إيليا أنت ؟

فقال : لستُ أنا .

- النبى أنت ؟

فأجاب : لا .

فقالوا له : ماذا تقول عن نفسك ؟

قال : أنا صوت صارخ فى البرية . قوّموا طريق الرب كما قال أشعياء النبى ..

فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد إن كنت لستَ المسيح ولا إيليا ولا النبى ؟

أجابهم يوحنا قائلاً : أنا أُعَمِّد بماء ، ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه .. الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » (يوحنا ١ : ١٩ -٢٧) .

من الواضح إذن أن لكل واحد من الثلاثة الذين كان ينتظرهم اليهود اسماً يُعرف به ، وأن أسماء أولئك الثلاثة هى : إيليا - والمسيح - والنبى .

ومن الواضح كذلك أن النبى المرتقَب هو آخر الثلاثة ظهوراً ، أى يأتى بعد إيليا والمسيح وذلك لكونه آخر مَن سأل عنه اليهود يوحنا المعمدان .

ولما كان اليهود قد اشتُهِروا بظهور الأنبياء فيهم ، فإن تسمية هذا النبى المرتقَب الأخير باسم « النبى » يعنى ولا شك أنه نبى ولكنه ليس ككل الأنبياء . إنه نبى أمره جلل ونبأه عظيم . إنه نبى الزمان أو هو « النبى » المرتقَب .

*

وحتى بعد ظهور « المسيح » استمر اليهود يخلطون بينه وبين « النبى » المرتقَب فقد حدث « فى اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً : إن عطش أحد فليقبل إلىَّ ويشرب .. فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام ، قالوا : **هذا بالحقيقة هو النبى .**

وآخرون قالوا : هذا هو المسيح .. فحدث انشقاق فى الجمع لسببه » .

(يوحنا ٧ : ٣٧ - ٤٣)

*

لقد ظهر النبى إيليا (إلياس) فى بنى إسرائيل فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، وإيليا هذا - انتهت حياته برفعه إلى السماء حياً .

ولقد استمر اليهود حتى ميلاد المسيح ينتظرون إيليا أو ظهور نبى يتقدم إليهم بروح إيليا .

ولقد كانت بشارة الملاك للنبى زكريا أنه سيُرزق بابن اسمه يحيى (يوحنا) يتقدم بروح إيليا . إذ قال له الملاك :

« وخمراً ومسكراً لا يشرب . ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس .. ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلٰههم .

ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوَّته » (لوقا ١٥ : ١٣ - ١٧) .

ولقد علَّم المسيح مَن حوله أن إيليا المنتظر قد جاء فى شخص يوحنا بن زكريا فقد « ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا .. ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبياً ؟

نعم أقول لكم وأفضل من نبى ..

الحق أقول لكم : لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ..

إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمَع أن يأتى » .

(متى ١١ : ٧- ١٤)

ومرة أخرى « سأله تلاميذه قائلين : فلماذا يقول الكتبة : إن إيليا ينبغى أن يأتى أولاً (قبل المسيح) .

فأجاب يسوع وقال لهم : إن إيليا يأتى ويرد كل شىء **ولكنى أقول لكم : إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا كل ما أرادوا ..**

حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان » .

(متى ١٧ : ١٠ - ١٣)

*

والذى عملوه فى يوحنا المعمدان أن حاكماً فاجراً يدعى هيرودس قطع رأسه وقدّمه على طبق إرضاءً لراقصة فاجرة جزاء تنديده بعلاقة هيرودس بامرأة أخيه المدعوة هيروديا .

*

وخلاصة القول الذى لا جدال فيه : إن نبوءات الأنبياء السابقين ومعتقدات الجيل المعاصر للمسيح كانت تقرر يقيناً إنتظار ثلاثة مشهورين فى عالم الأنبياء هم على الترتيب : إيليا ، ثم المسيح ، ثم النبى .

ولقد قرر المسيح صراحة أن إيليا قد جاء فى شخص يوحنا المعمدان ومن المعتقد بين المسيحيين والمسلمين - أن المسيح قد جاء فى القرن الأول من الميلاد .

لم يبق - إذن - بعد المسيح إلا أن يأتى « النبى » المرتقَب ، النبى الذى يكتمل به الزمان ، وفى مجيئه يأتى «ملكوت السموات ».

* *

ويذكر التاريخ أن محمداً نبى الإسلام قد أرسل كتباً إلى الملوك والحكّام من الجيران يدعوهم فيها إلى الإسلام منهم : كِسرى ملك فارس وهِرَقل إمبراطور الروم والنجاشى ملك الحبشة والمقوقس الزعيم الدينى لأقباط مصر التى كانت آنذاك تحت حكم الروم . وقد جاء فى رد المقوقس : « سلام عليك - أما بعد :

فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه . وقد علمتُ أن نبياً بقى وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمتُ رسولك » ، وقد بعث إليه بجاريتين هما مارية وسيرين . وقد عُرفت الأولى باسم مارية القبطية التى تزوجها النبى وولدت له إبراهيم ، أما سيرين فقد تزوجها حسان بن ثابت .

ولا شك أن التمحيص التاريخى لكتاب المقوقس يقرر صحته لسببين على الأقل :

أحدهما : أن إرسال مارية إلى النبى باعتبارها رداً كريماً على كتابه إلى المقوقس ثم زواج النبى منها ، وولادتها إبراهيم ، ثم موته طفلاً وحزن النبى عليه وحديثه الشهير فى رثائه ثم مقالة بعض المسلمين حين وافق موت إبراهيم كسوف الشمس فحسبوا ذلك معجزة وما كان من رد النبى عليهم حين قال قولته الخالدة : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تُخسفَان لموت أحد ولا لحياته » - كل ذلك حقائق تاريخية مُسَلَّم بها .

وأما الثانى : فهو قول المؤرخين المسلمين بأن المقوقس لم يُسْلِم على الرغم من رده المهذب ، فإن هذا يعنى تحريهم الدقة فيما كتبوه وكان بوسعهم إدعاء خلاف ذلك بعد أن انتشر الإسلام وساد .

بعد ذلك نقول : إن قول المقوقس فى رسالته : « قد علمتُ أن نبياً بقى » فهو يتفق وما فى الأناجيل حتى اليوم . وأما قوله : « وكنتُ أظنُ أنه يخرج بالشام » . فإنه يعنى بوضوح أن توقع خروجه من الشام أو فلسطين مثلاً لا يعدو كونه مسألة ظنية ، بدليل قوله : « كنتُ أظنُ » . وهو قد توقَّع خروجه بالشام لأن الشائع أن أنبياء كثيرين ظهروا فى تلك البقعة من الأرض ، فمن المتوَقع - قياساً على ذلك - أن يظهر النبى المرتقَب فيها أيضاً .

بَيْدَ أن قول المسيح الذى قذف به فى وجه رؤساء الكهنة وشيوخ اليهود فى لقائه الغاضب بهم : « أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره » (متى ٢١ : ٤٣) - إن هذا القول يعنى بوضوح وبساطة أن عهد خروج الأنبياء فى تلك البقعة قد انتهى ، لأن رسالة الله قد نُزِعَت من تلك

الأمة اليهودية العاصية ، ثم تفضّل الله بها على أمة أخرى يشهد المسيح أنها ستكون جديرة بها .

* *

٢ - « الملكوت » المقترب :

عندما ظهر يوحنا المعمدان كنبى « كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامة جراداً وعسلاً برياً ..

(وكان) يكرز فى برية اليهودية قائلاً : **توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات** » (متى ٣ : ٣ - ٤) .

ولما « سمع يسوع أن يوحنا أسلم ، انصرف إلى الجليل وترك الناصرة .

من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يُكَرِّز ويقول : **توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات** » (متى ٤ : ١٢ - ١٧) .

« وكان يسوع يطوف كل الجليل يُعَلِّم فى مجامعهم ويُكَرِّز **بيشارة الملكوت** ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب » (متى ٤ : ٢٣) .

« ثم دعا (المسيح) تلاميذه الإثنى عشر .. هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أُمم لا تمضوا ، إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة .

وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين : **إنه قد اقترب ملكوت السموات** . اشفوا مرضى ، طهروا برصاً .. مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » .

(متى ١٠ : ١ - ٨)

ولقد عَلَّمَ المسيح تلاميذه أن يدعوا فى صلاتهم بأن يأتى ملكوت السموات ، « وإذ كان يُصَلِّى فى موضع ، لما فرغ قال واحد من تلاميذه : عَلِّمنا أن نُصَلِّى كما عَلَّمَ يوحنا (المعمدان) أيضاً تلاميذه .

فقال لهم : متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك **ليأت ملكوتك** . اغفر لنا خطايانا .. ولا تُدخلنا فى تجربة » (لوقا ١١ : ١ - ٤) .

وكانت تلك الصلاة الربانية هى تعليم المسيح فى موعظة الجبل الشهيرة .

(متى ٦ : ٩ - ١٣)

مما سبق نتبين بوضوح أن : يوحنا المعمدان والمسيح ، وتلاميذه جاءوا يبشرون باقتراب ملكوت السموات . ومن البدهى - إذن - أن هذا الملكوت شىء يأتى بعد المسيح .

*

ولقد رأينا أن المسيح تنبأ للإسرائيليين بانتزاع الملكوت منهم ، فقال لهم : « إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأُمة تعمل أثماره » .

ومن ثَمَّ نتبين أن ملكوت الله الذى كان فى بنى إسرائيل ثم نُزِعَ منهم لم يكن سوى النبوَّة وما يرتبط بها من وحى ورسالة وكتب سماوية .

وأن المسيح حين تنبأ بنزعه منهم فإنه تنبأ كذلك بإعطائه لأمة أخرى تكون أفضل من تلك الأمة الإسرائيلية التى وُصِفَت منذ عهدها المبكر فى توراة موسى بأنها : « أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم » (تثنية ٣٢ : ٢٨) .

وعندما جاء يوحنا المعمدان يُمَهِّد للمسيح كان قوله للإسرائيليين : « يا أولاد الأفاعى ، مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أباً ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم » (متى ٣ : ٧ - ٩) .

*   *

٣ - الرسول « روح الحق » :

يذكر إنجيل يوحنا نبوءة للمسيح عن الرسول العظيم الآتى بعده تقول فى شأنه الترجمة العربية المعروفة باسم نسخة البروتستانت ما نورده فى فقرات كالتالى :

(أ) « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الآب فيعطيكم **معزياً آخر** ليمكث معكم إلى الأبد . **روح الحق** الذى لا يستطيع العالم أن

يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معــكم ويكون فيكم » (١٤ : ١٥ - ١٧) .

(ب) « الكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما **المعزى الروح القدس** الذى سيرسله الآب باسمى فهو يُعَلِّمكم كل شيء ويُذَكِّركم بكل ما قلته لكم » (١٤ : ٢٤ - ٢٦) .

(جـ) « ومتى جاء **المعزى** الذى سأرسله أنا إليكم من الآب ، **روح الحق** الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى . وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معى من الابتداء » (١٥ : ٢٦ - ٢٧) .

(د) « أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم **المعزى** . ولكن إن ذهبت أُرسله إليكم .

ومتى جاء ذاك يُبَكِّت العالَم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا ترونني أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالَم قد دين » . (١٦ : ٧ - ١١) .

(هـ) « **إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن .**

وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل بكل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ».

(١٦ : ١٢ - ١٣)

*

قبل الشروع فى دراسة هذه النبوءة نلاحظ بادىء ذى بدء أن التراجم المتداولة قد اتفقت على الاسم الثانى لذلك الرسول الآتى بعد المسيح ، فكان :

- فى العربية : روح الحق .
- وفى الإنجليزية : The spirit of truth
- وفى الفرنسية : L'esprit de la vérité

لكن تلك التراجم اختلفت فى اسمه الأول ، فكان :

- فى العربية : المُعَزِّى (نسخة البروتستانت ، والكتاب المقدس للكاثوليك . منشورات دار الشرق) .

وأيضاً : المؤيِّد (العهد الجديد . منشورات دار المشرق) .

- وفى الإنجليزية :

The Comforter (المعزى) { King James Version }

The Counsellor (المحامى . الناصح) { Revised Standard Version }

The Adviser (الناصح) { The Original N. T. }

- وفى الفرنسية :

Le Consolateur (المُعَزِّى) { L . Segond }

Le Paraclet (الباراقليط : كلمة يونانية) { T. O. B. et B. de Jérus }

ولما كانت نبوءة المسيح قد ذكرت أنه سيكون رسولاً يرسله الله الذى أرسل المسيح (الفقرتان : أ ، ب) ، كان من المنطق الذى لا يحتمل الجدل أن تكون تسميته المبدئية هى : **الرسول روح الحق** ، وذلك إلى أن يتم التعرف على حقيقة اسمه الأول الذى اختلفوا فيه .

*

إن فهم هذه النبوءة وصدق تأويلها تحكمه مجموعة من الحقائق التى نعرضها فيما يلى :

١- روح الحق إنسان :

ولقد بيَّن يوحنا التلميذ أن روح الحق يُطْلَق على الإنسان الصادق فى القول والعقيدة فقال : « أيها الأحباء ، لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ...

نحن من الله فمَن يعرف الله يسمع لنا ، ومَن ليس من الله لا يسمع لنا .

من هذا نعرف : روح الحق ؛ وروح الضلال » .

(رسالة يوحنا الأولى - ٤ : ١ - ٦)

من ذلك يتبين أن اللُغة الشاعرية التى كتب بها يوحنا التلميذ إنجيله ورسائله ، تعنى أن : **روح الحق هو إنسان صادق ، هو من الله - وأن روح الضلال هو إنسان كاذب ليس من الله فى شىء .**

ولقد أكدت ذلك حاشية **كتاب أُورشليم الفرنسى** (المقدس) فأشارت إلى أن « **روح الحق** » الذى تكلم عنه يوحنا فى رسالته الأولى هنا (٤ : ٦) هو ما سبق أن ذكره فى إنجيله (١٤ : ١٧) .

*

٢- روح الحق غير الروح القدس :

لقد ذكرت نبوءة المسيح اسم : « **روح الحق** » ثلاث مرات وذلك فى الفقرات ٣ : ١ ، جـ ، هـ (١٤ : ١٧ ، ١٥ : ٢٦ ، ١٦ : ١٣) ، بينما استبدل كاتب إنجيل يوحنا هذا الاسم بـ « الروح القدس » مرة واحدة فقط وذلك فى الفقرة ٣ : ب (١٤ : ٢٦) .

لقد عالج الدكتور **موريس بوكاى** هذه المشكلة فى كتابه المعروف باسم : **الكتاب (المقدس) والقرآن والعلم** [١] ، إذ بيَّنت المقارنة مع **مخطوطة سريانية** شهيرة اكتشفت بدير سيناء عام ١٨١٢ أن النص الوارد فى ١٤ : ٢٦ يخلو من كلمة « القدس » أى أنه يتحدث عن « الروح » فقط ، وليس « الروح القدس » وهو ما يعنى أن كلمة « القدس » قد أضيفت بفعل أحد النُسَّاخ .

---

(١) La Bible, Le Coran et la science ، وقد نشرته دار المعارف بالقاهرة تحت عنوان « القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم » .

يقول موريس بوكاى : « إن أى نقد جاد للنصوص يبدأ بالبحث عن الاختلافات النصية . ويظهر هنا أن ليس فى مجموع المخطوطات المعروفة لإنجيل يوحنا نص آخر مختلف من شأنه أن يغيِّر المعنى سوى تلك الفقرة ١٤ : ٢٦ من المخطوطة السريانية الشهيرة المسماة (Palimseste) . **والفقرة لا تشير هنا إلى الروح القدس وإنما إلى الروح فقط** .. [١] فيما عدا هذه الملاحظة وبعض الاختلافات النحوية التى لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص .. وما يهم هو أن المعروض هنا فيما يتعلق بالمعنى الدقيق للفعلين : « يسمع » ، و « يتكلم » . يجب أن يسرى على كل مخطوطات إنجيل يوحنا ، وهذا هو واقع الحال . إن فعل « يسمع entendre » فى الترجمة الفرنسية هو فعل (akouô) باليونانية ، ويعنى استقبال أصوات . وقد أعطى الفعل اليونانى ، على سبيل المثال ، كلمة (acoustique) بالفرنسية ، و (acoustics) بالإنجليزية ، وتعنى علم الأصوات .

وإن فعل « يتكلم parler » فى الترجمة الفرنسية فهو فعل (Laleô) باليونانية ، ومعناه العام إصدار أصوات وخاصة صوت الكلام . ويتكرر هذا الفعل كثيراً فى النص اليونانى للأناجيل وذلك عند الإشارة إلى تصريح خطير للمسيح فى أثناء تبشيره . ويصبح من الواضح إذن أن المقصود بالاتصال بالناس هنا لا يكمن مطلقاً فى إلهام من عمل الروح القدس ، إنما هو اتصال ذو طابع مادى واضح ، وذلك بسبب مفهوم إصدار الأصوات المرتبط بالكلمة اليونانية التى تعرِّفه . إن الفعلين اليونانيين (akouô) و (Laleô) يعنيان فعلين ماديين لا يمكن أن يخصا إلا كائناً يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام ، وبالتالى فمن

---

(١) الترجمة العربية بها خطأ فادح فقد قلبت المعنى رأساً على عقب إذ تقول : « والفقرة لا تشير إلى الروح فقط وإنما إلى الروح القدس » - ص ١٢٧ . بينما النص الفرنسى يقول :
« Ici, on ne mentionne pas L,Esprit Saint, mais L,Esprit tout court . » p.108.
كذلك تقول ترجمتها الإنجليزية : « Here, It is not the Holy Spirit that is mentioned, but quite simply the Spirit » . P. 114 .

ولقد بينت هذا الخطأ فى مقال نشر بصحيفة « الشرق الأوسط » بتاريخ ١٩٨٨/٩/٢١

المستحيل تطبيق هذين الفعلين على الروح القدس .. ولكن إذا حذفنا كلمتى « الروح القدس to pneuma to agion » من هذه الجملة فإن نص يوحنا كله يُعَبِّر عن معنى غاية فى الوضوح .. إن ذلك يقودنا بمنتهى المنطق أن نرى فى الباراقليط (Paraclet) الذى ذكره يوحنا كائناً بَشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام ، وهما الحاستان اللتان يتضمنهما النص اليونانى ليوحنا بشكل قاطع .

إن وجود كلمتى « الروح القدس » فى النص الذى بين أيدينا اليوم يمكن إرجاعه بسهولة إلى إضافة ألحقت عمداً فيما بعد ، وقُصِدَ بها تغيير المعنى الأصلى لفقرة تتناقض بإعلانها مجىء نبى بعد المسيح مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التى أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء » [١] .

مما سبق يتبين ضرورة إسقاط كلمتى « الروح القدس » التى حرَّفها قلم الكاتب فى ١٤ : ٢٦ ، واعتبارهما : « روح الحق » التى ذُكِرَت فى تلك النبوءة ثلاث مرات متتاليات .

ويحضرنا فى هذا المقام ما يقوله الوحى إلى النبى إرميا فى هؤلاء المحرِّفين : « كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا . حقاً إنه إلى الكذب حوَّلها قلم الكَتَبة الكاذب » (إرميا ٨ : ٨) .

*

٣ – مجىء الروح القدس غير مرتبط برحيل المسيح :

تقول الفقرة (٣ : د) من النبوءة ، على لسان المسيح : « أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى » (١٦ : ٧) إنها تقرر هنا شيئاً هاماً وهو أن المسيح وذلك الرسول المُعَزِّى لا يجتمعان فى الدنيا معاً ، مما يؤكد مرة أخرى أن المُعَزِّى لا يمكن أن يكون الروح القدس الذى أيَّد المسيح طيلة حياته .

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ١٢٧ – ١٢٩ مع تصحيح الترجمة .

فمن المعلوم أن الروح القدس ظل يعمل منذ خلق الله العالم وإلى إن جاء المسيح وإلى ما بعد المسيح وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها . وإذا ركزنا على نشاط الروح القدس فى جيل المسيح مع ذكر شىء يسير مما قبله لوجدنا الآتى :

(أ) كان الروح القدس مع داود :

« لأن داود نفسه قال : بالروح القدس قال الرب لربى ... » .

(متى ١٢ : ٣٦)

(ب) باركَ الروح القدس كلا من زكريا وامرأته اليصابات ، وأوحى إلى زكريا وإى سمعان التقى : « امتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً : مباركَ الرب إله إسرائيل . وامتلأت اليصابات من الروح القدس ..

وكان رجل فى أورشليم اسمه سمعان ، وهذا الرجل كان باراً تقياً ... والروح القدس كان عليه وكان قد أوحى إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب » (لوقا ١ : ٦٧ ، ٤٠ ، ٢ : ٢٥ - ٢٦) .

(جـ) باركَ الروح القدس يحيى وهو فى بطن أمه :

« قال له الملاك : لا تخف يا زكريا .. ستلد لك ابناً وتسمية يوحنا .. ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لوقا ١ : ١٣ - ١٥) .

(د) كان الروح القدس هو المسئول عن حمل مريم بابنها المسيح :

« لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ، وُجِدَت حُبلى من الروح القدس » (١ : ١٨) .

(هـ) ولقد نزل الروح القدس على المسيح واستمر معه بعد أن عمَّده يوحنا فى ماء الأردن :

« ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً ، وإذ كان يصلى انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة » .

(لوقا ٣ : ٢١ - ٢٢)

وقال يوحنا المعمدان : « الذى أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى : الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذى يعمد بالروح القدس » .

(يوحنا ١ : ٣٣)

« فى تلك الأيام جاء يسوع .. واعتمد من يوحنا .. وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه » .

(مرقس ١ : ٩ - ١٠)

« إذ السموات قد انفتحت فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه » .

(متى ٣ : ١٦)

د فالروح القدس - روح الله - استقر على المسيح ، إذ أيّده الله به ، استمر يعمل معه طيلة رسالته .

(و) وكان الروح القدس مؤيداً للمسيح فى دعوته ومعجزاته :

« أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس ..

ورجع يسوع بقوة الروح إلى الجليل .. وكان يُعَلِّم فى مجامعهم » .

(لوقا ٤ : ١ ، ١٤ - ١٥)

« أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يُخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم .. إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله » (متى ٢ : ٢٤ - ٢٨) .

وكما باركَ الروح القدس زكريا واليصابات وابنهما يحيى وسمعان التقى ، فقد باركَ كذلك تلاميذ المسيح بعد رحيله عنهم :

« ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة ، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم .

وامتلأ الجميع من الروح القدس ، وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا » (أعمال الرسل : ٢ : ١ - ٤) .

إن الروح القدس يعمل من قبل أن يأتى المسيح ومن بعد ما جاء، لكن روح الحق - الذى انفرد يوحنا بالحديث عنه دون بقية الأناجيل وبيّن أنه إنسان مؤمن بالله يصدق الحديث - شىء آخر ، له عمل ورسالة يخاطب بها العالم لا تبدأ إلا بعد رحيل المسيح .

*

هذا .. ومن المعلوم أن إنجيل يوحنا يعتبر آخر الأناجيل كتابة بعد رفع المسيح ، فقد كُتبَ ما بين عام ١٠٠ - ١٢٥ م وأنه لم يتقيد بالتسلسل التاريخى للأحداث فاختلفَ لذلك كثيراً مع الأناجيل الأخرى .. ويعتذر بعض العلماء عن ذلك بشيخوخة يوحنا الذى كتب إنجيله ورسائله أو أملاها حسبما أسعفته ذاكرته . كذلك عُرِفَ عن يوحنا لغته الشاعرية التى تكلمت كثيراً عن الحب والمحبة وخلطت الخالق بالمخلوق ، ولكنه لم يعرف تلك المحبة عندما تكلم عن اليهود الذين ذكر اسمهم فى إنجيله أكثر من عشر مرات عن نظيره فى أى إنجيل آخر . ويتضح ذلك مما يلى :

- جعل التلاميذ من غير هذا العالم وكذلك المسيح ، فقال على لسانه :

« ليسوا من العالم كما أنى لست من العالم » (١٧ : ١٤) .

- جعل التلاميذ والمسيح والله شيئاً واحداً فقال على لسان المسيح :

« ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فىّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (١٧ : ٢١) .

*

٤ - الله وحده هو مرسل المرسلين وليس المسيح :

تقول الفقرة (٣ : أ) إن المسيح سيطلب من الله أن يرسل لمن سيرحل عنهم رسولاً آخر ، وذلك فى قوله : « أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر » (١٤: ١٦) . وفى ترجمة أخرى دقيقة فإن هذه الفقرة تُقرأ هكذا : « أتوسل إلى الآب .... » .

ثم تطوَّر ذلك فى الفقرة (٣ : ب) إلى القول : « سيرسله الآب باسمى » .

(١٤ : ٢٦)

ثم تطوَّر مرة أخرى ليكون فى الفقرة (٣ : جـ) : « الذى سأرسله أنا إليكم من الآب » (١٥ : ٢٦) ، وفى الفقرة (٣ : د) : « إن ذهبت أرسله إليكم » (١٦ : ٧) . لكن الحق الذى لا مرية فيه هو أن الله وحده هو مرسلُ المرسلين وليس المسيح . إن هذا هو ما أعلنه المسيح على رؤوس الأشهاد وبيَّنه قولاً وفعلاً من أنه ليس له من الأمر شىء ، وأن الأمر كله لله ، فقال : « **تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى** .. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى . مَن يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه . وأما مَن يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم » (يوحنا ٧ : ١٦ - ١٨) ، « إنى لم آت من نفسى ، بل ذاك أرسلنى » (يوحنا ٨ : ٤٢) .

« **الآب نفسه الذى أرسلنى يشهد لى .. أنا قد أتيتُ باسم (الله) ولستم تقبلوننى** » (يوحنا ٥ : ٣٧ ، ٤٣) .

« **إنى لم أتكلم من نفسى ، لكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم . وأنا أعلم أن وصيته هى حياة أبدية . فما أتكلم به فكما قال لى الآب هكذا أتكلم** » (يوحنا ١٢ : ٤٩) .

« **أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً .. إنى لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى** » (يوحنا ٥ : ٣٠) .

« **ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة** » (مرقس ٦ : ٤ - ٥) .

وكما عجز عن الفعل واعترف بذلك ، فقد عجز عن الإخبار بالغيب واعترف بذلك أيضاً . فحين سأله تلاميذه عن « انقضاء الدهر » ويوم القيامة ، قال لهم :

« **أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا (أنا) إلا الآب** » (مرقس ١٣ : ٣٢) .

واعترف المسيح أنه لا يملك من أمر الآخرة شيئاً . فحين « تقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنى زبدى قائلين : يا معلم ، نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا . فقال لهما : ماذا تريدان أن أفعل لكما ؟ . فقالا له : أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك فى مجدك . فقال لهما يسوع : لستما تعلمان ما تطلبان .. الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه إلا للذين أُعِد لهم » .

(مرقس ١٠ : ٣٥ - ٤٠) .

من الواضح إذن أن المسيح لا يملك من الأمر شيئًا ، وأنه لم يأت من نفسه بل الله - مالك الملك ومَن له الأمر والخلق - هو الذى أرسله . وهو الذى يحكم بين عباده يوم القيامة ويحدد مصائرهم . ومن ثَمَّ يتبين أن كل حديث عن إرسال المسيح « لروح الحق » بعد رحيله عن الدنيا ، إنما هو زعم باطل وافتراء على الحق .

*

٥ - روح الحق « ما ينطق عن الهوى » :

« لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل بكل ما يسمع يتكلم به »

(يوحنا ١٦ : ١٣)

*

٦ - روح الحق يعلِّم الناس الدين الكامل :

« فهو يُعَلِّمكم كل شىء ، ويُذَكِّركم بكل ما قلته لكم ... وهو يرشدكم إلى جميع الحق » (يوحنا ١٤ : ٢٦ ، ١٦ : ١٣) .

*

٧ - ما جاء به روح الحق باق إلى الأبد :

إن لغة الكتاب (المقدس) تعتبر الحديث عن الأنبياء مكافئاً صحيحاً للحديث عن الكتب التى جاء بها هؤلاء الأنبياء . ومن أمثلة ذلك ما ذكره لوقا فى قصة الغنى الذى استمتع بالدنيا وكانت عاقبته الجحيم ، ولعازر الفقير الذى كانت عاقبته النعيم فى حضن إبراهيم . فحين طلب ذلك الغنى المعذب إلى أبينا إبراهيم أن يرسل لعازر من الأموات لينذر أهل بيته ، « حتى يشهد لهم لكيلا

يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا . **قال له إبراهيم : عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم .**

فقال : لا يا أبى إبراهيم . بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون . **فقال له : إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء** ، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون » (لوقا ١٦ : ٢٨ - ٣١) .

لقد مات موسى والأنبياء وتركوا كتباً هى التى أشار إليها أبونا إبراهيم ، وبيَّن أن الحديث عنها هو بمثابة الحديث عنهم . وكان ذلك ما أكده لوقا مرة أخرى فى قوله : « ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به فى جميع الكتب » (لوقا ٢٤ : ٢٧) .

فعلى ضوء ذلك يُفهم معنى قول المسيح فيما يجىء به الرسول الآتى بعده حين أعلن لتلاميذه أنه : « يمكث معكم إلى الأبد » (يوحنا ١٤ : ١٦) . أن تلاميذ المسيح الذين قال لهم هذا الكلام لم يمكثوا إلى الأبد ، لكنهم ماتوا أو قُتِلوا - جميعاً - منذ تسعة عشر قرناً . فهذا القول لا يصمد للتأويل حرفياً ولكنه يعنى أن ما يأتى به « روح الحق » إلى الأجيال المتلاحقة سيبقى إلى يوم الدين .

*

وخلاصة القول : إن دراسة هذه النبوءة على ضوء ما جاء فى الكتاب (المقدس) وما نسبته الأناجيل للمسيح من أقوال يقطع بأن **الرسول « روح الحق » الآتى بعد المسيح إنما هو : إنسان ، وأنه غير روح القدس الذى لا يرتبط مجيئه برحيل المسيح ، وأن الله وحده هو مرسل المرسلين وليس المسيح ، وأن هذا الرسول « ما ينطق عن الهوى » ، وأنه يعلِّم الناس الدين الكامل ، وأن ما جاء به وحياً من الله باق أبد الدهر .**

إن هذا يقود إلى التسليم بأن هذه النبوءة تنطبق جملة وتفصيلاً على **محمد بن عبد الله** ، **رسول الله إلى الناس جميعاً** ، الذى أكمل الله به الدين وختم به النبوة ، فقال وقوله الحق : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) .

وتكفل الله بحفظ كتابه – القرآن العظيم – فقال فى شأنه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩)

* * *

اسم الرسول الآتى بعد المسيح

ذكرنا سلفاً أن التراجم المتداولة لإنجيل يوحنا اتفقت على اسمه الثانى وهو : « روح الحق » ، بينما اختلفت فى اسمه الأول لاختلاف فهمهم لمعنى كلمة يونانية قد يسمعها شخص غير مدقق فيكتبها : باراقليط (Paraclet) ، مما اضطر التراجم الفرنسية الحديثة أن تنقلها صوتياً على هذه الصورة .

ونريد الآن أن نتعرف على حقيقة هذا الاسم الأول الذى اختلفوا فيه .

*

فى دراسة دينية ولغوية رصينة قام بها عالم اللاهوت المسيحى (سابقاً) **ديفيد بنجامين كلدانى** ، وجاءت ضمن دراسات وبحوث أخرى نشرها فى كتابه : « **محمد فى الكتاب المقدس** » [1] ، بعد أن اهتدى إلى الإسلام وتسمى « **عبد الأحد داود** » – **نجد فصلاً عن البارقليط** ، يقول فيه : « أما الإنجيل الرابع فهو مثل أى كتاب أو سفر آخر فى العهد الجديد ، فقد كُتِبَ باليونانية وليس بالآرامية التى كانت اللغة الوطنية لعيسى وتلاميذه . وبالتالى فإنه تواجهنا مرة أخرى نفس الصعوبة التى لقيناها عندما كنا نبحث فى ' يودوكيا ' الخاصة بمار لوقا ، وهذه الصعوبة تتلخص فى السؤال : ما هى الكلمة أو الاسم الذى استعمله يسوع فى لغته الأصلية والتى نقلها الإنجيل

---

(١) ترجمة فهمى شما – دار الضيافة للنشر والتوزيع – الأردن / عمان ١٩٨٥

الرابع بلفظ : « البرقليط » أو « الفرقليط » ثم تُرْجِمَت إلى المُعَزِّى فى جميع نسخ ذلك الانجيل ؟ ...

إن الفرقليط لا تعنى المُعَزِّى أو المحامى ، فى الواقع ، وهى ليست كلمة كلاسيكية بالمرة . والتهجئة للكلمة هى (Paraklytos) ومعناها فى الأدبيات اليونانية : 'شخص يدعى للمساعدة ، محام ، وسيط' .. ولا حاجة لأن يدَّعى المرء أنه عالِم يونانى ليعرف أن الكلمة اليونانية التى ترادف المُعَزِّى ليست : باراكليتوس (Paraclytos) بل باراكالون (Paracalon) وثمة كلمة يونانية أخرى مرادفة لكلمة : مُعَزِّى ، وهى : باريجوريتس (Parygorytys) ، بمعنى : أنا أُعَزِّى . أما بالنسبة للمعنى الآخر لكلمة : وسيط أو محامى - الذى يتضمنه الكلمة الكنسية : بارقليط (Paraclet) فإننى أصر ثانية على أن : باراكالون (Paracalon) وليس : باراكليتوس (Paraclytos) ، وهى الكلمة التى تعطى معنى مشابهاً . واللَّفظة اليونانية المرادفة لكلمة : محامى (Advocate) ، هى (Sanegorus) ولكلمة : وسيط أو شفيع ، هى : (Meditea) ...

إن الاعتقاد بأن موت عيسى على الصليب (حسب زعم النصارى) قد فدى المؤمنين من لعنة الخطيئة الأصلية ، وأن روحه وبركته وحضوره فى القربان المقدس سيبقى معهم إلى الأبد ، **هذا الاعتقاد تركهم دون حاجة إلى عزاء أو إلى مجىء مُعَزٍّ .**

ومن ناحية أخرى فإنهم إذا كانوا بحاجة إلى مُعَزٍّ كهذا فإن جميع الادعاءات والمزاعم النصرانية حول تضحية المسيح وتحمله آلام الصلب تتهافت وتصبح باطلة .

والواقع أن لغة الأناجيل والرسائل تدل بوضوح على أن العود الثانى لعيسى فوق السحاب كان وشيكاً [1] . (متى ١٦ : ٢٨ ، مرقس ٩ : ١ ، لوقا ٩ : ٢٧ ، تسالونيكى الأولى ٤ : ١٥ - ١٧) ...

(١) تؤكد الأناجيل ورسائل التلاميذ وبولس أن المسيح تنبأ بعودته سريعاً إلى الأرض بعد أن ينهدم النظام الكونى « والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع » وأن ذلك سوف يحدث قبل أن يموت الجيل الذى عاصره (٢٤ : ٣ ، ٢٩ : ٣٤) ، ومن ثمَّ فليسوا فى حاجة إلى معز . إنهم فى حاجة إلى رسول يعلمهم الحق بعد أن أثبت الواقع استحالة تحقيق تلك النبوءة التى ألحقت ظلماً بالمسيح .

إن البرقليطوس المذكور فى إنجيل القديس يوحنا لا يعنى ولا يمكن أن يعنى : المُعَزّى أو المحامى ، وإن الكلمة صورة مشوَّهة من كلمة أخرى هى : بيرقليطوس (Periqlytos) .

إن كلمة : بيرقليطوس ، تعنى من الناحية اللُّغوية البحتة : ' الأمجد ، والأشهر ، والمستحق للمديح ' . وإننى أتناول مرجعاً هو قاموس إسكندر ، الاغريقى / الفرنسى ، حيث يفسر كلمة (Periqleitos) فيقول :

' Qu' on peut entendre de tous les côtés ; qu'il

est facile à entendre. Très celebre ; = Periqleitos,

très célèbre, illustre, glorieux ; = Periqleyos ,

très célèbre, illustre, glorieux, = Kleos, glorire,

renommée, célébrité ' .

هذا الاسم المركب مكون من : المقطع الأول (peri) ، والمقطع الأخير (Kleotis) وهذا يُشتق من التمجيد أو الثناء . والاسم الذى أكتبه بالحروف الإنجليزية ، وهو : (Periqleitos) أو (Periqlytos) ، **يعنى بالضبط ما يعنيه اسم أحمد باللُّغة العربية ...**

إن التنزيل القرآنى القائل بأن عيسى ابن مريم أعلن لبنى إسرائيل أنه كان ﴿ مُبَشِّراً برَسُولٍ يأتى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أحْمَدُ ﴾ [1] واحد من أقوى البراهين على أن محمداً كَانَ نَبياً وأن القرآن تنزيل إلٰهى فعلاً ، إذ لم يكن فى وسعه أبداً أن يعرف أن كلمة البرقليط كانت تعنى « أحمد » إلا من خلال الوحى والتنزيل الإلٰهى . وحجة القرآن قاطعة ونهائية لأن الدلالة الحرفية للاسم اليونانى تعادل بالدقة ودون شك كلمتى : أحمد ، ومحمد .. ومن العلامات الرئيسية للبرقليط : روح الحق ، عندما يأتى أنه سوف يُبَكِّت العالم على الخطية (يوحنا ١٦ : ٨) . ولا يوجد عبد آخر من عباد الله ، سواء أكان ملكاً مثل

(١) الصف : ٦

داود وسليمان ، أو نبياً مثل إبراهيم وموسى ، بلغ بهذا التبكيت إلى مداه بتصميم وحماس وشجاعة ، كما فعل محمد . فكل خرق للشريعة أو القانون إثم وخطيئة ، ولكن الوثنية هى أم الخطايا وأصلها [1] . فنحن نأثم فى حق الله إذا أحببنا شيئاً أكثر من حبنا إياه ، ولكن عبادة أى شخص أو كائن آخر إلى جانب الله ، تعتبر كفراً .. إن جميع العاملين لله قاموا بإنزال العقوبة على مرتكبى الخطايا من جيرانهم وشعوبهم ، ولكن لم يفعلوا ذلك على نطاق العالم كله كما فعل محمد ، إذ لم يقتصر عمله فقط على اقتلاع الوثنية من شبه الجزيرة العربية أثناء حياته ، بل قام بإرسال مبعوثين إلى كسرى أبرويز وهرقل ، وهما حاكمان لأعظم امبراطوريتين (فارس وروما) ، وإلى ملك أثيوبيا ، وحاكم مصر ، والعديد من الملوك والأمراء الآخرين ، يدعوهم إلى اعتناق دين الإسلام ونبذ الكفر والعقائد الباطلة .

وبدأ هذا التبكيت من محمد بتبليغ كلمة الله كما تلقاها ، أى بترتيل آيات من القرآن ، ثم بالوعظ والتعليم وممارسة الدين الحقيقى . ولكن عندما عارضته قوى الظلام والكفر بالسلاح ، استل سيفه وعاقب العدو الكافر . وكان ذلك تنفيذا لأمر الله (سفر دانيال : ٧) . وقد منح الله لمحمد القوة والسلطان لتأسيس مملكة الله (الملكوت الموعود) ، وليصبح أول أمير وقائد عام لها ، تحت سلطة ملك الملوك ورب الأرباب (الله) ..

والعلامة الأخيرة ، وليست أقل العلامات قيمة للبرقليط هى أنه :
« لا يتكلم من نفسه ، بل بكل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » .
(يوحنا ١٦ : ١٣)

ولا يوجد شىء أو كلمة أو تعليق من محمد وأصحابه الطاهرين ضمن نصوص القرآن الكريم . فكل محتوياته من كلام الله المُنَزّل ، إذ كان محمد ينطق بكلمة الله كما سمعها من جبريل ، وكانت تُدَوَّن على يد كَتَبَة الوحى الأمناء . وكلمات الرسول وأقواله وتعاليمه على قداستها ورفعة قدرها ليست من كلام الله ، ولذلك فهى تدعى بالأحاديث .

---

(١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء : ٤٨ ، ١١٦) .

إذن ، أليس هو الفرقليط الحقيقى ، حتى بهذا الوصف ؟ وهل باستطاعتكم أن تبيّنوا شخصاً آخر إلى جانب أحمد ، لديه كل هذه الصفات المادية والعملية ، وتلك العلامات والمميزات التى للفرقليط ؟ إنكم لا تستطيعون ! .... [1] .

*

ذلك بعض ما جاء فى دراسة هذا العالم ، والقس السابق ، دافيد بنجامين الكلدانى ، وانتهت به إلى قبول الإسلام ديناً حقاً ، قائماً على العلم والبرهان .
ولقد كان تعليقه على نبوءة المسيح التى ذكرها كاتب إنجيل يوحنا بعد ما لحق بها من تحريف ، أن صيغتها الحالية التى تقول على لسان المسيح : « أنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد » (١٤ : ١٦) ، أنها تحتاج إلى تصحيح .

فهو يقول : « إذا أردنا أن نجد المعنى الحقيقى لهذه الكلمات المسروقة أو المحرّفة على الصورة التالية :

« سوف أذهب إلى الآب . وسيرسل لكم رسولاً سيكون اسمه البرقليطوس (أحمد) لكى يبقى معكم إلى الأبد . » وبالكلمات التى أضيفت والتى تحتها خط ، يعود تواضع عيسى الذى سُلِبَ منه » [2] .

ولقد سبق أن برهنا على أن الحديث عن النبى يمكن أن يعنى الحديث عن كتاب الله الذى جاء به إلى الناس .

*

بقيت إضافة لا بد منها ، نعرضها باختصار فيما يلى :

(أ) صدق تنبؤات الرسول :

نطق محمد رسول الله بالقرآن كلام الله ، وكان مما جاء فيه تنبؤات عن أحداث المستقبل ، سواء ما تعلق بالرسالة والرسول ، أو بأحداث تخص القُوَى الكبرى فى العالَم آنذاك .

---

(١) محمد فى الكتاب المقدس : عبد الأحد داود . ص ٢٠٢ - ٢٢٩

(٢) المرجع السابق . ص ٢١٩

– فلقد تنبأ القرآن بحفظ شخص الرسول من مؤامرات الناس ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

– وتنبأ القرآن بانتصار الإسلام ونبيه ، فنزلت آياته والمسلمون آنذاك يعانون الضعف والتعذيب والاضطهاد – تقول : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٤ – ٤٥) .

– وتنبأ القرآن بانتصار الروم على الفُرس رغم ما نزل بهم آنذاك من هزائم منكرة ، إذ احتلت جيوش فارس : الشام ومصر وبلاد الأناضول ، وتقدمت شمالاً حتى بلغت البوسفور .

وفى تلك الأثناء نزلت آيات القرآن لتعلن للناس كافة انتصار الروم « فى بضع سنين » ، ولتبقى إلى الآن تُتْلَى صباح مساء ، وتُعرف باسم سورة الروم ، التى تُستَفتح بقول الله : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(الروم : ١ – ٦)

إن هذا يكفى للتأكيد على أن الرسول الآتى بعد المسيح هو روح الحق ، محمد الذى نزل عليه القرآن ليُخبر حقاً وصدقاً بالغيب ، والذى قال فى شأنه المسيح : « ويخبركم بأمور آتية » (١٦ : ١٣) .

(ب) تحريفات كَتَبَة الأسفار وأخطاؤهم :

لقد بيَّنا فى دراسة سابقة ما انتهى إليه علماء الكتاب (المقدس) من تعرض نصوصه للتحريف والتبديل سواء عن قصد من كَتَبتها ، أو خطأ منهم بسبب سوء الاستنساخ نتيجة لضعف السمع أو البصر أو كليهما ... إلخ [١] . ولقد بيَّنت هذه الدراسة أن صفة « المعزِّى » لا تتفق وواقع الحال بعد المسيح .

(١) راجع كتاب : اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس .

وأن الغموض الذى لحق بمعناها فى اليونانية إنما يرجع إلى تشابه النطق الصوتى لكلمتين يونانيتين نكتبهما كالآتى :

باليونانية :	περlkλν Tos	παρkλη Tos
بالإنجليزية :	Periklytos	Parakletos
بالعربية :	بيريقليطوس	باراقليطوس
المعنى :	رجل الحمد . أحمد	محام . مُعَزٍّ (حسب الترجمة الشائعة)

لقد تعرضت أسفار الكتاب (المقدس) كثيراً لهذا النوع من الأخطاء . وتعطينا « دائرة المعارف الأمريكية » أمثلة ملموسة لذلك تتطلب إعادة تصحيح بعض العبارات التى لا يزال الناس يقرؤونها إلى اليوم فى التراجم المتداولة دون أن يدركوا لها معنى ، لأنها لا يمكن أن تعطى معنى مقبولاً على الصورة التى لا تزال عليها حتى الآن . وفى هذا تقول :

« وثمة نوع آخر من الأخطاء نجده فى المزمور ٤٩ : ١١ فالجزء الأول من الفقرة العِبرية يمكن ترجمته إلى الإنجليزية كالآتى :

Their inwardness (qirbam) is their homes forever, their dwelling places to all generations .

واضح أن هذا الكلام لا معنى له . وقد تُرْجِم فى نسخة الملك چيمس بتصرف - بعد إضافة الكلمات التى تحتها خط كالآتى :

Their in ward thought is that their houses shall continue forever, and their dwelling places to all generations .

وهذه الكلمات المائلة غير موجودة فى النص العِبرى على الإطلاق » .

وفى الترجمة العربية لنسخة البروتستانت تُقرأ هذه الفقرة كالآتى :

« باطنهم أن بيوتهم إلى الأبد مساكنهم إلى دور فدور »

(المزمور ٤٩)

وتستطرد دائرة المعارف الأمريكية فتقول : « لكننا إذا رجعنا إلى النسخة السبعينية والنسخة السوريانية والنسخة الأرامية ، لوجدنا أن هذه الفقرة يمكن ترجمتها إلى الإنجليزية كالآتى :

Their graves (qibram) are their homes forever, their dwelling places to all generations .

وواضح أن الخطأ النسخى نشأ عن تبادل الحرفين b & r كل مكان الآخر ، حيث تحولت الكلمة التى كُتبت أصلاً (qibram) إلى كلمة (qirbam) » [1] .

ويمكن ترجمة الفقرة الإنجليزية المذكور آنفاً إلى العربية كالآتى :

« **قبورهم هى بيوتهم ومساكنهم إلى دور فدور** » . ولا شك أن هذا يعطى معنى مفهوماً غير الذى تعطيه الفقرة ١١ من المزمور ٤٩ .

*

« ولقد أكد اكتشاف وثائق البحر الميت (عام ١٩٤٧) ضرورة إدخال بعض التغييرات على النسخة العبرية الحديثة كما فى سفر أشعياء ٤٩ : ٢٤ حيث تستبدل كلمة (البار) المذكورة بها إلى كلمة (الجبار) التى تتفق عليها النسخ السبعينية والسوريانية واللاتينية (وهى تُقرأ فى الترجمة العربية لنسخة البروتستانت هكذا :

« هل تسلب من الجبار غنيمة وهل يفلت سبى المنصور » .

ويرجح أن يكون خطأ الكاتب فى النسخة العبرية الحديثة بسبب تشابه كلمتى البار والجبار .

كذلك يرى أغلب العلماء ضرورة تهذيب فقرة من سفر عاموس ٦ : ١٢ والتى تُقرأ هكذا :

« هل تركض الخيل على الصخر أو **يحرث عليه بالبقر** » - إذ أن عدم التوافق الموجود فى هذه الفقرة يمكن إرجاعه إلى خطأ من الكاتب الإسرائيلى

---

(١) [الأمريكية : جـ ٣ - ص ٦٢٢] .

بسبب ضم كلمتين عبريتين كان يجب فصلهما ، وعلى هذا الأساس تكون قراءة النص بعد معالجته كالآتى :

« هل تركض الخيل على الصخر أو **تحرث الثيران فى البحر** » [1] .

*

ليس عجيباً إذن ، أن تتحوّل كلمة : أحمد ، أو رجل الحمد ، إلى : المُعَزّى – إذا افترضنا حسن النية – بسبب سوء استنساخ الكلمة اليونانية الأصلية .

*

(جـ) المسيح وأسماء الناس :

تُبيِّن الأناجيل أن المسيح اعتاد أن يُطلق اسماً آخر على بعض أحبابه ، يرى فيه دلالة صادقة تميز شخصية كل منهم . فلقد فعل ذلك مع بعض تلاميذه الإثنى عشر ، إذ « **جعل لسمعان اسم بطرس ، ويعقوب ابن زبدى ويوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم : بوانرجس ، أى ابنى الرعد** » .

(مرقس ٣ : ١٦ – ١٧)

ومن هنا كان إطلاق المسيح اسم : أحمد – بصيغة أفعل التفضيل هذه – على محمد رسول الله ، الآتى إلى الناس من بعده ، متفقاً تماماً وما عُرِفَ عنه . وهو برهان واضح ، يضاف إلى البراهين الأُخرى ، التى تؤكد انطباق النبوّة التى نطق بها المسيح فى إنجيل يوحنا على محمد الرسول روح الحق ، إذ تقول إنه «لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » .

لقد عُرِفَ بين الناس ، قبل النبوّة ، باسم : محمد ، وعُرِفَ بينهم بعد النبوّة ، باسم : محمد ، وذكره القرآن بهذا الاسم أربع مرات . **وعلى هذا فإن المنطق البسيط يقول إنه لو كان القرآن من عند محمد لكان أولى به أن يذكر فى تبشير المسيح به – الذى ذكره القرآن – اسم : محمد ، وليس اسم : أحمد .**

---

(١) المرجع السابق – ص ٦٢٢

لكنه النبي الصادق الذى ﴿ مَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَىٰ* عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَىٰ ﴾ (النجم : ٣ - ٥) .

ولهذا جاءت بشارة المسيح فى القرآن هكذا :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف : ٦) .

* *

لقد كانت هذه الإضافات براهين إضافية للتأكيد على تمام انطباق نبوءة المسيح - التى ذكرها إنجيل يوحنا - على محمد رسول الله .

* * *

أما بعد ..

إن مسيحية اليوم التى تخلط بين الله والمسيح وتقوم على التثليث تعتبر أكبر الديانات اتباعاً ، فهى تمثل العالم الذى يتعرض لتبكيت شديد فى القرآن الذى جاء به محمد يقول :

﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْاْ لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِى الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً ﴾ (مريم : ٨٨ - ٩٥) .

لقد جاء القرآن ليُنذر : ﴿ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (الكهف : ٤ - ٥) .

* * *

حقاً ، لقد بَشَّر المسيح بنبى الإسلام فقال :

﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف : ٦) .

ولقد ترجم القسيس أوسكان الأرمنى سفر أشعياء إلى اللُّغة الأرمنية وطُبِعَت ترجمته عام ١٧٣٣ وقد جاء فى الإصحاح الثانى والأربعين منه هذه الفقرة :

« سبِّحوا اللّه تسبيحاً جديداً ، وأثر سلطنة على ظهره ، واسمه أحمد » [1].

وحين جاء نبى الإسلام كانت المسيحية قد صارت دين الإمبراطورية الرومانية ، وكان المسيحيون أُمماً كثيرة تؤمن باسم المسيح ، لكنها تختلف فيه اختلافاً كبيراً ، وصل إلى حد القتال المسلح وإراقة الدماء ورمى كل طائفة مَن يخالفها المعتقد بالكفر والهرطقة .

ولقد تعرَّض هؤلاء للتبكيت والنذير والوعيد بعد أن جاءهم فيه القول الفصل والقصص الحق :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل : ٦٤) .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ *

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ *

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ *

---

(١) من كتاب « خلاصة سيف المسلمين » - تأليف حيدر على القرشى ، مطبعة أنتونى بورتولى ، ص ٦٣ ، ٦٤

قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٥٩ - ٦٤) .

والآن نقول : إن خلاصة بشارات العهدين - القديم والجديد - بنبى الإسلام نقرؤها واضحة فى القرآن بعد أن رأينا كيف اتفقت عليها الكتب المقدسة الثلاثة وهى التوراة والإنجيل والقرآن .

يقول الحق الرحيم : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ *

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

(الأعراف : ١٥٦ - ١٥٨)

* * *

ثالثاً - بشارات أسفار البراهمة

لقد تميَّز الباحثون فى العقائد والإلهيات من مسلمى شبه القارة الهندية ، بالأصالة والعمق والدقة والصبر الجميل . ونخص بالذكر منهم رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى مؤلف الكتاب القيم « إظهار الحق » الذى يُعتبر مرجع كل العصور فى الحوار المسيحى الإسلامى ، ثم أبو الحسن الندوى ومؤلَّفه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، ووحيد الدين خان مؤلف « الإسلام يتحدى » - ومولانا أبو الكلام آزاد فى بحثه عن « ذى القرنين » ، ثم مولانا عبد الحق

فديارتى مؤلِّف كتاب « محمد فى الأسفار الدينية العالَمية » وفى حقه يقول عباس محمود العقاد : لقد استفاد المؤلف « فى مقاراناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللُّغات الأوروبية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمَّم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحَدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية » [1] .

*

يقول عبد الحق : « إن اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثانية من الجزء الثانى ونصها :

إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قُبِسَ منه النور كما يُقبَس من الشمس » وإن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الآثار فافيدا حيث يسميها الكتاب : بيت الملائكة .

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبى محمداً مذكور بوصفه الذى يعنى **الحمد الكثير والسمعة البعيدة** » [2] .

*   *   *

رابعاً – بشارات أسفار المجوسية

يوجد فى كتب زرادشت التى اشتُهِرَت باسم الكتب المجوسية نبوءة فى كتاب زندافستا عن « **رسول يُوصَف بأنه رحمة للعالَمين (سوشيانت) ، ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب (إنجرامينيا) ، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفواً أحد (هيچ جيز باونمار)** وليس

(١) مطلع النور : ص ١٢

(٢) المرجع السابق : ص ١٢ ، ١٣

له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

« (جزآخاز وإنجام وأنباز ودشمن ومانندويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاى سوى وتن أسا وتنانى ورنك ويوى أست) » [1] .

* *

● رسول العالمين :

تُبيِّن دقة البناء القرآنى إمكانية اختلاف معنى الكلمة الواحدة حين تختلف صورتها من النكرة إلى المعرفة فهناك فرق بين : صاعقة والصاعقة ومطر والمطر، وماء والماء [2] .

وعلى سبيل المثال فإن كلمة « الماء » فى القرآن الكريم تعنى دائماً الماء الذى ينزل من السماء فتقوم به حياة الكائن الحى من نبات وحيوان وإنسان ، وهو الماء الذى يتكوَّن من اتحاد عنصرى الإيدروچين والأوكسچين اتحاداً كيميائياً بنسبة وزنية ثابتة .

ومن أمثلة ذلك قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه، حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف : ٥٧)

أما إذا استُخْدِمت كلمة « ماء » فإنها قد تعنى « الماء » الطبيعى كما فى قوله :

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً * لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً ﴾ (الفرقان : ٤٨ - ٤٩) .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣

(٢) راجع كتاب المؤلف : العلوم الذرِّية الحديثة فى التراث الإسلامى - ص ١٣٨

كما أن كلمة « ماء » قد تعنى شيئاً آخر غير الماء الطبيعى كما فى قوله :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (الطارق : ٥ - ٦) .

فهذا الذى قيل إنه ماء هو جسم سائل يختلط أمره بالماء ويدخل فيه الماء كأحد مكوِّناته إلا أنه شىء مختلف عن الماء الطبيعى .

كذلك يكون الحال مع كلمة « الكتاب » وما يُضاف إليها أو يتعلق بها . فمن المعلوم أن القرآن الكريم قد استخدم لفظ « أهل الكتاب » ليعنى اليهود والنصارى أحدهما أو كليهما .

فهو يعنى اليهود فى قوله : ﴿ وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

(آل عمران : ٧٢)

وهو يعنى النصارى فى قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلا الحَقَّ ، إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ، فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُواْ ثَلَاثَةٌ ، انْتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

(النساء : ١٧١)

وهو يعنى اليهود والنصارى فى قوله : ﴿ لَيْسُواْ سَوَاءً ، مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ ، وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران : ١١٣ - ١١٤) .

إن هذا كله يعنى أنه كلما جاءت كلمة « الكتاب » مضافة فإنها لا تشير بالضرورة إلى أهل الكتاب .

ولقد حدث الخطأ ووقع المحظور حين ظن بعض المفسِّرين ذلك فى تفسير قوله تعالى فى آخر سورة الرعد :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾ (الرعد : ٤٣) .

يقول ابن كثير فى تفسيره : « قيل : نزلت فى عبد الله بن سلام . قاله مجاهد ، **وهذا القول غريب** لأن هذه الآية مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم النبى – صلى الله عليه وسلم – المدينة .

وكان ابن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول : هى مكية ..

والصحيح فى هذا أن ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ اسم جنس ».

لا شك أن اعتراض ابن جبير على القول بأن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن سلام إنما هو اعتراض منطقى لأنه قائم على البرهان .

لقد أصبح واضحاً لنا الآن أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾ لا يقتصر فقط على « أهل الكتاب » إنما يعنى كذلك مَن عندهُ علم كتب تسربت إليها نبوءات وبشارات تناقلها الناس عن أنبياء الله ورسله الكثيرين ومنهم الذين عاشوا على هذه الأرض ولم ندر من أمرهم شيئاً لأنهم ممن قال الله فيهم :

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ .

(النساء : ١٦٤)

لذلك وجدنا بشارات النبى فى أسفار البراهمة والمجوس بجانب أسفار اليهود والمسيحيين ، وما ذلك إلا لأنه رسول الله إلى هذا العالم ، فكان أن ارتبط به العالم على اختلاف ملله ونحله ، وهتف باسمه ووصفه قبل أن يراه ، وصدق فيه قول الحق : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

* * *

الرسول فى القرآن

● **تمهيد :**

رسل الله بَشر وُلدوا جميعاً من نساء جئن من ذُرِّية آدم ، اصطفاهم الله واختصهم برسالاته ، فهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٦ - ٢٨) .

وبين « أمر الله » والعمل فى خدمة رسالاته حمل المرسلون أثقالاً وتعرَّضوا لضغوط عالية ومواقف حرجة وقاسوا محناً وآلاماً وكانت حياتهم جهاداً خالصاً فى سبيل الله .

*

ومن المسَلّمات فى واقع الحياة أن « الناس معادن » تختلف خواصهم كاختلاف خواص المعادن والخامات الطبيعية فمنها المتميز النادر كالذهب ومنها الرخيص الوفير كالتراب ، ومنها الصلد الشديد كالحديد ومنها الطرى اللّعوب كالزئبق ، ومنها ... ومنها ...

ومن المسَلّمات كذلك أن الناس مواهب يختلفون فى حظوظهم منها كاختلافهم فى الأشكال والألوان . فهذا له يد فنان بطبعه وذاك شاعر بالسليقة وثالث ذو عقليه رياضية .... وهكذا .

بعد ذلك يأتى شىء من التعليم والتهذيب - قلّ أو كثُرَ - ليصقل تلك المواهب ويرتقى بها ، فتثبت قدم كل ذى موهبة فيما حظى به .

وفى مجال الرسالة الإلٰهية لا نجد عجباً يخالف واقع الحياة أو طبيعة الأشياء، فالرسل هم أولاً وأخيراً بَشَرٌ من الناس إلَّا أنهم صُنعوا على عين « الحق » فكانوا أهلاً لرسالات الله ، و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

(الأنعام : ١٢٤)

*

وترينا دراسة أحوال المرسلين – وخاصة أصحاب الرسالات الكبرى : موسى وعيسى ومحمد – أن الأمور لم تجر دائماً وفق مشيئتهم ، فلم يكن لهم « من الأمر شيء » لأن « الأمر كله لله » . وما كانوا بين يديه – سبحانه – أكثر من عباد مخلصين .

ومن هنا كان الصراع العنيف وكانت المعارك الطاحنة فى داخل تلك النفوس البَشرية العالية قبل أن تكون فى خارجها .

ومن المؤكد أن رسل الله – فيما يتلقونه من وحى – ليسوا أكثر من « أجهزة استقبال » تامة الأمانة والدقة والكفاءة ، لا بد أن تبلغ نسبتها العددية ١٠٠٪ .

وفيما عدا ذلك فهم مجتهدون قد يتعرَّضون لما يتعرَّض له البَشر من هفوات ومآخذ ، إلا أن كونهم أفضل البَشر جعل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وفق ميزان « الحق » يندرج تحت الحكمة التى تعنى أن من حسنات الإبرار ما قد يُحسب سيئات للمقرَّبين ، باعتبار أن المقرَّبين أفضل من الأبرار ، وبالتالى كانت موازينهم أدق وحسابهم أصعب .

*

وإذا كنا نعهد فى سيرة العظماء من البَشر – رغم اختلاف مقاييس العظمة – كأن « القدر » يعدهم لما صار إليهم أمرهم ، فمن باب أولى أن تكون عناية القدر برسل الله ، قبل أن تأتيهم رسالات السماء .

لقد كان أول وحى إلى النبى أرميا ينبئه أنه فى رعاية الله قبل أن يُخلق :

« كانت كلمة الرب إلىَّ قائلاً : قبلما صوَّرتُكَ فى البطن عرفتُكْ ، وقبلما خرجتَ من الرحم قدسُتكْ : جعلتك نبياً للشعوب » .

وكذلك كانت رعاية الله مع المسيح ، إذ أوحى إلى يوسف خطيب مريم أمه أن يهرب به إلى مصر خوفاً من بطش هيرودس .

« إذا ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلاً : قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه . فقام وأخذ الصبى وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر » .

وكانت عين الله على رسوله محمد قبل أن يكون وبعد أن كان . فلقد حدث فى طفولته ما يرويه : « لقد رأيتُنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ..

فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمنى لاكم .. ما أراه لكمة ..وجيعة ، ثم قال : شُدَّ عليك إزارك ، فأخذته وشددته علىَّ .. ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ .. من بين أصحابى » [1] .

ولقد حدث فى صباه أن استرعى انتباهة عُرسٌ بمكة ، تجمَّع القوم فيه للَّهو واللَّعب ، فذهب إليه كما يذهب الصبية للمشاهدة والسرور . لكنه لم يلبث أن غلبه النوم ، فانتحى خلف الدار ونام حتى أيقظته شمس الصباح .

* *

● قبل الرسالة :

تحقق خبرات الحياة صدق القول بأن « مَن شَبَّ على شىء ، شابَ عليـه » وأن « الإنسان أسير العادة » وما إلى ذلك من الأمثال السائرة والقواعد السلوكية التى لم تعد فى حاجة إلى برهان بعد أن صار الواقع لها خير برهان .

ذلك أن الإنسان يسهل تشكيله وتهذيبه منذ طفولته إلى نحو العشرين عاماً، وتبدأ الصعوبة فى التغيير إلى الثلاثين عاماً ، وتكاد تبلغ المستحيلات عند الأربعين عاماً .

---

(١) تاريخ الطبرى : جـ ٢ - ص ٢٠١

فإذا كان رسل الله قد اختيروا رجالاً قاربوا الأربعين من أعمارهم أو تخطوها ، فإن هذا يعنى أنهم كانوا أصلاً مؤهلين بطبيعتهم البَشرية وما درجوا عليه من كريم الخِصال وتميز المواهب ، لكى يكونوا رسل الله إلى خلقه .

فحين جاء أول وحى لإبراهيم أبى الأنبياء « كان (عمره) خمساً وسبعين سنة » .

وحين بدأت رسالة موسى « كان موسى ابن ثمانين سنة » .

وحين بدأت رسالة المسيح « كان له نحو ثلاثين سنة » .

على أن هناك حالات خاصة من الأنبياء والمرسلين مثل أرميا الذى جاءه الوحى وهو ولد صغير :

« قلت : آه يا سيد الرب ، إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد . فقال الرب لى : لا تقل إنى ولد ، لأنى إلى كل من أُرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به » .

وكذلك يحيى بن زكريا الذى قال عنه « الحق » : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ . (مريم : ١٢)

ومحمد رسول الله ليس « بدعاً من الرسل » فقد جاءه الوحى وهو فى الأربعين من عمره وقد عُرِفَت أخلاقه وتميزت سِماته لكل مَن خالطه وعرفه .

ولذلك نجد « الحق » يقول فى وصف الرسول مبكراً فى صدر سورة القلم التى تعتبر ثانى سورة نزلت من القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

*

لقد كان خُلُق محمد هو أول البراهين على صدق ما جاء به ، ورصيده الهائل الذى أَعَدَّ بقدر الله لخدمة الرسالة .

فحين فاجئه الحق وهو فى غار حِراء ونزل عليه المَلك بأول سورة « اقرأ » ثم انصرف عنه ، رجع رسول الله إلى خديجة يرجف بها فؤاده ، حتى إذا دخل عليها قال : زَمِّلُونى ، زَمِّلُونى . فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة :

« أى خديجة ، مالى ؟ لقد خشيتُ على نفسى » . ثم أخبرها الخبر ، فقالت خديجة : « أبْشِرْ ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرَحِم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتُقرى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق » .

لقد كانت أخلاق محمد - التى خبرتها خديجة عن كثب - وما اشتهر به بين الناس من جميل المحامد والسجايا ، هى حيثيات الحكم التى استندت إليها فى التأكيد على صدق ما جاءه ، وأنه « الحق » من الله .

ولقد حدَّث ابن عباس قال : « لما أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [١] ، أتى النبى ﷺ - الصفا ، فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه .

فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله .

فقال رسول الله - ﷺ - : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى .. أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقِيَ » ؟

قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : « إنى نذير لكم بَيْنَ يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب (عمه) : تباً لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ [٢] .

بقى أن نلاحظ فى قول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٣] . أن كلمة « على » للاستعلاء ، وأن الخُلُق العظيم خاصية من خلقته الطبيعية وفطرة فُطِرَ عليها ، فدلَّ ذلك على أن الرسول فى هذا المجال كالسيد بالنسبة لمن ساد عليه .

*

واستمر خُلُق الرسول يُستخدم كواحد من خير البراهين على صدق رسالته ، فكانت آيات القرآن تشير إلى ذلك بين الحين والحين حتى تُذَكِّر مَن جَحد نبوَّته

---

(١) الشعراء : ٢١٤

(٢) تفسير الفخر الرازى ، وابن كثير .　　(٣) القلم : ٤

من عشيرته وقومه بسابق عهدهم به صادقاً وأميناً ، فقد عرفوه عن قُرب معرفة الصاحب لصاحبه ، وخبروا رجاحة عقله وطيب معدنه . فالذى يأتيه إنما هو وحى السماء استقبلته نفس محمد الطاهرة وعقله الواعى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير : ١٥ - ٢٢) .

وحين حاولوا مداهنته وطلبوا منه قرآناً لا يُسَفِّه آلهتهم ولا يدعو إلى نبذ عبادة اللاَّت والعُزّى ولا يُحَرِّم عليهم ما تردوا فيه من خبائث ومنكرات كان قول « الحق » :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس : ١٥ - ١٧) .

ثم كانت هذه الدعوة للمكيين بتحرير الفكر وتحرى الحقيقة فى أمر صاحبهم ، وذلك بانبعاثهم مثنى ، أو فرداً فرداً ، ثم تفكرهم فى أمر محمد على ضوء سابق عهدهم به ، وحين يصدقون العزم ويتجردون عن الهوى ، سوف تصدق نتائج تفكيرهم .

وهذه الدعوة للتفكير علمية ولا شك ، فهى تأخذ فى اعتبارها « علم النفس » وخصائص النفس البَشرية التى قد تكابر فى الحق حين تُطرح القضية أمام ملأٍ من الناس ، لكن احتمالات رجوع تلك النفس إلى الحق يكون أكبر حين يخلو

الإنسان بنفسه أو يفكر مع صديق له فآنذاك يرشد كُلٌّ صاحبه ويستمع الواحد للآخر ولا حَرَج .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

(سبأ : ٤٦)

نعم كان خُلُق محمد قبل الرسالة كافياً لإيمان القوم به ، لكنهم كذَّبوه جحوداً واستكباراً لأهواء شخصية ودوافع قَبلية ولم يكن تكذيبهم راجعاً لاختلاط أمره عليهم . وفى هذا يقول « الحق » :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٣) .

* *

● بداية الطريق :

الرسالة الإلٰهية طريق غايته الوصول إلى الله ..

وهو طريق يهدى الذين أُرسِلَ إليهم ، كما سبق وقد هدى من قبلهم المرسلين .

يهدى الذين أُرسِلَ إليهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، بعد أن هدى المرسلين بالوحى الإلهى والتعاليم السماوية .

وفى قصة إبراهيم – الذى صار أبا الأنبياء – كان « ابن تسع وتسعين سنة حين ظهر له الرب وقال له :

« أنا الله القدير . **سر أمامى وكن كاملاً** . فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً .

فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً :

أُقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلٰهاً لك ولنسلك من بعدك »

إنه طريق إلى الله ، يسير فيه الإنسان .

ويحتاج المسافر فى كل طريق إلى مَن يأخذ بيده ويهديه الغاية ويعطيه الوسيلة ويحذره المصاعب والأهوال ، ويعرفه القواعد والأحكام . هكذا الطريق إلى الله .

ومَن أعلم بالطريق إليه - سبحانه - إلا هو ، فهو الذى يهدى إليه ، ولا هدى إلا به .

إذ يرسل ملائكته سَفرة حَفظة ، بكتبه المكرَّمة إلى رسله المصطفين الأخيار .

والطريق شاق وطويل ...

هكذا كان مع نوح وإبراهيم وموسى وإلياس ، ويحيى وعيسى ، وهكذا كان مع محمد .

*

• النبأ العظيم :

فجيء الوحى محمداً فى غار حراء ، فأوحى إليه ما أوحى وصاحبَ ذلك ما صاحبه من خوف ورهبة . ويقص محمد الخبر على خديجة ، فتخفف من روعه بادى الرأى استناداً إلى خبرتها الوثيقة . لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فما كان خبر السماء إلا ليؤخذ بكل الجد ويُستيقن منه بالبحوث والتجارب .

وهناك يحدث أمران هما بمقياس العصر تجارب معملية كتلك التى تجرى لدراسة ظاهرة من الظواهر الطبيعية .

الأول : انطلقت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد عرف خبر الوحى من الأسفار السابقة ، فلما أخبرته بما حدث لمحمد وما رآه وسمعه أطرق ملياً ثم قال : « قدوس قدوس .. والذى نفس ورقة بيده : لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت » .

الثانى : طلبت خديجة إلى محمد أن يخبرها بمجىء الملك متى رآه . فلما جاء الملك أجلست زوجها محمداً على فخذها الأيسر ثم على فخذها الأيمن ثم فى حجرها وفى كل مرة تسأله عنه فيخبرها أنه لا يزال يراه .

حتى إذا حسرت وألقت خمارها فإذا بمحمد لم يعد ير الملك .

لم يبق – إذن – شك فى أن هذا الذى يأتيه هو مَلَك طاهر ، كما لم تبق هناك أية فرصة للشك فى أن محمداً وخديجة كانا أكثر الناس حرصاً على التثبت من حقيقة هذا الأمر الجديد الذى لا عهد لهم ولأُمتهم به .

*

ولقد رأينا عند الحديث عن الوحى [1] كيف صار صموئيل نبياً فقد كان يخدم أمام الكاهن عالى ، وبعد أن اضطجع للنوم ، إذا به يسمع صوتاً يناديه فظنه عالى ، فذهب إليه فقال عالى : « لم أدع . ارجع واضطجع » ، ولما تكرر ذلك للمرة الثالثة « فهم عالى أن الرب يدعو الصبى فقال عالى لصموئيل : اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يا رب لأن عبدك سامع ...

فجاء الرب .. ودعا كالمرات الأولى .. فقال صموئيل : تكلم لأن عبدك سامع ..

وكبر صموئيل وكان الرب معه .. وعرف جميع إسرائيل .. أنه قد أؤتمن صموئيل نبياً للرب »

فهكذا صار صموئيل نبياً للرب فى ساعة من ساعات اللّيل وبكل بساطة وبلا جدل أو تمحيص .

ويعتبر صموئيل هذا من كبار أنبياء بنى إسرائيل وهو الذى اعتمد شاول كأول ملك يقوم فى إسرائيل هو الذى مسح داود نبياً « وحَلَّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً » .

*

---

(١) راجع كتاب المؤلف : الوحى والملائكة .

● فروض وتكاليف :

من الطبيعى أن يبدأ التعليم الإلٰهى بالرسول .. وهكذا كان فلقد فُرِضَ عليه القيام باللَّيل ، تعبداً للّه وتهذيباً ، بعد أن انقضى عهد الراحة والنوم متزملاً ومتدثراً ، وبدأ عهد جديد كله عمل وكفاح وصبر وجهاد .

وهو عمل فى دوائر متحدة المركز تماثل تلك الدوائر التى تنبعث على سطح الماء لبحيرة هادئة إذا ما أصابتها قذيفة .

وحين نبدأ بالرسول فى المركز نجد أقرب دائرة إليه أهل بيته ، ثم صحبه المخلصين ، ثم عشيرته الأقربين .

وهكذا نزلت أولى آيات سورة المزمل لتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل : ١ - ٤) .

هو فرض وتكليف ، إذا صرفنا النظر عن كونه شغلاً مبذولاً وطاقة مستنفدة، فلا شك أن النفس العالية لا بد وأن تستقبل ذلك التكليف بشىء من الخوف والرهبة ، حذراً من الضعف الذى ارتبط بالإنسان ، أو مخافة عدم الإتقان . لكنه - فى الحقيقة - تكليف غلَّفته رحمة اللّه ، ذلك أن النفس البَشرية بطبيعتها تشعر بشىء من الراحة ويُهَوِّن عليها الصعب حين تجد لها فيه خياراً . وهكذا كان فرض قيام اللَّيل ، إذ ترك الخيار فى مقداره فزال بذلك الحَرَج وخف التكليف .

ولكى يعلم الرسول حقيقة ما انفتح عليه من السماء ، كانت الآية التالية لما سبق ذكره من سورة المزمل تخبره بكل وضوح أنه يتعرض لضغط عال من السماء يجب أن يستعد له منذ تلك اللَّحظة فهى تقول : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل : ٥) .

لقد كان نزول القرآن على الرسول عملية تصحبها الشدة ويلازمها الضغط الثقيل . وحين قال عبد اللّه بن عمرو : يا رسول اللّه ، هل تحس بالوحى ؟

أجابه الرسول بقوله : « **أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يُوحَى إلىّ إلا ظننتُ أن نفسى تُقبض** » .

وقال زيد بن ثابت : « أنزل على رسول اللّه ﷺ وفخذه على فخذى ، **فكادت ترض فخذى** »

وأما من الناحية الموضوعية فإن القرآن حُجة على كل مَن بلغه وشاهدٌ له أو عليه يوم الدين ، فأمره جد ليس بالهزل ، وهو نبأ عظيم ، يلازمه من الأمور ما يلازم كل نبأ عظيم .

*

ثم تأتى مرحلة جديدة وهى إعلان الرسالة فى الدائرة التالية ، نذيراً وبشيراً لقوم يسمعون مع زيادة فى التعليم لما يجب أن يكون عليه حال الرسول . فقد نزلت سورة المدثر لتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (المدثر : ١ - ٧) .

لقد بدأ الصراع ولا محيص ، ذلك أن العرب حين نزل فيهم القرآن كانوا أمة أميّة ، عزلتها الصحراء وطبعت عليها من سماتها الشىء الكثير ، فآثرت الحفاظ على تراث الأقدمين بكل ما فيه من مساوىء ومثالب ، وهى مستعدة للقتال ضد كل تطور أو دعوة لنبذ ذلك القديم ، حتى ولو كانت هذه الدعوة من السماء .

* *

● محنة روحية :

نزل الوحى بالقرآن وبدأت نواة الإسلام فى بيت محمد فكان السابقون إليه زوجه خديجة ، وابن عمه وربيبه الصبى علىّ بن أبى طالب ، ومولاه زيد بن حارثة . ثم كان السابقون بعد بيته يتقدمهم « صاحبه وصديقه الحميم أبو بكر الذى آمن لفوره دون أن يكون له فى الإسلام كبوة ، والذى طفق يدعو إليه منذ

اللّحظة الأولى مَن وثق فيهم من القوم فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوَّام . ثم أسلم بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وغيره كثير من أهل مكة » .

وكان الواحد منهم إذا هُدِىَ إلى الإسلام ذهب إلى النبى سراً فأعلن إسلامه . وكان ذلك التخفى راجعاً إلى علم المسلمين الأوائل بما يضمره المجتمع القرشى من عداوة شديدة لكل مَن يفكر فى الخروج على آلهته المتوارثة ومعبوداته الوثنية . لكن أمر الوحى ونزول القرآن وإعلان نبوَّة محمد كان خبراً يُذاع منذ اللّحظة الأولى ويكفى ما أعلنته خديجة لورقة بن نوفل وهى تستقصى منه الخبر الذى لم تعهده العرب منذ قرون عديدة .. وما كان هذا الخبر بالذى يمكن كتمانه فى مثل تلك البيئة التى اشتهرت بتناقل الأخبار وتقصى الروايات ، وكان عندها من الفراغ الزهنى والفكرى ما يجعلها تذيع كل ما تلتقطه الآذان صباح مساء .

وإذا بمفاجأة لم يتوقعها الرسول تحدث ..

لقد توقف الوحى ، إذ انقضت ليلة وليلتان وليالى وأيام ولا خبر من السماء.

وذاع هذا الأمر - كالمعتاد - وشمت الشامتون من الكفار وقالوا إن محمداً ودعه ربه ، وأشفق الصحب من المسلمين ولعل منهم مَن حدثته نفسه فقال للنبى: ما أرى ربك إلا قد قلاك .

وبين هذا وذاك عانى النبى فى تلك المحنة الروحية الشىء الكثير ، حتى ترانا لا نعجب حين نقرأ لكتَّاب السيرة وهم يتحدثون عن فتور الوحى فيقولون إن النبى هانت عليه نفسه وتمنى لو ألقى بها من أعلى جبل حراء أو أبى قبيس بعد أن ألفى نفسه وحيداً هكذا كالمعلَّق بين السماء والأرض .

لقد سبق أن طلب موسى من الله الموت لنفسه حين ثقل عليه الأمر مع بنى إسرائيل : « فقال موسى للرب : لماذا أسأتَ إلى عبدك ، ولماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى إنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على ؟ ..

إن كنتَ تفعل بى هكذا فاقتلنى قتلاً .. فلا أرى بليَّتى » .

(العدد ١١ : ١١ - ١٥)

وكذلك طلب إلياس (إيليا) الموت لنفسه بعد أن أرهقته مطاردة آخاب ملك إسرائيل الفاجر وزوجته إيزابل وهما يطلبان قتله ، فإذ ثقل عليه الأمر واشتد الكرب « سار فى البرية مسيرة يوم حتى أتى **وجلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب . خذ نفسى** » (الملوك الأول ١٩ : ٤)

لكن ﴿ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

فما لبث الوحى أن عاد للنزول بعد أن فتر حينًا تعلَّم فيه النبى الصبر والتعلق كلية بالله الذى وحده « له الخلق والأمر » .

وكانت سورة الضحى خير عزاء للرسول وبُشرى وتثبيت :

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الضحى : ١ - ٥).

*

واستمر الوحى نزولاً وآيات الله تترى ، حتى إذا انقضت عدة سنوات تعرَّض النبى لتجربة أخرى تناظر تلك المحنة الروحية التى فجئته فى صدر الدعوة .

فإذ كانت الحرب على أشدها بين القرشيين وأشياعهم من جانب ، ومحمد والمسلمين من جانب آخر ، « **بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .**

فقال (أحبار اليهود) : سلوه عن ثلاث .. فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول .. وعن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها .. وسلوه عن الروح ما هو ؟ ..

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وقد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أُمور ،

فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : يا محمد أخبرنا ، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله - ﷺ - : « أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن ، فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله له فى ذلك وحياً ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألنا عنه ، وحتى أحزن رسول الله - ﷺ - مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه » (١)

لم يقل الرسول لمن سألوه : « أخبركم غداً عما سألتم عنه إلا أن يشاء الله » فكان ذلك الحَرَج الشديد والأذى والمعاناة .

إنه نبى ورسول من عند الله ، كل كلمة بل كل حرف وتصرف بحساب وإلا فهناك حساب يتناسب وأقدار الرجال .

ثم نزل التعليم الإلٰهى للرسول بأن نزول الملائكة بالوحى عبر الزمان لكل الأنبياء والمرسلين لا يتم إلا بأمر الله الذى له وحده المشيئة المطلقة « وهو الحكيم الخبير » .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم : ٦٤) .

وتطالعنا الآن نتيجة حتمية أكدتها أحداث الرسالة فى الإسلام - سبق أن أشرنا إليها - وهى أن رسل الله تحت ضغط الوحى ليسوا أكثر من « أجهزة استقبال » تامة الدقة والأمانة بالغة الحساسية ، فحين تأتيها الإشارة من السماء

---

(١) تفسير ابن كثير : سورة الكهف .

تلتقطها وتذيعها ، أما حين يتوقف الإرسال فلا استقبال ولا إذاعة ، بصرف النظر عما يصيب رسل الله آنذاك من حرج وأذى ، وضيق ، إذ أن الأمر كله لله وهم خدم فى بيت رسالته .

* * *

● الرسول بين يدى الله :

تقرير واقع : نزلت سورة الضحى لتطمئن الرسول وتشف صدور المؤمنين وتُذهب غيظ قلوب الكافرين ثم تُذكِّر الرسول بواقع الأمر فتقول له :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى : ٦ - ٨) .

هذه حقائق ثلاث كانت فى حياة الرسول ، يهمنا منها ما يتصل بالدين . فمن المعلوم أنه - صلوات الله عليه - نشأ فى أمة أميَّة وفى مجتمع وثنى ، عزفت نفسه المطهَّرة عن المشاركة فى سفاهات قومه على أية صورة من الصور فلقد أيقن بفطرته السوية أنهم فى معتقداتهم الدينية على باطل لا مراء فيه ، ولكن أين الحق إذن ؟

إن هذا ما تطلعت نفسه دائماً لإدراكه وكانت وسيلته الوحيدة هى التباعد عما فيه قومه ، ثم التفكير وحيداً فى هذا الكون العظيم وظواهره ونواميسه . ولقد طاب له التأمل والتفكير وهو يرعى الغنم فى الصحراء ثم وجد فى التحنث أو التحنف خير دواء مستطاع لما يختلج فى صدره ، فكان يذهب إلى غار بجبل حراء فيقضى فيه ما شاء الله من ليالى وأيام يفكر فى الكون وخالقه ، ثم يعود إلى خديجة بعد أن يكون قد نفد ما معه من قليل الزاد .

ولم يلبث أن تعهدته العناية الإلهية بالرؤيا الصادقة - التى تعتبر ارهاصاً للوحى فى حياة الأنبياء - فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت صادقة كنور الصباح . وأخيراً جاءه الحق وحياً من الله ، قرآناً .

لقد هداه الله فعرَّفه الحق وسُبُله ، فالهدى يعنى التعريف بالطريق كما فى

قوله تعالى ، فى سورة البلد ١٠ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أى عرَّفنا الإنسان طريقى الخير والشر ، فيسلك الأول ، ويجتنب الثانى .

وكذلك قوله فى سورة الصافات ٢٣ : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى أرشدوهم إلى طريق جهنم . والضلال عكس الهدى بمعنى الجهل بالشىء كما يقال فى اللُّغة : ضللتُ الدار – أى لم أعرف موضعها .

والضلال يعنى النسيان كذلك وعدم الإلمام بالشىء أو جزئياته أو إهماله كما فى قوله تعالى فى آية التداين من سورة البقرة ٢٨٢ : ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ . فضلال الشاهدة هنا يعنى نسيانها حقيقة الشهادة .

وحين قال فرعون لموسى ، وهو يمن عليه بما كان من سابق أمره حين تربى فى بيت الملك ، ثم قتل المصرى وهرب إلى مَدْيَن – ما تذكره سورة الشعراء ١٨ – ٢١ : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

فقول موسى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى الجاهلين بالحقائق ، كما تعنى كذلك حال موسى قبل النبوّة والرسالة .

وعلى ضوء هذا نفهم معنى قوله تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ [١] .

فقول الله حق ، ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ ﴾ [٢] .

---

(١) الضحى : ٧ (٢) الأحزاب : ٥٣

على أن لهذا القول دلالة لا تخفى على كل مَن ﴿ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) فهذا القول يعنى أن محمداً الذى اشتهر بالأمانة – قبل الرسالة – بين الناس ، لهو أشد أمانة فيما يتنزل إليه من ربه من قرآن .

*

إن القرآن هو الذكر الحكيم ، وما أنزله الله ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ (٢) ولقد صرفه – سبحانه – بين الناس ليذَّكَّروا ، ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ولهذا نجد القرآن يعيد التذكرة بعد سنوات من نزول سورة الضحى فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

*

بل إن القرآن ليقرر حقيقة نبؤها عظيم وأمرها جد ، فيقول للرسول على لسان « الحق » إنه لا يملك من أمر القرآن بعد نزوله شيئاً ، كما إنه لم يكن يملك من أمره شيئاً قبل التنزيل . فالله قادر أن يذهب بما أوحى ، وآنذاك يجد الرسول نفسه وقد تقطعت به كل الأسباب :

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاَّ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٦ - ٨٧) .

ولا عجب .. فالأمر كله لله ، ليس الأمر فقط ، بل له سبحانه « الخلق والأمر » فهو الذى يملك السمع والأبصار و .. يدبر الأمر » .

وفى تذكرة للإنسان ، يقول القرآن : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ، مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٦) .

---

(١) سورة ق : ٣٧ (٢) طه : ٣ (٣) الذاريات : ٥٥

فالله وحده له المشيئة المطلقة فى كل شىء :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الأعلى : ٦ - ٨) .

ولقد كان الأنبياء جميعاً واعين لتلك الحقيقة الهامة ، وهى أن الإيمان الذى ملأ قلوبهم ، هو فى قبضة « الحق » . وعلى المؤمن الحقيقى أن يسأل الله دائماً الثبات على اليقين والترقى فى مراتب الإيمان . ولهذا قال إبراهيم أبو الأنبياء فى محاوراته مع قومه : ﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ *

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٠ - ٨٢) .

وعلى شاكلة إبراهيم - ومَن بعده - كان موقف شعيب مع قومه ، إذ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ،

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

(الأعراف : ٨٨ - ٨٩)

ليس الإيمان فقط - وهو الشىء غير المادى - الذى يُرَد حفظه إلى الله ، بل إن كتاب الله المسطور يُرَد حفظه إلى الله كذلك ، فإن شاء حَفَظَه وإن شاء استحفظ عليه البَشر . وفى هذه الحالة الأخيرة يصبح معرَّضاً - ولا شك - للتغير والتبديل ، لأن الزيغ من طبع الإنسان .

وما حدث لتوراة موسى خير دليل على ذلك .

فحين ذهب موسى لميقات ربه يتلقى التوراة بعد أن استخلف أخاه هارون في قيادة بنى إسرائيل أعطى الله « موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء لوحى الشهادة ، لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله » .

لكن الشعب الإسرائيلى انتهز فرصة غياب موسى فخرج على قيادة هارون وضع له عجلاً مسبوكاً من الذهب غنمه من المصريين قبل رحيله وقام يعبده ويلعب حوله .

« فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر .. صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له .

فحمى غضب موسى وطرح اللَّوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل » .

لقد كسر موسى بنفسه التوراة التى كتبتها يد القُدرة ولم يجف مدداها بعد ..

ولذلك « قال الرب لموسى : انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللَّوحين الكلمات التى كانت على اللَّوحين الأولين اللَّذين كسرتهما .. واصعد فى الصباح إلى جبل سيناء »

ولكن الذى حدث بعد ذلك أن موسى هو الذى كتب التوراة ، فقد :

« قال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات ، فكتب على اللَّوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر » .

ومن المعلوم أن التوراة تعرضت بعد ذلك للحرق والضياع ، وقد أعاد عرزاً كتابتها بعد أكثر من ٧٠٠ عام من نزولها على موسى .

*

هذا .. ولما كان « النبى » هو الذى يُنَبىء عن الله ، أى يُخبر الناس بما يريد « الحق » سبحانه – أن يُظهره إلى الخلق ، فإن « النبى » لا يستطيع أن يُحَدِّث بشىء من الغيب إلا ما شاء الله .

وكانت « الساعة » من الأمور التى بقى علمها عند الله فخفيت عن جميع الأنبياء والمرسلين .

ولقد كان كفار قريش ينكرون القيامة والساعة وكأنهم أرادوا تعجيز الرسول فسألوه عنها سؤال المُنْكِر المُصِرّ على جحوده فجاءه الحق يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٨٧) .

ومن قبل قرر المسيح لتلاميذه أن القيامة والساعة شىء اختص الله بعلمه ، فأخفاه عن جميع خلقه بما فيهم الملائكة والمسيح ، فقد قال لهم :

« أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الآب » .

ومن الطبيعى أنه ما دام أمر الساعة قد خَفِىَ عن كبار الأنبياء ، فإن مصائر البَشر الأبدية التى تتقرر فى الساعة ، لا تتقرر ألا بأمر الله ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (سبأ : ٢٣) .

وحتى أنبياء الله ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٨) .

بل إن ملائكة الله لا يشفعون إلا من بعد إذنه :

﴿ وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ (النجم : ٢٦) ، فالأمر متوقف آنذاك على رضوان الله وحده لا شريك له .

*

ويقطع تاريخ الأنبياء بأن النبوّة لا تعنى مداومة النبى الاطلاع على الغيب ، فكلهم لم يعلم منه شيئاً إلا ما أظهره الله عليه وفق قدره المحكم والمحتوم .

فقد حدث لإبراهيم حين تغرّب فى أرض جرار أن قال عن سارة زوجته إنها أُخته ، فلما أنكر زوجيتها له « أرسل أبيمالك ملك جرار واخذ سارة » ليعاشرها معاشرة الأزواج « فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل ..

فبكّر أبيمالك فى الغد ودعا جميع عبيده .. ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له : ماذا فعلتَ بنا .. حتى جلبتَ علىّ وعلى مملكتى خطية عظيمة .

فقال إبراهيم : إنى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلوننى لأجل امرأتى » (تكوين . ٢) فمن الواضح أن إبراهيم كان لا يعلم ما ينتظره فى الغد ولذلك أنكر زوجيته لسارة .

وحدث بعد ذهاب موسى وأخيه هارون إلى فرعون ليُخرِجا بنى إسرائيل من مصر أن فرعون زاد من اضطهاده للإسرائيليين « فرأى مدبرو بنى إسرائيل أنفسهم فى بلية ..

وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون فقالوا لهما :

ينظر الرب إليكما ويقضى لأنكما أنتنتما رائحتنا فى عينى فرعون وفى عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً فى أيديهم ليقتلونا .

فرجع موسى إلى الرب وقال : يا سيد ، لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب ؟ لماذا أرسلتنى ؟

فإنه منذ دخلتُ إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تُخَلّص شعبك » (خروج ٥ : ١٩ - ٢٣) .

فمن الواضح أن موسى كان يجهل الأحداث الجِسام التى تنتظره وبنى إسرائيل ، ومنها تخليصهم من قبضة فرعون فى أيام معلومات .

وحين ضاقت السُبل بإيليا من مطاردة آخاب وإيزابل فإنه « جلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب خذ نفسى .

وإذا بملاك قد مسَّه وقال : قم وكُلْ .. ثم عاد ملاك الرب ثانية فمسَّه وقال : قم وكُلْ لأن المسافة كبيرة عليك . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب ودخل هناك المغارة وبات فيها » .

(الملوك الأول ١٩ : ٤ - ٨)

فمن الواضح أيضاً أن نفس إيليا ما كانت تدرى ﴿ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ (١) وما كانت تدرى ﴿ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (٢) .

*

ولقد حدث حين شعر المسيح بمؤامرات اليهود تُحاك ضده وأنهم يريدون قتله ، أن قال لهم فى الهيكل : « تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى .. لماذا تطلبون أن تقتلونى .. وكان يسوع يتردد بعد هذا فى الجليل ، لأنه لم يرد أن يتردد فى اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه »

واستمرت هذه سياسة المسيح تجاه اليهود فى تجنب الأماكن التى يمكنهم اصطياده فيها :

« فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه . فلم يكن يسوع أيضاً يمشى بين اليهود علانية بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها أفرايم ومكث هناك مع تلاميذه » (يوحنا ١١ : ٥٣ - ٥٤) .

فمن الواضح أن المسيح كان يجهل تماماً ما يخبئه له القَدَر فى صراعه مع اليهود ، ولذلك اتخذ من الاحتياطات ما ارتآه معيناً على إفشال مخططاتهم ضده .

لأنه لو كان يعلم أنهم سيصطادونه فى يوم معين لما كان هناك فائدة من تلك الاحتياطات ، ولو كان يعلم أنهم لن يصطادوه أبداً فلم يكن لها من داع أيضاً . وإنما تتخذ الاحتياطات بسبب الجهل بالغيب .

* *

(١ ، ٢) لقمان : ٣٤

لقد درج كثير من الناس على اعتبار الأنبياء وكلاء عن الله فى كل ما يتصل بالغيب من خير وشر وما ينتظر الناس من مصائر وأقدار . ولقد حسم القرآن الكريم هذه القضية حسماً ، فقال فيها الحق الواضح الذى يمنعها أن تكون وسيلة للتسلية والتعجيز من عتاة الكافرين ، أو مدعاة للأحاجى والألغاز بين ضعاف المؤمنين ، وذلك فى آياته البينات :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام : ٥٠) .

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ١٨٨) .

*

وإذا كان الرسول قد بعثه الله ليهدى الناس ويأخذ بأيديهم بعيداً عن مهاوى الضلال ، فما هو إلا مُعَلِّم ومُبَلِّغ وداع إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . أما استجابة الناس إلى الهدى فليست من مسئولياته ، بل إنه لو أراد إكراههم على ما فيه منفعتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية : ٢١ - ٢٢) .

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ (البقرة : ٢٧٢) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص : ٥٦) .

*

وخلاصة القول فى تقرير واقع « الرسول بين يدى الله » هو ما يقرره « الحق » فى قوله المحكم » :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٢٨) .

* *

• **التعاليم الأساسية :**

استفتح القرآن – فى سورة « اقرأ » – باسم الإله الذى ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ ﴾ فهو الإله ﴿ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

(العلق : ٣ – ٥)

ثم توالت آيات الله ، وعلى هديها قام الرسول يدعو إلى ربه على بصيرة ، وفى مواجهته قام المشركون من قريش والذين كفروا به من اليهود ، يحاربونه ومَن تَبِعَه بكل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

وفى محاوراتهم معه قال المشركون : « انسب لنا ربك » وجاءه أناس من اليهود يقولون : « صف لنا ربك ، فإن الله أنزل نعته فى التوراة »

فأنزل الله – تعالى – سورة « الاخلاص » وهى نسبة خاصة لله ؛ تقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

ولقد علَّم الرسول أصحابه أنها « تعدل ثلث القرآن » .

كان طبيعياً – إذن – أن تكون سورة « الإخلاص » من أوائل السور التى نزلت فى صدر القرآن ، إذ هى تضع الأساس الذى يقوم عليه الإسلام ، فما اتفق معها يتفق والعقيدة الإسلامية ، وما اختلفت معها استحال التوفيق بينه وبين أساسيات الإسلام ، مهما اجتمع لذلك من فلاسفة العصر وقادة الفكر وشيوخ الأديان .

وكان منطقياً أن يكون أساس العقيدة واضحاً كل الوضوح بسيطاً كل البساطة ، يفهمه كل ذى عقل سواء مَن أُوتِىَ حظاً من علم أو كان من الجهلة والأميين . فمن غير المعقول أن يكون أساس الدين – الذى يتوقف عليه المصير

الأبدى للإنسان - قائماً على قصص وأقاويل تعانى فى سبيل وعيها العقول والأفهام .

وكان عدلاً ورحمة أن يدخل الإنسان - كل الإنسان - دائرة الغفران والقبول طالما سلم أساس عقيدته فقام على التوحيد الخالص ، المبرأ عن كل شبهة وشرك، فكل ما وراء ذلك يمكن أن يهون لأن رحمة الله أوسع ، وأقرب للإنسان من حبل الوريد .

لذلك نجد « الحق » يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٤٨) .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج : ٣١) .

* * *

● ملامح الشخصية :

من الأهمية بمكان التعرف على الملامح التى تعين على رسم صورة صادقة لشخصية الأنبياء فى شتّى مظاهرها الجسمية والخُلُقية والسلوكية ، فذاك شىء تتحرق له البشرية وترجوه . ولكم كتب الكُتّاب والباحثون وفاضت كتاباتهم بالحسرة والألم من قلة المعلومات والبيانات التى تفتقدها السيرة الذاتية لاثنين من أصحاب الرسالات الكبرى هما موسى وعيسى .

ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ما يقوله « دنيس نينهام » فى مقدمة تفسيره لإنجيل مرقس : « **إنها لحقيقة تصدمنا أنهم (كَتَبة الأناجيل) لم يخبرونا بأى شىء عن هيئة (يسوع) وبِنْيته الجسمية وصحته ، كما لم يخبرونا بشخصيته وعما إذا كان - على سبيل المثال - سعيداً مبتهجاً رابط الجأش ، أم أنه كان على العكس من ذلك .**

إنهم لم يفكروا - حتى - أن يخبرونا بطـريقة قاطعة عما إذا كان قد تزوج أم لا .

كذلك فإنهم لم يعطونا معلومات محددة عن طول فترة دعوته أو عمره حين توفى ، كما أنه لا توجد أقل نبذة عن تأثير بيئته الأولى عليه أو عن أى تطور فى نظرته ومعتقداته .

لقد أمكن حساب الفترة التى تلزم لإتمام الأحداث التى يرويها مرقس فوُجِدَ أنها لا تتعدى ثلاثة أو أربعة أسابيع ، عدا الفقرة (١ : ١٣) التى تقول : « وكانَ هناك فى البرية أربعين يوماً يُجَرَّب من الشيطان » ...

لقد دفعت هذه الحقيقة « ستريتر » أن يقرر فى كتابه : الأناجيل الأربعة - (ص ٤٢٤) : أن المجموع الكلى للأحداث التى سجلها الإنجيل صغير جداً

لدرجة أن الثغرات الموجودة فى الرواية لا بد أن تكون هى الجزء الجدير بالاعتبار » [1] ..

هذا .. على حين تزخر سيرة محمد بكل ما هو ضرورى وكاف لبيان حقيقة هذه الشخصية العالمية كَبشر ثم كنبى صاحب كبرى الرسالات .

وعند الحديث عن ملامح الشخصية لمحمد خاتم النبيين نجد وفرة فى كتب السيرة تتضافر جميعها لتعطينا صورة متآلفة عن الخواص الجسمية والنفسية للرسول . ويحدثنا فى هذا اثنان ممن تربيا فى حِجر رسول الله هما هند بن أبى هالة – وكانت أمه خديجة بنت خويلد الزوجة الأولى والوحيدة طيلة حياتها مع الرسول – ثم علىّ بن أبى طالب وقد احتضنه الرسول منذ صباه .

*

قال هند وقد سأله الحسن بن علىّ عن صفات رسول الله :

« كان أطول من المربوع [2] وأقصر من المشذب [3] ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، إذا تفرقت عقيصته [4] فرَّق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أُذنيه .. أزهر اللّون [5] ، واسع الجبين ، أزج الحواجب [6] سوابغ [7] فى غير قرن بينهما .. ، كث اللحية [8] ، أدعج [9] ، سهل الخدين [10] ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان . دقيق المسرُبة [11] .. معتدل الخَلْق ، بادن متماسك ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس [12] .. موصول ما بين اللّبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ص ٤٥ .

(٢) الرجل الوسيط القامة .

(٣) الطويل .

(٤) الشعر الذى يلوى (ضفيرة) .

(٥) أبيض اللّون فى صفاء .

(٦) حواجب دقيقة فى طول .

(٧) تامة وكاملة .

(٨) غزير شعرها .

(٩) شديد سواد العين مع شدة بياضها .

(١٠) قليل لحمها .

(١١) المسربة من الشعر : وسط الصدر إلى البطن .

(١٢) رؤوس العظام .

ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة .. ، شثن الكفين (١) والقدمين ، سابل الأطراف ، خمصان الأخمصين (٢) ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء .

إذا زال زال قلعاً ، يخطو تكفياً ، ويمشي هوناً ، ذريع المشية (٣) ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب (٤) ، وإذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة . يسوق أصحابه (٥) ، يبدأ من لقيه بالسلام » .

وقال هند بن أبي هالة في وصف منطقه : « كان متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة ، لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، يتكلم بجوامع الكلم ، فصل لا فضول ولا تقصير ، دمث (٦) ليس بالجافي ولا المهين .

يُعَظِّم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه .

لا تُغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تعرَّض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له . ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجَّب قلبها ، وإذا تحدث يصل بها ، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غَضَّ طرفه . جل ضحكه التبسم » .

وقال الحسن : سألتُ أبي عن دخول رسول الله فقال : « كان دخوله لنفسه مأذون له في ذلك . وكان إذا آوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء :

جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزَّأ جزأه بين الناس ، فردٌ ذلك على العامة والخاصة لا يدخر عنهم شيئاً . وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار

---

(١) غليظ الأصابع .
(٢) شديد التجافي عن الأرض .
(٣) سريع المشية .
(٤) كأنما ينزل في موضع منحدر .
(٥) يمشي وراءهم .
(٦) سهل الخلق والمعاملة .

أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين ، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج : فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من سألته عنهم وإخبارهم بالذى ينبغى ويقول : ليُبلغْ الشاهد الغائب ، وأبلغونى حاجة مَن لا يستطيع إبلاغى حاجته » .

قال : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ، فقال : « كان رسول اللّه يخزن لسانه إلا بما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خاقه . يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما فى الناس ويُحَسِّن الحسن ويُقَوِّيه ، ويُقَبِّح القبيح ويُوَهِّيه . معتدل الأمر غير مختلف.لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا . لكل حال عنده عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجوزه . الذين يلونه من الناس خيارهم . أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » .

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان فقال : « كان رسول اللّه لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ..

وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك . يعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

مَن جالسه أو قاوَمه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومَن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول . وقد وسع الناس من بسطه وخُلُقه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء .

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لا تُرفع فيه الأصوات ولا تئوبَّن فيه الحُرُم ولا تُثْنى فلتاته . متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب » .

قال : فسألته عن سيرته فى جلسائه فقال : « كان رسول اللّه دائم البِشر سهل الخُلُق ليِّن الجانب ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب ولا فحَّاش ولا عيَّاب ولا مزَّاح .

يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه (راجيه) .. قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يُعَيِّره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه . ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة فارفدوه .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام » .

قال : فسألته كيف كان سكوته ، قال : « كان سكوته فى أربع : الحلم والحذر والتقدير والتفكر . فأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تذكره - أو قال تفكره - ففيما يبقى ويفنى . وجُمِعَ له الحلم والصبر ، فكان لا يغضبه شىء ولا يستفزه » .

*

إن طبيعة البيئة التى بدأت فيها الدعوة إلى الإسلام تتطلب من الداعية صبراً وحلماً يفوق كل حد . ولقد تكفَّل الله بذلك فأسبغ على رسوله من كريم السجايا وعظيم الأخلاق ما يتفق ومطالب إنجاح الدعوة . وقد سجَّل الحق ذلك فى قوله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

*

لقد كانت تلك هى الخطوط العامة لملامح شخصية الرسول ، ولكن ليزداد الأمر وضوحاً كان علينا أن نعرض صوراً مختلفة للرسول نقتبسها من حياته الشخصية والعامة ، ونُقَدِّم أنماطاً من سلوكه وفكره ومنهجه فى مختلف مراحل حياته بعد أن صار نبياً .

ونبدأ بالبحث عن أوجه الكسب الشخصى التى يمكن أن تعود على الرسول من رسالته التى تحمَّل فى سبيلها الكثير من المخاطر والآلام والأحزان . فنجده قد جرَّد نفسه وأهله من كل ما يمكن احتسابه كسباً أو منفعة ، فقد عاش فقيراً زاهداً ، أمضى جل حياته يعانى آلام الجوع وشظف العيش طوعاً واختياراً .

قال علقمة بن مسعود : اضطجع رسول اللّه على حصير فأثَّر الحصير بجلده ، فجعلتُ أمسحه وأقول : بأبى أنتَ وأمى ، ألا أذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه ؟ فقال : « ما لى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلى كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

وقال أبو هريرة : والذى نفس أبى هريرة بيده ، ما شبع نبى اللّه وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فَارَقَ الدنيا .

وقالت عائشة : إنَّا كنا آل محمد ليمر بنا الهلال (الشهر) ما نوقد ناراً (للطبخ) إنما الأسودان : التمر والماء . إلا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلى رسول اللّه بلبن منائحهم فيشرب ويسقينا من ذلك اللَّبن .

ولم يكتف رسول اللّه بعيش الكفاف الذى فرضه على نفسه وعلى أهله ، إنما حَرَّم عليهم ميراثه فى ذلك القليل من حطام الدنيا الذى تركه .

قال عمرو بن الحارث : ما تَرَكَ رسول اللّه ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة .

ولقد توفى رسول اللّه ودرعه مرهونة عند يهودى وفاءً لطعام اشتراه منه ، فما وجد ما يفكها به من دراهم حتى مات .

وبعد وفاة الرسول ذهبت ابنته فاطمة وعمها العباس إلى أبى بكر يطلبان أرضه من فَدَك وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر : **سمعتُ رسول اللّه يقول : « لا نُوَرَّث ، ما تركناه صدقة »** .

فغضبت فاطمة وهجرت أبا بكر ، فلم تزرل مهاجرته حتى توفيت .

*

بعد ذلك ننظر الرسول في مواضع الخطر فنجده سبّاقاً مقداماً . لقد فزع أهل المدينة ذات ليلة من جَرّاء صوت سمعوه ، فانطلق أناس قِبَل الصوت يستطلعون الخبر ، فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبى طلحة عرى فى عنقه السيف وهو يطمئنهم ويقول : « لم تراعوا » .

وفى المواقف الحرجة من المعارك يصمد الرسول ويثبت حتى يستعيد المؤمنون المقاتلون الموقف . قال علىّ – وهو الفارس المغوار – : كنا إذا اشتد الحرب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فما يكون أقرب إلى العدو منه .

وفى الموقف الصعب يوم أُحد جُرِحَ وجه الرسول وكُسِرَت رباعيته وكُلِمَت شفته وسال الدم على وجهه لكنه ثبت ولم يبرح مكانه ولم يبق معه آنذاك إلا إثنا عشر قُتِلَ منهم سبعة وبقى الخمسة .

وفى الموقف الصعب يوم حُنين تعرَّض المسلمون لكمين أصابتهم فيه السهام والرماح فولّوا مدبرين ، بينما ثبت رسول الله وهو راكب بغلته يدعو أصحابه إلى الثبات ويقول : « إلىَّ عباد الله ، إلىّ أنا رسول الله » . ثم يعلن عن نفسه فى مواجهة الأعداء ويقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » . وما هى إلا فترة استعاد بعدها المسلمون زمام الموقف فهزموا المشركين ووقع فى أيديهم أسرى كثيرين .

*

وإذا كنا فى الحرب ومواضع الخطر نجد الرسول قوى العزم جبار البأس ، فإنّا واجدوه مع الأطفال والضعفاء ، رقيق المعشر يمزح معهم ويداعبهم ، بَيْدَ أنه لا يقول إلا صدقاً . قال أنس : كان رسول الله من أفكه الناس مع صبى . وجاء مرة رجل يسأله دابة تحمله ، فقال له الرسول : « إنا حاملوكَ على ولد ناقة » . فقال : يا رسول الله ، ما أصنع بولد ناقة ؟

فقال له الرسول : « وهل تلد الإبل إلا النوق » .

وكان رجل من البادية اسمه زاهر يتردد على الرسول وقد عُرِفَ بدمامة خِلْقته، وجده الرسول يوماً يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه (مداعباً) والرجل لا يبصره . فقال : أَرْسِلْنى ، مَن هذا ؟ فالتفت ، فعرف النبى ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبىَ حين عرفه . وجعل النبى يمزح معه ويقول : « مَن يشترى العبد » ؟ فقال : يا رسول الله ، إذن والله تجدنى كاسداً . فقال رسول الله : « لكن عند الله لستَ بكاسد » .

وقال أنس وقد خدم الرسول عشر سنين : أرسلنى يوماً لحاجة فقلتُ والله لا أذهب . فخرجتُ حتى أمر على صبيان وهم يلعبون فى السوق ، فإذا رسول الله قد قبض بقفاى من ورائى .

فنظرتُ إليه وهو يضحك فقال : « يا أنيس [1] ، ذهبتَ حيث أمرتُكَ » ؟

فقلت : نعم ، أنا ذاهب يا رسول الله .

وقال بعض صحابة النبى إليه : يا رسول الله ، إنك تداعبنا . قال : « إنى لا أقول إلا حقاً » .

*

وقد عُرِفَ عن النبى عفة لسانه فى المواقف التى ترضيه والتى لا ترضيه ، فلم يشتهر بتوبيخ مَن حوله وتعنيفهم ، أو ما من شأنه أن يصدهم ويُفقدهم الثقة فى أنفسهم . ولم يُسمع عنه أنه قال لهم : « يا قليلى الإيمان » أو « يا أغبياء » ، أو « إلى متى أحتمل غباوتكم وقساوة قلوبكم » أو شيئاً من هذا التقريع .

إن الأناجيل تمتلىء بأقوال من هذا النوع تُنسَب للمسيح وهو يتحدث إلى تلاميذه وحوارييه ، كما تمتلىء بحملاته العنيفة على اليهود والتنبؤ لهم بالهلاك فى جنهم .

---

(١) لاحظ المداعبة فى قوله : « أنيس » بدلاً من « أنس » .

ولقد كانت هذه المواقف وأمثالها موضع تعليقات شتّى من علماء المسيحية .
ومثال ذلك قول **جورج ويلز – الأستاذ بجامعة لندن** – فى دراسة له عن المسيح :

« إن مثل هذا الموقف من المسيح يجعل من النادر وصفه بأنه متسامح مع أعدائه .

فبينما هو يمنع القدح والذم : « مَن قال يا أحمق ، يكون مستوجب نار جهنم » (متى ٥ : ٢٢) ، نجده ينغمس فى ذلك ويأخذ كامل حريته فى الذم : « أيها الجهال والعميان » (متى ٢٣ : ١٧) ، « يا غبى هذه الليلة تطلب نفسك منك » (لوقا ١٢ : ٢٠) .

ولقد علّمنا أن نحب جيراننا ، بل وحتى أعداءنا ، ولكنه بالرغم من ذلك يتوعد الكتبة والفريسيين ويصفهم بأنهم مراءون وحيّات وأفاعى .

(متى ٢٣ : ٢٩ ، ٣٣)

وإذا نحينا جانباً إخفاق المسيح فى الحفاظ على المعيار ، فإنه لم يدافع بثبات عن أى معيار متناسق .. فبينما يقول عن الناموس : « مَن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعَى أصغر فى ملكوت السموات » ، نجده بعد هذا القبول الصريح لناموس موسى ، يجنح سريعاً لإحداث تغييرات كبيرة فيه .

إن ناموس موسى يسمح بالطلاق ، لكن المسيح يمنعه إلا فى حالة الزنا .

وكذلك يسمح الناموس بحلف الأيمان ، لكن المسيح يمنعه .

ويسمح الناموس بالقصاص : عين بعين ، وسن بسن ، لكنه يمنع القصاص أيضاً » [1] .

لقد كان الرسول إذا بلغه عن رجل شىء ، لا يقول : ما بال فلان يقول .. ولكنه كان يوجه خطابه بصورة عامة يستر فيها صاحب السقطة ويعطيه الفرصة ليستقيم أمره وذلك بقوله : « ما بال أقوام يقولون كذا ، وكذا ...» .

---

(١) G.A. Wells : The Jesus of the Early Christians , PP. 61, 64 .

وكان يقول : « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً (سيئاً) إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » . وكل هذه الرقة وهذه التربية النفسية مع قوم طبعت عليهم البيئة من قسوتها الشىء الكبير .

قال أنس : كنت أمشى مع النبى وعليه بُرْد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذاً شديداً حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول الله وقد أثّرت بها حاشية البُرْد من شدة جبذته .

ثم قال : يا محمد ، مر لى من مال الله الذى عندك .

فالتفت إليه رسول الله فضحك ، ثم أمر له بعطاء .

*

ويطول بنا الحديث فى خصائص رسول الله دون أن نستقصيها ، على أن ما نطمع فيه هو أن نُعطى الفرصة مرة أخرى لنزيد فيها .

* * *

معجزات الرسول

لو سُئِلَ مسلم عن معجزات الرسول لقال : معجزته القرآن .

بهذه الإجابة البسيطة قال المسلم حقاً وأجاب صدقاً . فالقرآن بما فيه - وما فيه كثير وكثير - يغنى عن تلمس أى برهان أو البحث عن معجزة أخرى غيره .

لكن الفكرة الشائعة فى أذهان البَشر عن المعجزة تدفعهم بداءة إلى توقع الحديث عن أعاجيب وخرق لقوانين الطبيعة ، وهو ما سوف نصطلح على تسميته **بمعجزات الحوادث** باعتبارها تمثل أحداثاً شغل كل منها حيزاً محدداً من الزمان والمكان .

ومن المعلوم أن وقوع معجزات الحوادث - على شاكلة ما تذكره أسفار العهد القديم ، وأسفار العهد الجديد - ليس قرينة كافية على صدق النبى . فقد حذّرت التوراة من إمكانية حدوث معجزات مادية على أيدى أنبياء كذبة يدعون إلى غير توحيد الله ، فقالت تعليماً من الله :

« إذا قام فى وسطك نبى أو حالِم . وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها ، قائلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى .. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالِم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم .. وذلك النبى أو الحالِم ذلك الحلم يُقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم » .

وكذلك حذَّر الإنجيل على لسان المسيح من أولئك الذين يُحسَبون مسيحيين ويأتون بمعجزات تثير عجب الناس وتستولى عليهم ، لكنهم فى حقيقة الأمر كَذَبَة وإخوة للشياطين . وفى هذا يقول :

« ليس كل مَن يقول : يارب ، يارب ، يدخل ملكوت السموات ، وكثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب ، يارب **أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة .**

فحينئذ أُصرِّح لهم : إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم » (متى ٧ : ٢١ - ٢٣) .

وكذلك بيَّن المسيح أن صدق النبوَّة لا يُشترط ارتباطها بحدوث الأعاجيب ، فهذا يحيى بن زكريا الذى قال فى حقه :

« ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبياً ؟ نعــم أقول لكم ، وأفضل من نبى » .

ويشهد الإنجيل بأن يحيى هذا « **لم يفعل آية واحدة** » .

(يوحنا . ١ : ٤١)

ومع ذلك فإن دراسة معجزات الرسول تدفعنا إلى الحديث عنها من وجهين :

الأول : معجزات الحوادث على شاكلة معجزات الأنبياء السابقين .

الثانى : معجزة القرآن .

وفيما يلى عرض سريع لبعض ما يُقال فى هذ المجال الواسع .

*

● معجزات الحوادث :

من كتب السيرة : نجد فى كتب السيرة [1] أحاديث عن معجزات وأعاجيب صنعها الرسول وشهدها الناس ، كفاراً ومؤمنين وقد كان بعضها سبباً مباشراً لإيمان مَن آمن منهم – ونذكر فى هذا المجال ما يلى :

١ – دخل أعرابى المسجد يوم جمعة والرسول قائم يخطب ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وتقطعت السُبل ، فادع الله لنا يغيثنا . فرفع الرسول يديه وقال : اللّهم اسقنا (ثلاثاً) ، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسّطت السماء انتشرت ثم أمطرت واستمر الحال على ذلك ستة أيام .

٢ – خرج رسول الله ذات يوم مع جمع من أصحابه فلما حضرت الصلاة لم يجد القوم ما يتوضأون به . فقالوا : يا رسول الله ، ما نجد ما نتوضأ به ، ورأى فى وجوه أصحابه كراهية ذلك . فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير ، فأخذ نبى الله فتوضأ منه ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال : « هلموا فتوضأوا » ، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء . وكانوا أكثر من سبعين .

٣ – لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا ؟ فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله قد هَمّ أن يأذن لهم فى نحر بعض ظهورهم (التى يركبونها) قال : يا رسول الله ، كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً ؟ ولكن إن رأيتَ يا رسول الله أن تدعو لنا ببقايا أزوادهم وتجمعها ثم تدعو الله فيها بالبركة فإن الله سيبارك لنا فى دعوتك .

فدعا النبى ببقايا أزوادهم فجعل الناس يجيئون بالحبة من الطعام وفوق ذلك فكان أعلاهم مَن جاء بصاع من تمر . فجمعها رسول الله ثم قام فدعا ما شاء الله أن يدعو ، ثم دعا الجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحتثوا فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملأوه .

---

(١) راجع البداية والنهاية – لابن كثير – الجزء السادس .

٤ – أتى النبى رجل من بنى عامر فقال : يا رسول الله ، أرنى الخاتم الذى بين كتفيك فإنى من أطب الناس . فقال له رسول الله : « ألا أريك آية » ؟ قال : بلى ، قال : فنظر إلى نخلة فقال : « ادع ذلك العذق » . فدعاه فجاء ينقز بين يديه . فقال له رسول الله : « ارجع » فرجع إلى مكانه . فقال العامرى : يا آل بنى عامر ، ما رأيت كاليوم رجلاً أسحر من هذا !

٥ – كان فى المسجد جذع نخلة يسند رسول الله ظهره إليه إذا كان يوم جمعة أو حدث أمر يريد أن يُكَلِّم الناس فيه فقالوا : ألا نجعل لك يارسول الله شيئاً كقدر قيامك ؟

قال : « لا عليكم أن تفعلوا » . فصنعوا له منبراً ثلاث مراق . فلما جلس عليه ، خار الجذع كما تخور البقرة ولم يسكن إلا بعد أن التزمه الرسول ومسحه .

٦ – أبصر رسول الله بشر ابن راعى العير وهو يأكل بشماله ، فقال : « كُلْ بيمنك » . قال : لا أستطيع (ليس عن عجز وإنما تكبراً) قال : « لا استطعتَ » . فَشُلَّت يده وما وصلت إلى فيه بعد ذلك .

٧ – قال حبيب بن أساف : أتيتُ رسول الله أنا ورجل من قومى فى بعض مغازيه ، فقلنا : إنا نشتهى أن نشهد معك مشهداً . قال : « أسلمتم » ؟ قلنا : لا ، قال : « فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » . قال : فأسلمنا . وشهدتُ مع رسول الله فأصابتنى ضربة على عاتقى فجافتنى فتعلقت يدى . فأتيتُ رسول الله ، فتفل فيها وألزقها ، فالتأمت وبرأت ، وقتلتُ الذى ضربنى .

٨ – أتى جابر بن عبد الله إلى رسول الله فعرف فى وجهه الجوع . فرجع إلى منزله فذبح داجناً كانت عندهم وطبخها وثرد تحتها فى جفنة وحملها إلى رسول الله . فأمره أن يدعو له الأنصار فأدخلهم عليه أرسالاً ، فأكلوا كلهم وبقى مثل ما كان ، وكان رسول الله يأمرهم أن يأكلوا ولا يكسروا عظماً . ثم إنه جمع العظام فى وسط الجفنة فوضع عليها يده ، ثم تكلم بكلام لا أسمعه إلا أنى أرى شفتيه تتحرك ، فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها .

فقال : « خذ شاتك يا جابر ، باركَ الله لك فيها » . قال : فأخذتُها ومضيتُ وإنها لتنازعنى أذنها حتى أتيتُ بها البيت . فقالت لى المرأة : ما هذا يا جابر؟ فقلت : هذه والله شاتنا التى ذبحناها لرسول الله دعا الله فأحياها لنا . فقالت : أنا أشهد أنه رسول الله ، أشهد أنه رسول الله ، أشهد أنه رسول الله .

٩ - وحدث يوم أحد أن سالت عين قتادة بن النعمان على خده ، فأخذها الرسول فى كفه وأعادها إلى مقرها فاستمرت بحالها وبعدها .

وحدث يوم خيبر أن نفث فى عينى علىّ وهو أرمد ، ومسح رِجْل سلمة بن الأكوع بعد أن أُصيبت ، فبرئت الأعضاء المصابة جميعاً لساعتها .

*

● **من القرآن الكريم** : نذكر هنا بعضاً مما اصطلحنا على تسميته . بمعجزات الحوادث وجاء ذكرها فى القران . ومن هذه المعجزات :

١ - **الإسراء والمعراج** : وقد سجَّل القرآن حادث الإسراء فى سورة عُرِفَت باسمه تُستفتح بالقول الكريم : ﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بعَبْده لَيْلاً مِّنَ المَسْجد الحَرَام إلَى المَسْجد الأَقْصَا الَّذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنُريَهُ مَنْ آيَاتنَا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾ (الإسراء : ١) .

وقد حدث فى صبيحة الإسراء أن صلَّى رسول الله الصبح ثم قال لابنة عمه : « يا أم هانئ ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئتُ بيت المقدس فصليتُ فيه ثم صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما ترين » . وقال الرسول لابنة عمه : « وأنا أُريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت » . فأشفقت عليه أم هانىء من تكذيب قومه وأخذت بثوبه قائلة : إنى أذكِّرك الله أنك تأتى قومك يُكَذِّبونك وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطو بك . قالت : فضرب ثوبه من يدى ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم ما أخبرنى .

وقالت عائشة : لما أُسْرِىَ برسول الله إلى المسجد الأقصى ، أصبح يُحَدِّث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر

فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أُسْرِىَ به اللّيلة إلى بيت المقدس . فقال: أوَ قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أفتُصدِّقه أنه ذهب اللّيلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح . قال : نعم . إنى لأُصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أُصدِّقه فى خبر السماء .

وتذكر كتب السيرة أن رسول اللّه التقى ليلة الإسراء بعدد من الأنبياء وخاصة أصحاب الرسالات الكبرى ومنهم موسى . وفى هذا تقول سورة السجدة ٢٣ - حسب رأى المفسرين (١) : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائه ﴾ . وهذا يعنى - قياساً - أن يلتقى محمد خاتم النبيين بكل مَن أُوتِىَ كتاباً من الأنبياء والمرسلين ومنهم إبراهيم (١) وداود وعيسى . وهنا نذكر ميثاق اللّه مع النبيين فى عالم الحقيقة : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُواْ أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنْ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران : ٨١ - ٨٣) .

هذا عن حادث الإسراء ، وأما حادث المعراج فقد سجّلته سورة النجم فى قولها :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (النجم : ١٣ - ١٨) .

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) يذكر القرآن الكريم صحف إبراهيم فى قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى : ١٨ - ١٩) وكذلك ما جاء فى سورة النجم ٣٦ - ٣٧

وهنا وقفة نستمع فيها إلى حديث يعتبر - فى نظرى - من أهم ما روته عائشة أم المؤمنين من أحاديث . ويروى هذا الحديث عنها مسروق ، قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : ثلاث مَن تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرْية . قلت ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمداً - ﷺ - رأى ربه فقد أعظم على الله الفرْية .

قال : وكنتُ متكئاً فجلستُ فقلت : يا أم المؤمنين ، أنظرينى ولا تعجلينى . ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ [1] ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ؟ [2] .

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « إنما هو جبريل . لم أره على صورته التى خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين . رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض » .

فقالت : أوَ لم تسمع أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى : ٥١) .

قالت : ومَن زعم أن رسول الله كتم شيئاً من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرْية ، والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

قالت : ومَن زعم أنه يُخْبِر بما يكون فى غد ، فقد أعظم على الله الفرْية ، والله يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . (النمل : ٦٥)[3]

---

(١) التكوير : ٢٣ (٢) النجم : ١٣

(٣) اقرأ أيضا قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الآية . ٥٠) .

قالت : : ولو كان محمد – ﷺ – كاتماً شيئاً مما أُنزِلَ عليه – لكتم هذه الآية :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب : ٣٧) .

بقى أن نذكر عدداً من الملاحظات على معجزة الإسراء والمعراج :

(١) كلتاهما آية من آيات اللّه جاءت للرسول شخصياً ، بدليل قوله عن الإسراء : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ (الإسراء : ١) . وقوله عن المعراج : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (النجم : ١٨) .

ولنا بعد ذلك أن نقول : إن اللّه – جلت حكمته ، أراد أن يخفف من أحزان الرسول ، ومعاناته بسبب تكذيب قومه إياه وإيذائه ومَن اتبعه من المسلمين وما تعرَّضوا له من حرب نفسية واقتصادية وعذاب بدنى ، فكان الإسراء والمعراج حتى ترتفع نفس الرسول فوق تلك المحن والآلام ، ومن ثمّ يستطيع أن يرفع معنويات أتباعه ويبث فى أنفسهم الطمأنينة والثقة في خير العاقبة .

وكان الإسراء والمعراج تعليماً للرسول وإطلاعاً له على الملكوت حتى ينبىء عن عوالم الغيب بحديث اليقين . فالقاعدة التى دَرَجَ الناس عليها أن يكون مستوى المعلّم أرقى من مستوى تلاميذه ، وكذلك الأنبياء جاءوا معلّمين للبَشرية فلا شك أن مستواهم يجب أن يكون – وإنه لكذلك – أكبر وأرقى من مستوى الناس جميعاً .

(٢) والمسلم ملتزم بالإيمان بمعجزة الإسراء والمعراج لكونها مسجّلة فى القرآن على هذا النحو البيّن ، ولا عليه بعد ذلك أن يذكر المنطق الرياضى الذى استخدمه أبو بكر فى البرهنة على صدق الحادث ، وذلك حين لجأ إلى باب القياس فقال : « إنى لأُصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أُصدِّقه فى خبر السماء » . وما يترتب على ذلك هو أن يُصدِّق المؤمن – كل مؤمن – الرسول فى كل ما يقول .

(٣) ليس عجيباً أن يرتد نفر عن الإيمان بالرسول بعد حديث الإسراء ، فتاريخ الرسالات الكبرى ملىء بأمثال هؤلاء الذين بقيت نفوسهم تعانى من صغار عاقها عن الارتفاع إلى مستوى الأحداث ، واستمرت تقيس الأمور بمقاييس قاصرة أو خاطئة أدى بها ذلك إلى التمرد على الرسول والكفر برسالته .

لقد فعل بنو إسرائيل شيئاً من ذلك مع موسى – على الرغم من الآيات والأعاجيب التى صنعها فى وسطهم – فبعد أن فَكَّ أسرهم من قبضة فرعون وطوَّف بهم فى سيناء قاصداً فلسطين يريد اقتحامها ، تخاذلت الجماعة الإسرئيلية عندما علمت بقوة سكان الأرض « وبكى الشعب تلك اللَّيلة وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بنى إسرائيل ، وقال لهما كل الجماعة : ليتنا متنا فى أرض مصر .. لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف .. أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر . فقال بعضهم لبعض : نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر » (العدد ١٤ : ١ – ٤) .

وبعد ذلك نظَّم لفيف من الإسرائيليين مقاومة لزعامة موسى تريد التمرد عليه والانتكاس فى حركته التحريرية وتعمل من أجل العودة لمصر وكان على قيادة هذه الحركة « قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى ، وداثان وابيرام أبنا اليآب .. يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوى اسم . فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما : كفاكما . إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب .

فأرسل موسى ليدعو داثان وابيرام ابنى اليآب فقالا : لا نصعد . أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبناً وعسلاً (أرض مصر) لتميتنا فى البرية حتى تترأس علينا ترؤساً . كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم . هل تقلع أعين هؤلاء القوم . لا نصعد » .

(العدد ١٦ : ١ – ١٤)

وحدثت رِدةٌ لكثير من تلاميذ المسيح ومريديه حين سمعوا بعض أحاديثه . وفى هذا يقول الإنجيل : « قال كثيرون من تلامذيه إذ سمعوا أن هذا الكلام صعب : مَن يقدر أن يسمعه . فعلم يسوع فى نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا فقال لهم : أهذا يعثركم . ! ..

من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه (ولم يبق معه إلا الإثنا عشر) فقال يسوع للاثنى عشر : ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا » .

ولا ننسى رِدةَ يهوذا الذى ائتمنه المسيح فجعله أمين سره وعيَّنه أميناً لصندوق الجماعةَ فقد « كان الصندوق عنده وكان يحمل ما يُلْقَى فيه » .

(يوحنا ١٢ : ٦)

ثم تآمر على سيده ، بَيْدَ أن خيانته ارتدت عليه فلقى جزاءه .

ليس عجيباً - إذن - أن يرتد نفر عن الإيمان بالرسول فى أعقاب حادث الإسراء الذى كان للرسول آية ، وللمؤمنين به تمحيصاً واختباراً .

*

٢ - وحين هاجر الرسول برفقة صاحبه أبى بكر من مكة إلى المدينة كان اتجاههما فى أول الرحلة إلى الجنوب - فى طريق اليمن - حتى تضل قريش وهى تقتفى أثرهما ، وكان غار ثور أول محطة لهما .

لكن ذلك لم يُثن قريشاً عن ابتعاث فتيانها فى كل اتجاه يطلبون الرسول حياً أو ميتاً ، وكان منهم مَن اقترب من ذلك الغار وهناك لقوا راعياً سألوه فكان جوابه : قد يكونان بالغار .. وآنذاك شعر أبو بكر بالخطر يُطْبِق عليهما فتصبب عرقاً وقال للرسول : لو نظر أحدهم تحت قدمية لرآنا . فأجابهَ الرسول : « يا أبا بكر ، ماظنك باثنين اللّه ثالثهما » .

لقد ذهب أحد القرشيين يتسلق إلى الغار ، ثم ما لبث أن عاد أدراجه . ولما سأله أصحابه عن سبب نكوصه قال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، وحمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفتُ أن ليس فيه أحد - وهناك ارتد فتيان قريش خائبين .

لقد قضى الله - جلت حكمته - أن يعصم محمداً من الناس ويحفظه حتى يُكمل الرسالة فقام جند الله يُنفذُون المشيئة الإلهية ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر : ٣١) .

لقد عهد إلى الملائكة بإنجاح عملية الهجرة وتأمينها ضد كل محاولات الإحباط التى قد يقوم بها العدو ، فنجحت العملية بأمر الله ، وسجّل القرآن ذلك الحدث الخطير فقال مُذكّراً المؤمنين : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٤٠) .

٣ - بعث رسول الله رجلاً يستدعى له طاغية من فراعين العرب ، فقال الرجل : يا رسول الله ، إنه أعتى من ذلك ، قال : « اذهب فادْعُه لى » . فذهب الرجل إلى الطاغية وقال له : يدعوك رسول الله .

قال : وما الله ؟ أمن ذهب هو أو من فضة أو من نحاس ؟ فرجع الداعية إلى رسول الله وقال له : قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال لى : كذا ، وكذا . فقال رسول الله : « ارجع إليه الثانية فادعه » . فعاد الداعية إلى الطاغية فأعاد عليه هذا مثل الكلام الأول .

وتكرر ذلك الموقف للمرة الثالثة والطاغية يرفض الحضور عند رسول الله ويجادل هزؤاً واستخفافاً ، وبينما هو يتحدث إلى الداعية ويزيد فى المراء جاءت إليه سحابة حيال رأسه ، فرعدت ووقعت منها صاعقة ذهبت بقحف رأسه .

ونزل القرآن يقول : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ (الرعد : ١٣) .

٤ - كذلك تدخلت الملائكة فى غزوة بدر التي كانت أول المعارك الحاسمة فى تاريخ الإسلام وأعظمها خطراً ، وسجّل القرآن ذلك الحادث الجليل فقال :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ *

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال : ٩ – ١٢) .

٥ – وكذلك تدخلت قُوَى عظمى فى غزوة الأحزاب وكان للملائكة عمل حاسم نصر المسلمين آنذاك بعد موقفهم المتدهور . وفى هذا يقول القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا .. ﴾ (الأحزاب : ٩ – ١١) .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب : ٢٥) .

إن تدخل الملائكة وغيرها من القُوَى التى لم يتعود على إدراكها البَشر يعنى حدوث معجزة وآية وعجيبة ، وهذه جميعها مرادفات للقوة حسبما اصْطُلِحَ عليها فى الكتاب المقدس .

هذا .. وبعد أن عرضنا شيئاً من معجزات الحوادث باعتبارها عجائب أيَّدَ الله بها رسوله ، ننتقل الآن للحديث عن المعجزة الخالدة : معجزة القرآن .

* * *

● معجزة القرآن :

ماذا أقول فى معجزة القرآن ...

هل يمكن أن يأتى الحديث عن الإعجاز القرآنى مندرجاً تحت موضوع فرعى من جملة موضوعات يشتمل عليها واحد من فصول هذا الكتاب ؟

كلا ... فالأمر أكبر من ذلك .

بَيْدَ أنى سأحاول أن أقول كلمات متفرقات تشير إلى ملامح هذا البحر الزاخر ، لعلها تُعين على رسم صورة - ولو من بعيد - لحقيقة معجزة القرآن .

*

المعجزة وسيلة لا غاية ... هكذا يشهد تاريخ الرسالات .

فهى وسيلة تُعين على الإيمان بالله ورسالاته حتى إذا آمن الناس التزموا بالمنهج الإلهى الذى يضمن لهم الخير فى الدنيا والآخرة .

لقد كان عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام على تلك الحال المعروفة وأقل ما يقال فى أمرهم أنهم كانوا على هامش الحياة ، فلما جاءهم القرآن وأسلموا لله وتمسكوا بمنهاجه ، أحيا الله مواتهم فطلعوا على العالَم بحضارة قوامها الدين والدنيا ، وكان لهم من جِماع الأمر ما أذهل العالم ولا يزال - حتى الآن .

يقول فيليب حتى : « لو قام فى الثلث الأول من القرن السابع الميلادى أحد وتكهن بأن دولة خامدة الذكر وضيعة الجانب تخرج من مجاهل جزيرة العرب ، ثم تنقض على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقوِّض الدولة الواحدة - دولة آل ساسان - وتظفر بأملاكها ، ثم تقطع من ولايات الثانية - بيزنطة - أزهى مقاطعاتها ، نقول : لو صدرت مثل هذه النبوءة من فم إنسان ذلك العصر لَحُكِمَ عليه بالجنون .

والواقع أن هذا ما حدث فعلاً . فبعد الرسول تغيَّرت طبيعة بلاد العرب الجدباء ، وأخذت تُنشىء رجالاً أبطالاً يندر وجود مَن يشاركهم فى أى صقع

كان ، فكأن أعجوبة حلّت فيها .. **إن عظمة الجيش العربى لم تقم على قوة السلاح أو جودة التنظيم ، بل كان ثمرة القوة المعنوية الروحية التى كان الإيمان والدين قد عززاها فى نفسه ..**

لقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب .. ولقد انفتح أمام الأمم المغلوبة باب الحرية فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون إزعاج » [١] .

لقد أثبتت المعجزة نفسها ولم تعد فى حاجة إلى برهان .

ومع ذلك سوف نتحدث عن شىء من أوجه الإعجاز القرآنى .

*

معجزات يس

نفرض أن العالم لم يعرف إلا كتاباً مقدساً واحداً جاء به مَن يقول للناس إنه رسول الله ، فالناس المسئولون أمامه صنفان : مؤمن به ومُصدِّق له ، أو كافر به ومُكذِّب له . فإذا وجدنا طائفة من الناس تنتمى للصنف الأول فلا حاجة لهم إذن بالحديث عن معجزات النبى وكتابه فلقد آمنوا به وانتهى الأمر . وأما الصنف الثانى من الناس – وهم الكفار والمكذبون – فهؤلاء فى موقف يقتضى بيان إعجاز الكتاب ومعجزات النبى حتى يكونوا على بيِّنة من الأمر ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [٢] – و ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [٣] . فالأمر جد خطير لأنه يتعلق بمصير الإنسان الأبدى .

ومما لا شك فيه أن هناك نوعاً من المعجزات يجب تنحيته جانبًا عند البرهنة على أن هذا الكتاب أو ذاك إنما هو وحى الله الذى نزل من السماء ، وأعنى هنا

---

(١) تاريخ العرب – تأليف الدكتور فيليب حتى وآخرين (جامعة برنستون) – مترجم عن الإنجليزية . دار الكشاف – بيروت – ١٩٤٩ ص – ١٩٣ ، ٢٣١

(٢) الأنفال : ٤٢ (٣) النساء : ١٦٥

ما اصطلحنا على تسميته بمعجزات الحوادث . وما ذلك إلا لكونها أحداثاً شغلت حيزاً من المكان والزمان وكانت حُجة على مواقعيها ومَن كانوا شهوداً لها ، ثم انقضى أمرها وصارت ماضى يستطيع العقل البَشرى فى مختلف العصور اللاحقة لعصرها أن يُثير حولها من الشبهات والأضاليل ما يجعلها حَجَر عثرة فى طريق الإيمان ، بدلاً من أن تكون وسيلة تُعين عليه .

وننتقل من الإجمال إلى التفصيل فنفرض أنه التقى مجموعة من الداعين إلى أديانهم فى حديقة عامة - ولتكن حديقة هايدبارك بلندن - ثم قام كل منهم يعرض على جمع من الملاحدة دينه معتمداً أولاً وأخيراً على معجزات الحوادث - فماذا يقولون ؟

يقول اليهودى : منذ ٣٣ قرناً مضت وقف موسى وهارون أمام فرعون مصر « وطرح عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً . فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسَحرة .. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصا موسى ابتلعت عصيهم » .

ومنذ ٢٨ قرناً أحيا إيليا ابن المرأة الأرملة حين صلّى « إلى الرب وقال : يا رب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش » .

إن دين اليهودية هو دين اللّه الحق !

ويقول المسيحى : منذ أكثر من ١٩ قرناً قدّموا للمسيح « مجانين كثيرين فأخرج الأرواح بكلمة وجميع المرضى شفاهم » .

وجاء « واحد من رؤساء المجمع اسمه بايروس .. قائلاً : ابنتى الصغيرة على آخر نسمة . ليتك تأتى وتضع يدك عليها لتشفى .. فجاء إلى بيت رئيس المجمع .. وقال لهم : لم تمت الصبية لكنها نائمة .. وأمسك بيد الصبية وقال لها : طليثا قومى .. وللوقت قامت الصبية ومشت » .

إن دين المسيحية هو دين اللّه الحق !

ويقول المسلم : منذ ١٤ قرناً أُصيبت عين قتادة بن النعمان فى غزوة أُحد فسالت حدقته فردها محمد رسول الله إلى موضعها ، فكان قتادة لا يدري أيهما أصيبت إذ قد شفيت عينه تماماً .

وذبح جابر بن عبد الله داجناً كانت فى منزله وطبخها ثم حملها إلى رسول الله فأمره أن يدعو الأنصار فأدخلهم عليه أرسالاً فأكلوا كلهم ، وكان رسول الله يأمرهم أن يأكلوا ولا يكسروا عظماً . ثم إنه جمع العظام فى وسط الجفنة فوضع يده عليها ثم تكلم بكلام خفيض فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها . فقال الرسول : « خذ شاتك يا جابر ، باركَ الله لك فيها » .

إن دين الإسلام هو دين الله الحق .

إذا حدث ذلك وقدَّم الداعون أديانهم إلى الناس اعتماداً على تلك الحوادث فما هى النتيجة ؟ إن النتيجة المؤكدة لذلك هى الرفض : رفض الدعوة والاستماع للداعين .

والحق أن هذا المشهد الذى تصورناه قد حدث شىء منه أمام كاتب هذه السطور ، وكان ذلك فى يوم سبت من شتاء عام ١٩٦٤ حين وقف قس مسيحى فى أحد الشوارع القريبة من حديقة هايدبارك ومعه نسخة من الكتاب المقدس وسلم خشبى مزدوج اعتلاه وبدأ يُقَدِّم موعظة للسامعين تذكر بعض معجزات الحوادث وتردد أفكار بولس . فانبرى له من الحاضرين شاب إنجليزى جامعى ، اشتبك معه فى حوار ساخن وكان مما قاله الشاب : دع ما فى الكتاب وحدثنى عما تُقَدِّمه لى الآن .

إن ما فى الكتاب شىء انتهى منذ زمان ، أما اليوم فماذا تقول لى ؟

وتدخل بعض الحاضرين فى الحوار الذى لم يلبث أن تحوَّل إلى معركة كلامية عنيفة بين البروتستانت والكاثوليك استُخدمت فيها أقسى الشتائم والألفاظ الجارحة !

نعم .. إن الحديث عن معجزات الحوادث هو حديث عن الماضى الذى ولّى وغـاب ، وهو حديث لا يُقدِّم برهاناً لإيمان المحدَثين ، لكنه يأتى نتيجة لإيمانهم الذى يبدأ حين يروا الآيات حاضرة بين أيديهم .

*

والآن .. ماذا نقرأ فى القرآن الكريم ؟

يقول الحق تقريراً عن الحاضر ، الآن وكل آن :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سبأ : ٦) .

ويقول الحق تقريراً عن المستقبل وهو لم يزل بعد بظهر الغيب إلا أنه فى زمن ما سيكون حاضراً يعيشه الناس :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣)

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل : ٩٣) .

وبين **ياء المضارع** فى كلمة « يرى » **وسين المستقبل فى** كلمتى « سنريهم » و « سيريكم » نشهد آيات الله رأى العين ونتيقنها ملء العقل والبصيرة . ومن حقنا الآن أن نقول : **إن معجزات ياسين هى** معجزات كل العصور ومن بينها العصر الحديث . ولا علينا بعد ذلك إذا كتبناها هكذا : **معجزات يس** .. ثم لننظر الآن بعضاً من هذه المعجزات التى نكتفى بذكر ثلاثة أوجه منها فقط يستطيع الإنسان مشاهدتها فى القرآن الكريم وهى : الإعجاز العلمى - التحدى بالغيب - ثم القرآن والكتب المقدسة السابقة - وفيما يلى عرض مجمل لكل من هذه الوجوه .

*   *

١ - الإعجاز العلمى فى القرآن

كلمة عن الإعجاز اللُّغوى : مضى أكثر من ألف عام والباحثون فى إعجاز القرآن يرون له أوجهاً مختلفة ، وإن كانت جميعها - فى رأيى - جاءت نتيجة لنظرهم إليه من زاوية واحدة هى لغة القرآن وما تشتمل عليه من ألفاظ ومعانى ونَظْم . فالقرآن كلام من جنس كلام العرب ولكن قوته الإلهية فعلت بهم الأعاجيب إذ أحيتهم بعد موات وأخرجتهم من ظلمـات شتَّى إلى نور الحق والحياة .

وإذا كانت عصا موسى واحدة من أفرع شجرة زيتون أو رمان ، قطعها يوماً ليتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ، فإذا بها تتحوَّل بعد الرسالة فى يده إلى شىء آخر مُعْجز : حية تسعى ، وقوة تفلق البحر فتضرب به طريقاً يبساً ، وتُفَجِّر من الحجارة أنهاراً - فهكذا يمكن القول عن كلام القرآن بأن إعجازه الحقيقى يكمن فى فيضه الإلهى الذى غلب العرب على أمرهم - وهم أهل الكلام - فأخذهم بروعته وأصاب منهم لُباب الأفئدة ومجامع الأحاسيس .

*

ولقد وُفِّقَ قدامى الباحثين فى بيان أوجه الإعجاز اللُّغوى للقرآن وكان من أمثلة ما قالوه فى إعجاز نَظْمه ما عرضه عبد القاهر الجرجانى - المتوفى عام ٤٧١ هـ - فى الآية رقم (١٠٠) من سورة الأنعام التى تقول :

﴿ وَجَعَلُواْ للَّه شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

يقول عبد القاهر : « ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة ومأخذاً فى القلوب .. إنك لا تجد شيئاً منه إذا أخَّرْتَ فقلتَ : وجعلوا الجن شركاء للّه ..

والسبب فى ذلك .. هو أن للتقديم هنا فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير . وبيانه : إنَّا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع اللّه وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع

التقديم ، فإن تقديم « الشركاء » يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغى أن يكون له شريك .. لا من الجن ولا من غير الجن » (١) .

*

والذى لا جدال فيه هو أن روعة القرآن كانت هى القوة القاهرة التى غشيت من ألقى إليه السمع من العرب ، فلم يلبث أن استجاب له وتحمل فى سبيله كل أذى وضيق .. والحق يقول فى سورة الأنعام ٣٦ : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ .

ولا تزال روعة القرآن إلى الآن هى سر إلٰهى - يماثل الروح فى الجسد - يفيض على الباحثين عن الحق فيخرون ﴿ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ (٢) . ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٣) .

يقول القس السابق إبراهيم خليل فيلبس الذى أعلن إسلامه فى عام ١٩٥٥ : « نصبت راعياً وقسيساً للكنيسة الإنجيلية بباقور محافظة أسيوط سنة ١٩٥٢ فى حفل رائع تحدثت عنه كل الصحف الدينية وقتئذ وذاع نشاطى الدينى بين المرسلين الأمريكيين ولا سيما فى العمل التبشيرى بين المسلمين . وكنت أعتمد فى هذا المضمار على النفوذ الإنجليزى بالبلاد وقتئذ (من سنة ١٩٤٥ - ١٩٥٥) حتى انتدبنى سنودس النيل الإنجيلى للتدريس بكلية اللاهوت بأسيوط لكنيسة نهضة القداسة التابعة للإرسالية الإنجليزية الكندية .

ثم تهافتت علىَّ الإرسالية الألمانية السويسرية بأسوان للعمل كسكرتير عام للإرسالية وتم انتدابى فى سنة ١٩٥٤ وهناك قمتُ بعمل تبشيرى سافر فى المنطقة من الدكا بأراضى النوبا إلى إدفو جنوباً . وكان معقل نشاطى مستشفى الجرمانية حيث يتوافد عدد من المسلمين والمسلمات للاستشفاء والعلاج .. كما

(١) دلائل الإعجاز : ص ٢٢١ (٢) الإسراء : ١٠٧ (٣) الإسراء : ١٠٩

كانت لى ندوات تبشيرية مع رجالات مسلمى أسوان .. واستطعتُ أن أقوم بنهضات دينية رائعة دعوتُ لها كبار الشخصيات ..

ومن العجب العُجاب أننى فى نشوة انتصاراتى بالعمل التبشيرى وفى فترة إعداد نفسى لنيل درجة دكتوراة فى الفلسفة واللاهوت من جامعة برنستون بأمريكا ، وفى استعدادى وإعدادى للرسالة التى أسميتها « سيف جليات » (١) أردتُ الهجوم على الإسلام بمهاجمة القرآن . **ويشاء الله أن يقهرنى بالقرآن الكريم ليُسمعنى صوته بقوله تعالى** : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِىَ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ (٢) .

كان لهذه الآية وقع فى نفسى ، إذ جعلتنى أفكر تفكيراً حراً نزيهاً ، وأحسستُ بأن الله الذى علّمنى ما لم أعلم يستطيع أن يجردنى من العلم والمعرفة ويتركنى للذل والهوان . لكن إرادته لهدايتى جعلته يفيض علىّ من أنوار هذه الآية ما أيقظ ذهنى وقلبى ووجهنى إلى إرادته ومشيئته .

والحق أن ما قرره القرآن الكريم هو الصدق اليقينى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ (٣) .

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ (٤) .

« الحمد لله الذى هدانى لهذا ، وما كنتُ لأهتدىَ لولا أن هدانى الله » (٥) .

* *

إن روعة القرآن هى التى فعلت – ولا تزال تفعل الأعاجيب ، ليس فقط بين الذين ورثوا العربية لساناً يتحدثون به ، بل أيضاً بين ذوى الألسنة الأعجمية – غير العربية – الذين إذا سمعوا القرآن يُرَتَّل أو يُتَغَنَّى به ، اطمأنت به قلوبهم

---

(١) التسمية مأخوذة من المعركة التى انتصر فيها النبى داود على جالوت .

(٢) الجن : ١ – ٢ (٣) الأنعام : ١٢٥ (٤) الزمر : ٢٢

(٥) الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية – تأليف : إبراهيم خليل أحمد – ص ١٤ – ١٥

وجلسوا بين يديه خاشعين بعد أن شعروا أنه شفاء لما فى صدورهم بصرف النظر عن أسباب تلك الحالة وتعلاّتها .

* *

● **الإعجاز العلمى ليس بمستحدث** : مَن يقرأ قول الحق : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون : ١٢ - ١٤) .

ومن يقرأ قول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ (النور : ٤٣) .

ومن يقرأ قول الحق : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(العنكبوت : ١٩ - ٢٠) .

ثم أخيراً - وليس آخراً - مَن يقرأ قول الحق : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

مَن يقرأ بعضَ أو كل هذه المجموعات الأربع من آيات القرآن الكريم - سواء أكان فى عصر العلم الذى نعايشه ، أو فى العصر الذى سبقه منذ قرون - سوف يعلم يقيناً أنها تتحدث عن ظواهر كونية بلغة جديدة على أسماع العالَمين .. لغة العلم الحديث .

لقد لاحَظَ شيوخ المفسِّرين منذ قرون عديدة وجه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم وسجّلوا ذلك فى كتبهم ، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره لقول الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .

(فصلت : ٥٣)

فقد قال ابن كثير : « سنُظهر لهم » دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله - ﷺ - بدلائل خارجية (فى الآفاق) ودلائل فى أنفسهم .. **ويُحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركّب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى** » .

حين نقول - إذن - إن الإعجاز العلمى للقرآن يمس ما نعرفه من علوم حديثة بمسمياتها مثل علوم : الأجِنّة ، والطبيعة الجوية ، والجيولوجيا ، ونشأة الكون ، وبناء الخلية الحيّة - وهو ما تمثله المجموعات الأربع من الآيات السابق ذكرها على الترتيب ، فإننا فى الواقع لا نأتى بجديد من ناحية الشكل أو الإطار العام ، وإنما الجديد هو المزيد من وضوح الرؤية وتعدد الآيات وتنوعها ، ودقة التفاصيل .

وإذا كان لا يزال يوجد بيننا اليوم نفر من كُتّاب المسلمين الذين يترددون فى الحديث عن الإعجاز العلمى للقرآن إكتفاءً بكونه معجزة أثبتت نفسها بما فعلت فى العرب والعالم ، فلا شك أن هذا الموقف الجامد لم يعد له ما يبرره بعد أن انفتحت أعين الكثير من العلماء - مسلمين وغير مسلمين - على حقائق من الإعجاز العلمى للقرآن .

*

منذ نحو خمسين عاماً مضت كتب شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغى تقديماً لكتاب « حياة محمد » لمؤلفه الدكتور محمد حسين هيكل وكان مما قاله :

« يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلٰهى لدقائق الوجود ، **وأنا أقرر أيضاً أن العلم والكشف عن سُنَن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين (الإسلامى) وسيُقرِّب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان**

غامضاً مبهماً ، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1] .

والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء » [2] .

*

واليوم يكتب شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود مقالاً عن « موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة » فيقول :

« قد يتساءل إنسان عن نوعية العلم الذى يدعو إليه الإسلام ..

إن العلم الذى يدعو إليه الإسلام هو العلم بالطبيعة والأحياء ، والكيمياء ، والطب وغير ذلك من العلوم المادية ، وهو بالضرورة أيضاً علم الدين ، من تفسير ، وحديث ، وفقه .. وإن الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [3] إنما وردت فى معرض الحديث عن الكونيات المادية .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ ﴾ وما من شك فى أنه بمقدار تعمق الإنسان فى الجانب العلمى على أساس من الإيمان وفى صدق وإخلاص تكون خشيته لله ؛ إنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان فى الخلق ، ومن الحكمة فى التدبير ما يجعله يسجد لمبدع الكون ومنسقه ..

وإن هؤلاء الذين يتصلون مثلاً بعلم التشريح من قرب أو يتخصصون فيه ، يرون من الإحكام المُحْكَم ومن الدقة الدقيقة فى مختلف الأجهزة الجسمية ، وفى

---

(١) فصلت : ٥٣

(٢) الطبعة الثالثة عشر : ص ١٥ ، ١٦ - دار المعارف بمصر .   (٣) فاطر : ٢٨

مفردات هذه الأجهزة ما يضطرهم اضطراراً إلى السجود لرب هذا التنسيق والترتيب والإبداع .

وليس علم التشريح وحده هو الذى يُبهر العالِم المتبحر فيه ، وإنما يُبهر علم الفَلَك العالِم الفلكى .

إنه يرى هذه النجوم التى لا تكاد تُعَد تسير فى هذه السعة الكونية الهائلة فى ترتيب وتناسق وإحكام ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) .

وعالِم الأحياء وهو يتأمل عوالمه ، ويفاجأ كل يوم بجديد وغريب وبديع فيها . إن هؤلاء جميعاً وغيرهم يجدون أنفسهم لا محالة أمام صنع الله الذى أتقن كل شىء صنعاً فيقولون مع القرآن الكريم : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ * الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٢) .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

لقد أحدث الإسلام فى الدنيا – بموقفه هذا من العلم – نهضة علمية ، كان من ثمارها الحضارة الإسلامية التى كانت تسمى البحوث فى الطبيعة وفى الكون هذه التسمية الجميلة : « العلم بسنن الله الكونية » . **فعلم الطبيعة فى الصورة الإسلامية هو العلم بسنن الله الكونية** » (٤) .

---

(١) يس : ٤٠ .　　(٢) الملك : ١ – ٤　　(٣) فاطر : ٢٨

(٤) مجلة الأزهر : عدد رجب ١٣٩٧ هـ (يوليو ١٩٧٧ م) .

إن حقيقة الإعجاز العلمى للقرآن لم تعد قضية تقبل الجدل فقد أقرَّ بها شيوخ التفسير منذ قرون وحسمها شيوخ الأزهر فى العصرالحديث ، وشهد بها رجال العلم الحديث مسلمين وغير مسلمين .

*

● من شهادات العلماء :

قام الطبيب الفرنسى « موريس بوكاى » بعمل دراسة دقيقة وجادة فى الكتب المقدسة والعلم ، ونشرها بالفرنسية تحت عنوان :

(La Bible, Le Coran et la Science)

وقد نشرت « دار المعارف » ترجمتها العربية تحت عنوان « **دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة »** . وإذا كان جوهر هذه الدراسة ينحصر فى مقابلة نصوص الكتاب المقدس - بعهديه القديم والجديد - والقرآن بحقائق العلم ، فإن المؤلف قدَّم لدراسته هذه بالبحث فى التوراة والأناجيل والقرآن ودراستها النقدية وكيفية جمعها ودرجات الدقة لنصوص كل منها .

وقد اضطره ذلك إلى تعلم اللُّغة العربية حتى يستطيع الحديث عن القرآن وتفسيراته حديث الواثق الذى ينهل من الأصل مباشرة ، فيتجنب بذلك التفاوت والأخطاء التى قد تتعرض لها عملية الترجمة .

يقول « موريس بوكاى » فى مقدمة كتابه :

« لقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور .

ففى البدء قيل إن إتفاق العلم والكتب المقدسة أمر لازم لصحة النص المقدس .

وسوى نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جداً ، خلافاً لقلتها فى التوراة ، إذ ليس هناك أى وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية ، وبين تعدد وكثرة

الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن ، **وإنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية . وتلك هى النتيجة الأساسية التى تخرج بها دراستنا .**

هذه التأملات حول الصفة المقبولة أو غير المقبولة علمياً لمقولة فى كتاب مقدس تتطلب منا إيضاحاً دقيقاً . إذ علينا أن نؤكد أننا عندما نتحدث هنا عن حقائق العلم فإننا نعنى بها كل ما قد ثبت منها بشكل نهائى . وأن هذا الاعتبار يقضى باستبعاد كل نظريات الشرح والتبرير التى قد تفيد فى عصرنا لشرح ظاهرة ولكنها قد تلغى بعد ذلك تاركة المكان لنظريات أخرى أكثر ملاءمة للتطور العلمى . وإن ما أعنيه هنا هو تلك الأمور التى لا يمكن الرجوع عنها ، والتى ثبتت بشكل كاف بحيث يمكن استخدامها دون خوف الوقوع فى مخاطر الخطأ ، حتى وإن يكن العلم قد أتى فيها بمعطيات غير كاملة تماماً .

وعلى سبيل المثال فإننا نجهل التاريخ التقريبى لظهور الإنسان على الأرض ، غير أنه قد اكتشفت آثار لأعمال بشرية نستطيع وضع تاريخها فيما قبل الألف العاشرة من التاريخ المسيحى دون أن يكون هناك أى مكان للشك . **وعليه فإننا لا نستطيع علمياً قبول صحة نص سفر التكوين الذى يعطى إنساناً ، وتواريخ تحدد أصل الإنسان (خلق آدم) بحوالى ٣٧ قرناً قبل المسيح .. وبناءً على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقدم الإنسان غير صحيحة .**

لقد قمتُ أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث . وكنتُ أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى **استطعتُ أن أحقق قائمة أدركتُ بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث »** (١) .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ص ١١ - ١٣

بعد هذه المقدمة عرض « موريس بوكاى » لأصل الكتاب المقدس وأسفاره ومواقف الكُتّاب المسيحيين تجاه الأخطاء العلمية فى نصوص العهد القديم ودراستها النقدية ، ثم تعرَّض للأناجيل ومصادرها وما وصفه بـ « تناقضات وأمور غير معقولة فى الروايات » .

ثم تحدَّث عن القرآن وصحة النص وتاريخ تحريره وجمعه ومقابلة المعطيات القرآنية عن الخَلْق وعلم الفَلَك ، وعالَم النبات وعالَم الحيوان ، والتناسل الإنسانى ، ثم قام بموازنة بين القرآن وكل من الأناجيل والعهد القديم والمعارف الحديثة - ثم انتهى من بحثه الطويل هذا إلى خاتمة أثبت بها خلاصة ما انتهى إليه .

وفى بدء حديثه عن « القرآن والعلم الحديث » قال :

« لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية . فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كُتِبَ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

فى البداية لم يكن لى أى إيمان بالإسلام . وقد طرقتُ دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مُسَبَّق وبموضوعية تامة . وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعليم الذى تلقيته فى شبابى حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن المعنى به دين أسَّسه رجل ، وبالتالى فهو دين عديم القيمة تماماً إزاء الله . وككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظاً بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام وهى على درجة من الانتشار بحيث إننى أدهش دائماً حينما ألتقى خارج المتخصصين بمحدِّثين مستنيرين فى هذه النقاط . أعترف إذن بأننى كنت جاهلاً قبل أن تُعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيناها فى الغرب .

وعندما استطعتُ قياس المسافة التى تفصل واقع الإسلام عن الصورة التى اختلقناها عنه فى بلادنا الغربية شعرتُ بالحاجة المُلِّحة لتعلم اللُّغة العربية التى لم

أكن أعرفها وذلك حتى أكون قادراً على التقدم فى دراسة هذا الدين الذى يجهله الكثيرون . وكان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعيناً بمختلف التعلقيات اللازمة للدراسة النقدية . وتناولتُ القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات (الظواهر) الطبيعية .

لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه (الظواهر) وهى تفاصيل لا يمكن أن تُدْرَك إلا فى النص الأصلى ، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه (الظواهر) والتى لم يكن ممكناً لأى إنسان فى عصر محمد أن يُكَوِّن عنها أدنى فكرة .

إن أول ما يثير الدهشة فى روح مَن يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالَجة فهناك الخَلْق وعلم الفَلَك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالَم الحيوان ، وعالَم النبات ، والتناسل الإنسانى .

وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكتشف فى القرآن أى خطأ » [1] .

*

ثم كان من جملة ما انتهى إليه « موريس بوكاى » فى خاتمة بحثه أن قال :

« إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللّذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يُظهر أيضاً – لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم – طابعه الخاص ، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . بل أكثر من ذلك وكما أثبتنا ، يكتشف القارىء فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنساناً فى عصر محمد – ﷺ – قد استطاع أن يؤلفها ، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التى كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن .

(١) المرجع السابق : ص ١٤٤ – ١٤٥

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تُبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة ، ولقد رأينا دليلاً على هذا من خلال روايتى الخلق والطوفان .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بَشر ، وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد - ﷺ - **لذا فمن المشروع تماماً أن يُنظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله ، وأن تُعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو وكأنها تتحدى أى تفسير وضعى .**

عقيمة حقاً تلك المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية » [1] .

* *

٢ - التحدى بالغيب

الإيمان بناء أساسه الغيب ...

لكنه بناء قَوامه البرهان ، وإلا تساوت المتضادات ، فاستوى النور والظلمات ، واستوى الأحياء والأموات ... وهذا محال .

فلم يشهد أحد من البَشر خلق السموات والأرض ، ولم يشهد بنو آدم خلق أنفسهم ، لكن المؤمنين منهم يؤمنون بالغيب ، فهم يؤمنون بقصة « الخلق » حسبما ترويها كتبهم المقدسة ، وإن اختلفت بينها الروايات .

ولم يشهد أحد من الأجيال المتأخرة - التى بَعُدَ بها الزمان - الأنبياء والمرسلين وهم يلقون قول الله ، ويبثون التعاليم ، ويتحدثون إلى الناس عن

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٨٥ - ٢٨٦

الملائكة والبعث والجزاء ، لكن المؤمنين من الناس يؤمنون بالغيب ، فهم يؤمنون بهم وبما أُثِرَ عنهم ويؤمنون بالملائكة والقيامة والثواب والعقاب .

وإذا تصوَّر الإنسان أنه يستطيع الاستغناء عن معرفة الماضى بكل ما فيه ، فلا مجال على الإطلاق لإمكانية استغنائه عن معرفة المستقبل الذى ينتظره بعد الموت . إنه المستقبل الغيب ، وهو المستقبل الخطير الذى يحدد مصيره الأبدى .

ويقودنا هذا إلى التسليم بأنه : إن لم يكن الغيب أولاً ، فإنه الغيب أخيراً .

من ذلك نتبين خطورة حديث الغيب فى الكتب المقدسة ، واعتباره برهان صدق على ما يأتى به الزمان بشرط - واحد على الأقل - أن يصدق حديثها عن كل ماض سبق أن تنبأت بشأنه من أحداث .

وللغيب فى القرآن مقامه الذى يحظى به ، ويكفى أن ننظر أول المصحف فتطالعنا هذه الآيات :

﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة : ١ - ٥)

ولحديث الغيب فى القرآن آيات تُغنى كل مَن يقبل الإيمان القائم على برهان ، وأما أولئك الذين حددوا مسبقاً مواقفهم منه ، وأصروا على الجحود والنُكران ، فقد صاروا بإرادتهم الحرة هم ﴿ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (يونس : ٩٦ - ٩٧) .

ففى قضية الإيمان يقول الحق : ﴿ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ١٠١) .

هذا .. ولسوف نعرض بعضاً من أنباء غيب المستقبل الذى يتحدى به القرآن الكفار والجاحدين منذ نزل وحياً على رسول الله حتى يأتى أخطر غيب فى حياة البَشر ، ألا وهو يوم الدين .

*

● التنبؤ بهزيمة الكفر :

منذ بدأ القرآن فى التنزيل وهو فى تحد مباشر لخصوم دين الله الذين أغلقوا عقولهم دونه وأعلنوا الحرب على أتباعه . ولما كان أشد خصومه هم سادة قريش وكبراءها وكان المسلمون الأوائل على قلة فى العدد والقوة لكان المتوقع – وفق مقاييس البَشر وخبراتهم – أن تكون أوائل آياته ليِّنة مع أولئك الخصوم والمعاندين طالما بقى ميزان القُوَى فى غير صالح المسلمين .

لكن الأمر جاء على عكس ما يتوقعه البَشر من الحكماء والمفكرين ...

لقد بدأت آياته قوية الحملة على الكافرين واستمرت كذلك حتى اكتمل الدين . إنها قوية لأنها الحق المطلق الذى لا يعرف فى مواجهة الباطل ولو أقل القليل من المهادنة أو المداهنة .

وهى قوية أبداً لأنها كلام الله رب العالمين ...

*

لقد تنبأ القرآن – فى ثانية سوره نزولاً – بمقتل الزعيم القرشى الوليد بن المغيرة بضربة حدَّد موقعها على أنفه ، وذلك بعد أن فضح أصله وكشف سرائر نفسه ، فقال مخاطباً الرسول :

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (القلم : ٩ – ١٦) .

ثم مرت الأيام والشهور ونزل كلام الله يتوَّعد ذلك العُتُل القرشى بعذاب الآخرة الذى ينتظره جزاء موته على الكفر ، وذلك بعد أن فضح خلجات نفسه وشكوكه وهواجسه بل وتقلصاته ، فقال :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر : ١١ - ٢٩) .

ثم تمضى السنون .. ثلاث عشرة سنة أو نحوها وإذا بالوليد بن المغيرة يُقْتَل فى غزوة بدر بضربة على أنفه .

لقد زهقت نفسه كافراً - كما تنبأ القرآن - خلال سنوات تم خلالها تحول الكثيرين من الكفر إلى الإسلام .

وبالمثل كانت نبوءة القرآن فى أبى لهب - عم النبى - والذى كان من أشد الناس عداوة له وإيذاءً ، فنزلت فيه سادسة السور نزولاً تنبأ له بالعذاب جزاء كفره المستمر فتقول : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴾ (سورة المسد) .

وكما هو معلوم فإن القرآن منذ بدأ تنزيله وآياته تُذاع فور تلقيها ، يقرؤه النبى على المؤمنين ويقرؤنه جميعاً تعبداً وتبركاً والتزاماً . فحين نزلت هذه السورة ذاع خبرها فوراً وكان أن سمعت بها أم جميل بنت حرب امرأة أبى لهب « فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر . فقالت : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية (المسجد) . ما ينطق بالشعر ولا يتفوّه به » .

والحق ما قاله أبو بكر ، لأن الذى هجاها وتوّعدها هى وزوجها أبا لهب إنما هو الله - سبحانه - ولو كانت الأمور تسير على هوى الرسول لآثر المهادنة ولين

الحديث فى بدء الدعوة – على الأقل – والمسلمون آنذاك ضعاف ، لكنه القرآن كلام رب العالمين فُرِضَ على الرسول فرضاً وما عليه إلا أن يصدع بما يؤمر لأنه ليس له من الأمر شيء إذ أن الأمر كله لله .

ولقد عاش أبو لهب بعد هذه النبوءة أكثر من ثلاثة عشر عاماً إلى أن مات على كفره . وكان باستطاعة أبى لهب وامرأته والوليد وأمثالهم أن يتظاهروا بالدخول فى الإسلام كيداً له وطعناً فى صدق محمد ورسالته ، لكن هذا الأمر على بساطته استحال عليهم فعله تحقيقاً لنبوءات القرآن كلام رب العالمين .

*

وإذا تركنا التنبؤ بالأحداث على المستوى الفردى – وهو لا شك مُعجز ودقيق– لوجدنا القرآن ينبىء كذلك بالأحداث على المستوى الجماعى . فلقد قرَّر أن جمع الكافرين سيلقى الهزيمة فى معركة ضد المسلمين يولى فيها الأدبار ، وذلك حين قال عن الكفار وتوقعاتهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٤ – ٤٥) .

إن القرآن يتنبأ هنا بما سوف يحدث لهم فى الدنيا ، لأن الآخرة لا مكان فيها لتولى الأدبار والفرار .

ولقد بيَّن القرآن أن دحرهم فى الآخرة شيء آخر ينتظرهم ، وهو بطبيعة الحال أشد وأنكى . ولذلك أتبع آية النبوءة السابقة بقوله :

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

(القمر : ٤٦ – ٤٨)

لقد كان المسلمون حين نزلت آية النبوءة هذه على حال من الضعف الشديد ، حال لا تسمح بتصور تحقيق أى انتصار على قُوَى الكفر التى تبطش بهم ، وهى حال دفعت عمر بن الخطاب – الذى عُرِفَ

طيلة حياته بقوة البناء النفسى والبدنى - لأن يقول : « أى جمع يُهزم ! أى جمع يُغلب » !

وما هى إلا سنوات حتى كانت معركة بدر الكبرى ، وفيها هُزِمَ جمع الكفار وولوا الأدبار .

* * *

- التنبؤ بانتصارالإسلام :

إن التنبؤ بانتصار الإسلام مرادف تماماً للتنبؤ بهزيمة الكفر فالنتيجة واحدة فى الحالتين .

وإذا كان القرآن قد بدأ الحديث عن هزيمة الكفر قبل أن يبدأ الحديث عن انتصار الإسلام ، فلأن ذلك يماثل مهاجمة الأعداء فى عقر دارهم وإخراجهم منها أذلة وهم صاغرون .

وإذا كان القرآن قد بدأ بالتحدى على المستوى الفردى فلأن ذلك أشد وقعاً وأعمق أثراً ، إذ أنه يدفع رءوس الكفر إلى ضرورة المواجهة وقبول التحدى ، وإلا انفضح أمرهم وانكشف ما هم فيه من زيف وضلال أمام الخصوم والأشياع - على السواء - فصاروا بذلك مثلاً للزعامة الكاذبة ، وذلك خلافاً لحالة التحدى الجماعى التى قد يجد فيها الكثيرون فرصة للتقاعس عن المواجهة والقعود انتظاراً لما قد يحققه الغد من ظنون وأوهام .

*

هذا .. ولقد تنبأ القرآن بما سيكون عليه أمر النبى فألقى نبوءة صريحة تقطع بحفظه من كل محاولات الكفار لقتله والقضاء عليه - وذلك ما نجده فى قول الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

قالت عائشة : « كان النبى - ﷺ - يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ قالت : فأخرج النبى - ﷺ - رأسه من القبة وقال : « يا أيها الناس انصرفوا . فقد عصمنا الله عز وجل » .

لقد اكتملت رسالة النبى فى حياته ومات ميتة طبيعية على فراشه بين أهله وصحابته فتحققت بذلك نبوءة القرآن تماماً .

* * *

وفى مجال التنبؤ بانتصار بانتصار الإسلام ممثلاً فى انتصار نبيه نقرأ قول الله : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج : ١٥)

ولقد قال ابن عباس - وأصحابه - فى تفسير الآية : « مَن كان يظن أن لن ينصر الله محمداً - ﷺ - فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق به » والمعنى : « أنه مَن كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة » .

إن الكلام واضح تماماً فلقد تحقق نصر الله لرسوله فى الدنيا ، وهو برهان على نصره فى الآخرة : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم : ٨) .

*

ولقد تنبأ القرآن بانتصار الإسلام ليكون ديناً عالمياً فقال متحدياً أهل الكفر والشرك :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف : ٨ - ٩) .

إن الإسلام منذ ظهر وهو يمتد أبداً . ويجب ألا نخلط بين الإسلام وما يتعاقب على المسلمين من أحوال القوة والضعف ، فتلك أمور تتناسب طردياً مع استمساكهم به أو ابتعادهم عنه . إن هذه مسلّمات يعترف بها أعداء الإسلام .

يقول المستشرق الألمانى « باول شمتز » :

« بينما كان الغرب فى القرون الماضية يحرز انتصارات سياسية فى كل مكان فى وسط إفريقيا ، امتد - وما زال يمتد - الزحف الروحى الإسلامى الذى لا يمكن لأحد أن يوقفه وانتصر على المسيحية ، فحيثما حُلَّ الإسلام ضاعت جهود المبشرين المسيحيين وفقدوا الأمل فى تحويل روح وثنية إلى المسيحية . فالإسلام فى تماسكه وبساطته متفوق على المسيحية المبددة جهودها فى نزاعات عقائدية وخلافات مذهبية تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم فيتعسر فهمها ، وليس بالإمكان حل طلاسمها . ولا يغزو الإسلام هذه المناطق عن طريق دخول الناس فيه فرادى بل يحاول غزو القبيلة كلها كوحدة وطنية لأنه لا يوجد دين آخر غير الإسلام يربط الحياة السياسية والدينية ببعضها ويُوَحِّد بين الطبيعة الروحية والدنيوية فى الفرد » [١] .

ويقول المفكر الإنجليزى « هيلبير بلوك » :

« لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً وتحمل فى طيّاتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه . ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية وخاصة ما يتصل بالحرب (القوة العسكرية) فهولم يلحق بالتقدم التكنولوچى

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية : ص ٣١٩

الحديث . إنى لا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوِّض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها الخبرة وتوجيه الخبراء . لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ، وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا (نحن الغربيين) استعادة التعاليم الروحية التى فقدتها المسيحية بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها » [1] .

* *

● **التنبؤ بانتصار الروم على الفُرس :**

بَعَثَ الله محمداً برسالة الإسلام وهو فى الأربعين من عمره ويُقَدِّر المؤرخون أن بدء الوحى كان حوالى عام ٦١٠ م . وفى تلك الفترة كان عرب الجزيرة يعيشون على هامش الأحداث التى يصنعها ذلك الصراع الطويل بين القوتين العظميين فى ذلك الزمان وهما الروم والفُرس .

لقد كان صراعاً تميَّز بطول المعارك وشراستها وأدى إلى اضطرب الأحوال السياسية فى منطقة الشرق الأدنى لمدة طويلة . ويقدم لنا **المؤرخ الإنجليزى « ستيفن رنسيمان »** صورة عن أحوال تلك الفترة من الصراع فيقول : « فى سنة ٦٠٢ استولى على السلطة الرومانية فوكاس قائد إحدى الكتائب الإمبراطورية واغتصب العرش الإمبراطورى وطفح عهده بالهمجية وانعدام الكفاية والاضطراب ، فبينما عانت القسطنطينية عهد إرهاب ، ساد بالأقاليم ما نشب من الفتن والحروب الداخلية بين أحزاب الملعب فى المدن وبين المذاهب الدينية المتنازعة .

وفى سنة ٦١٠ أزاح فوكاس عن العرش نبيل شاب ينتمى إلى أصل أرمنى هو هرقل ابن حاكم إفريقية .

وفى نفس السنة أتم كسرى الثانى ملك الفُرس استعداداته الحربية لغزو الإمبراطورية (الرومانية) وتقطيع أوصالها . استمرت الحروب الفارسية تسع عشرة سنة على

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٣

أن الإمبراطورية ظلت اثنتى عشرة سنة تتخذ خطة الدفاع بينما احتل جيش فارسى بلاد الأناضول وقام جيش فارسى آخر بفتح الشام فسقطت فى أيديهم أنطاكية سنة ٦١١ ودمشق سنة ٦١٣ ، وفى ربيع سنة ٦١٤ دخل فلسطين القائد الفارسى شهرباراز فصار ينهب الأراضى ويحرق الكنائس أينما سار ولم يفلت من يده إلا كنيسة المهد فى بيت لحم لما كان يعلو بابها من فسيفساء تمثل رسم صورة الحكماء القادمين من الشرق فى أزياء فارسية . وفى ١٥ إبريل سنة ٦١٤ اقتحم شهرباراز بيت المقدس ، واستعد البطريرك زكريا لتسليم المدينة ليتجنب سفك الدماء ، غير أن السكان المسيحين رفضوا الاستكانة إلى التسليم ، وفى ٥ مايو سنة ٦١٤ وبفضل مساعدة اليهود المقيمين داخل المدينة شق الفُرس طريقهم إلى داخل المدينة فتلى ذلك من المناظر المريعة ما يجل عن الوصف ، إذ صحب اشتعال النار بالكنائس والدور من حول المسيحين أن تعرضوا للقتل دون تمييز فقام العساكر بالإجهاز على بعضهم بينما زاد عدد الذين لقوا مصرعهم على أيدى اليهود . وبلغ عدد الذين تعرضوا للقتل نحو ٦٠ ألفاً على ما جاء فى بعض الروايات ، وزاد على ٣٥ ألفاً من جرى استرقاقه وبيعه ...

وزحف الفُرس على مصر بعد ثلاث سنوات (٦١٧م) وأضحوا سادتها فى خلال سنة واحدة . وفى تلك الأثناء تقدمت جيوشهم شمالاً حتى بلغت البوسفور .

على أن سقوط بيت المقدس فى أيدى الفُرس كان صدمة عنيفة للعالَم المسيحى ، وما قام به اليهود من دور فى ذلك لم يجر نسيانه أو اغتفاره ، فاتخذت الحرب مع الفُرس صفة الحرب المقدسة . فلما صار هرقل آخر الأمر سنة ٦٢٢ قادراً على أن يتخذ خطة الهجوم على العدو نذر نفسه وجيشه لله ومضى على أنه محارب مسيحى يقاتل قوى الظلمة (الشر) .

واستطاع هرقل آخر الأمر برغم ما جرى من تقلبات عديدة فى الأحداث وما اشتد من القلق واليأس فى أوقات عديدة أن يُنزل الهزيمة الساحقة بالفُرس » [1] .

(١) تاريخ الحروب الصليبية : الجزء الأول - ص ٢٤ - ٢٧

وحين ننظر إلى ما كان عليه الحال عام ٦١٤ فإننا نجد النصر يسير فى ركاب الفُرس على حين تلحق بالروم الهزائم المتواليات . ولكن ذلك العام شهد نزول آيات من القرآن تقول :

﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(الروم : ١ - ٦)

لقد حزن المسلمون لهزائم الروم لما شعروا به نحوهم من روابط القُربَى فى الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين ، **على حين فرح المشركون بانتصار الفُرس أو كما قال المستشرق الألمانى « كارل بروكلمان »** : « **هلل المكيون لهذه الانتصارات الفارسية ولكن محمداً أعلن أتباعه أن الهزيمة لا بد أن تحل بالفُرس فى وقت قريب** » [١] .

لقد كان النبى يعلن الناس من حوله بكل ما يقول القرآن فور تلقيه وهو هنا قد أعلنهم بنبوءة رد الكرَّة إلى الروم وتحقيق انتصارهم على الفرس .

ولقد استمرت الأمور تسير بعد نزول آية النبوءة هذه فى غير صالح الروم إذ استولى الفُرس على مصر فى عام ٦١٨ كما هددوا القسطنطينية قلب الإمبراطورية .

ولكن ما إن جاء عام ٦٢٢ حتى بدأ الموقف يتحول لصالح الروم « واتخذ هرقل خطة مهاجمة الفُرس فقام بثلاث حملات باهرة فى الإقليم الواقع من خلف جبال القوقاز » [٢] **« ثم لم يلبث أن انتزع من كسرى ثمرات النصر الذى تم له وتعقبه حتى عاصمة ملكه .. ومن**

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ٩ .
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ٩ .

ذلك الحين والإمبراطورية الساسانية (الفارسية) تسير قُدُماً نحو مصريها النهائى المحتوم إلى الدمار » [1] .

لقد انتهت هزائم الروم أمام الفُرس وبدأ انتصارهم ولما يمضى على نزول آية النبوءة بضع سنين – وهو العدد أقل من عشرة – واستمر الموقف كذلك حتى استرد الروم كل ما فقدوه .

لقد كانت هذه الآية برهاناً لمن هو فى ريب من القرآن على صدق تنزيله ، فمن المحال على بَشرٍ عاقل أن يربط مصير دعوته بصراع متقلب الأحداث والمفاجآت كصراع الروم والفُرس ، فماكانت هذه النبوءة إلا تنزيلاً ممن ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الزمر : ٦٣) .

* *

أما بعد ...

إن أمر الغيب كان – ولا يزال – من أخطر ما يحدد حقيقة التنزيل فى الكتب المقدسة ولقد كان من جرَّاء فشل بعض التنبؤات المنسوبة للمسيح أن نسب جماعة من علماء المسيحية الخطأ إليه ، وكان الأحرى بهم أن ينسبوه إلى كتبة الأناجيل

ذلك أن الأناجيل تتنبأ بنهاية العالَم وعودة المسيح ثانية إلى الأرض فى القرن الأول من الميلاد .

« ورغم أن إنجيل متى هو أحد كتب العهد الجديد الذى ذكر بوضوح حدوث النهاية السريعة للعالَم فإننا في الواقع نجد أن أغلب كُتَّاب العهد الجديد قد عبَّروا عن هذه العقيدة .

وفى اعتقاد كثير من العلماء أن يسوع نفسه كان يتطلع إلى عودته سريعاً إلى الأرض بعد وفاته فى مجد وبهاء » [2] .

*

---

(١) موسوعة تاريخ العالم : جزء ٢ – ص ٤٧٨

(٢) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ص ٢٣

لقد وقف كفار قريش يعاندون رسول الله فقالوا : « ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء : ٩٠ - ٩٣) .

لقد كانوا يطلبون المعجزات المادية - معجزات الحوادث - لا رغبة فى البرهان على صدق الرسالة - فقد علموا صدق الرسول - ولكنه العناد والتعجيز . وأمثال هؤلاء ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ (يونس : ٩٦ - ٩٧) .

فلقد سبق أن جاءت ثمود الناقة وقال لهم نبيهم صالح : ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ ﴾ .

(الشعراء : ١٥٥ - ١٥٨)

وإذا كان هذا موقف سالفيهم من العرب ، فإنه كذلك موقف سالفيهم من الإسرائيليين الذين وقفوا يعاندون المسيح وقد جاءهم بمعجزات الحوادث فكذّبوه وقالوا إنه ساحر يستخدم قُوَى الشياطين : فقد « أُحضِرَ إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه حتى إن الأعمى الأخرس تكلم وأبصر ، فبهت كل الجموع وقالوا : لعل هذا هو ابن داود . أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يُخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين » (متى ١٢ : ٢٢ - ٢٤) .

ومَن يتصفح التاريخ يجد سُنَّة الله قائمة فى إنزال العذاب بمكذّبى معجزات الحوادث فى الدنيا قبل الآخرة .

فلقد حدث ذلك لثمود إذ جعلهم الله عبرة وقال فيهم : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل : ٥١ - ٥٢) .

وحدث ذلك لبنى إسرائيل بعد أن عبدوا العجل فى سيناء فقد قال لهم : « الرب إله إسرائيل ..ضعوا كل واحد سيفه على فخذه .. واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه .. ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل .. فضرب الرب الشعب لأنهم صنعوا العجل الذى صنعه هارون » (؟!) .

(خروج ٣٢ : ٢٧ - ٣٥)

وحدث ذلك لبنى إسرائيل بعد ذلك مرات ومرات ، وحدث لذرِّيتهم بعد أن كذَّبوا المسيح وتآمروا عليه فما هى إلا فترة وجيزة حتى انقض عليهم الرومان فقتلوا الآلاف وهدموا الهيكل وشرَّدوا الباقين . تلك سُنَّة الله التى أفهمها من قول الحق : ﴿ وَإِنْ كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَا قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٦ - ٧٧) .

هذا .. ولما كان محمد رسول الله إلى العالمين فقد اقتضت حكمة الله أن تكون معجزته هى القرآن ، كتاب هو منهج الله وهو فى ذات الوقت يشتمل على آيات الله التى تستطيع البشرية فى نضجها وترقيها أن تجدها ماثلة أمامها ، فتستوعبها وتؤمن بها .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد : ٧) .

لقد اتسع مجال الرسالة من القَبلية المحدودة إلى العالمية ، فتغيَّرت لذلك آيات صدق الرسول من معجزات مادية لم تلبث أن طواها الزمان ، إلى آيات قرآنية يتجدد الإيمان بها كلما تقدمت السنون ومرت الأعوام .

وأمر الغيب فى القرآن برهان صدق ويقين ، يستطيع كل عاقل أن يستخلص منه بديهية تماثل تلك البديهيات التى تقوم عليها العلوم الرياضية والطبيعية ، بديهية تقول : إن مَن صدقك الحديث بالأمس سوف يصدقك غداً .. ونقيض ذلك مفهوم ومعلوم ...

من أجل ذلك نقرأ فى القرآن :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (يونس : ٢٠) .

* * *

٣ - القرآن والكتب المقدسة السابقة

لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بوحى الله وكُتُبه التى سبقت القرآن وقد ذكرها إجمالاً فى قوله :

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٨٤) .

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ (الشورى : ١٥) .

وبذلك كان المسلمون هم الطائفة الوحيدة على ظهر الأرض التى تؤمن بكل كتب الله المُنَزَّلة ، وقد سجل القرآن ذلك فى قوله : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٩) .

ثم ذكر القرآن بعضاً من هذه الكتب تحديداً كما جاء فى حديثه عن صحف إبراهيم :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى : ١٤ - ١٩) .

وتحدث القرآن عما أوتيه داود فقال : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ .

(النساء : ١٦٣)

على أن ما يعنينا فى هذا المقام هو موقف القرآن من الأسفار اليهودية والمسيحية ، والتى تتكوَّن بوجه عام [1] من التوراة وتُعرف باسم أسفار موسى الخمسة ، ثم أسفار الأنبياء الذين ظهروا فى بنى إسرائيل من بعد موسى حتى عصر الميلاد ، وأخيراً إنجيل المسيح .

*

● موقف محدَّد :

لقد جاء القرآن واضحاً فى موقفه تجاه هذه الأسفار وحَفَظتها من الأحبار والعلماء فذكر عدداً من الأساسيات منها :

١ - تعرضت الأسفار اليهودية والمسيحية للفقد والضياع بسبب التفريط فى التحفظ عليها وحفظ ما فيها فصارت تلك المفقودات نسياً منسياً :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة : ١٢ - ١٤) .

---

(١) يرفض اليهود الأسفار المسيحية كلها كما يختلف اليهود والمسيحيون على الأسفار المقدسة والمشتركة بينهم . راجع كتاب المؤلف : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية .

٢ - قام على أمر هذه الكتب طائفة من الأحبار والكهنة والكَتَبة وُجِدَ بينهم :

(أ) الذين يُحَرِّفون كلام الله بتغييره وتبديله وعدم الحفاظ على صورته الأصلية :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ ﴾ (النساء : ٤٦) .

(ب) الذين يضيفون إلى كلام الله وينقصون منه ما شاءت لهم أهواؤهم ثم يَدَّعون أن ذلك وحى الله :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٨ - ٨٠) .

﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً ﴾ .

(النساء : ٥٠)

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة : ٧٩) .

(جـ) ولقد دَرَجَ كثير منهم ممن عُهِدَ إليهم بالحفاظ على كتب الله من الكَتَبة والرؤساء الدينيين على كتمان الحق الذى لا يتفق وأهواءهم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

(البقرة : ١٧٤ - ١٧٦)

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧١) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥ - ١٦) .

ولقد ترتب على تلك المواقف الخطرة من أهل الكتاب أن صارت هذه الأسفار تشتمل على بقية من حق أنزله الله ، كما اشتملت على غير الحق الذى أشاع فيها التناقض والاختلاف .

*

على أن القرآن قد فرّق بين الأخيار والأشرار من أهل الكتاب وأعطى كُلاً قدره ، فهو قد أثنى على أهل الخير منهم أطيب ثناء ووعدهم حُسن المآب :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ .

(آل عمران : ١١٣ - ١١٥)

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران : ١٩٩) .

كذلك فإن القرآن حمل بشدة على الأشرار من أهل الكتاب وتوعدهم سوء المنقلب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

(النساء : ١٥٠ - ١٥١)

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ .

(البقرة : ٧٨)

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

(المائدة : ٧٧)

ونستطيع الآن تقرير ما يمكن استخلاصه من موقف القرآن من الأسفار اليهودية والمسيحية - أي الكتاب المقدس - فنقول : **إن هذه الأسفار بها بقية مما أنزله الله ، كما أنها** فقدت **قدراً من الحقائق عندما ضاع منها حظ من التنزيل الإلهي ، وهي تضم بين جنباتها اختلافاً كثيراً بسبب ما صنعته بها أيدي البَشر الذين استُحْفِظوا عليها وقاموا على أمرها .**

* *

مجمل دراسات الكتاب المقدس

تعرضت أسفار الكتاب المقدس لدراسات مستفيضة خلال القرون الأخيرة شارك فيها عدد كبير من علماء اليهودية والمسيحية ، وقد انتهت دراستهم إلى

تقارير ونتائج محدَّده ليس هذا مجال عرضها ولكن يكفينا هنا أن نُلمَّ بشىء من خطوطها العامة ثم نقارن بينها وبين ما يُستخلَص من موقف القرآن من هذه الأسفار .

ولسوف نعرض لمجمل دراسات الكتاب المقدس من زاويتين أساسيتين : الأولى : عرض لبعض ما قاله العلماء عن أسفاره ، والثانية : نظرة فىْ أسفاره ، يستطيع بها القارىء العادى أن يلمس بنفسه حقيقة هذه الأسفار .

*

أولا - أسفار العهد القديم

(أ) حديث عن أسفار العهد القديم :

١ - تقول دائرة المعارف الأمريكية : « لقد كان هناك نشاط أدبى بين الإسرئيليين فى عهد مبكر فسجلوا تقاليدهم القَبلية وقوانين الجماعة الإسرائيلية ، وهذا بجانب الأغانى الشعبية وترانيم العبادة وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووحى .. وبعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج وعن غير قصد عناصر من هذه الآداب ، اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية . وبهذا أُعطيت هذه العناصر وقاراً خاصاً تفرَّدت به وتحوَّلت بذلك إلى كتابات مقدسة . **ولا شك أن الكُتَّاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة فى حياة الطائفة الإسرائيلية ، فى يوم من الأيام** » [١] .

*

٢ - « وقد اكتسب كل من الأجزاء الرئيسية للعهد القديم صبغته القانونية على مدى قرون طويلة بيانها كالآتى :

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية : الجزء الثالث ص ٦١٣

« اكتمل للناموس (أسفار موسى الخمسة) شرعيته حوالى عام ٤٠٠ ق .م - والأنبياء (يشوع - صموئيل - أشعياء - أرمياء .. ملاخى) حوالى عام ٢٠٠ ق .م - وأما الكتب (المزامير - الأمثال - أيوب - دانيال .. أخبار الأيام) فكانت حوالى عام ٩٠ ميلادية » [١] .

هذا .. وإذا كانت تواريخ تلقى موسى للتوراة تتراوح بين عامى ١٢٩٠ ، ١٢٥٠ ق . م صار من الواضح أن أسفار « الناموس » التى وصلتنا قد استغرقت أكثر من ثمانية قرون حين اكتمل بناؤها وأخذت صورتها القانونية . ولا يختلف الحال كثيراً بالنسبة لأسفار « الأنبياء » و « الكتب » فكليهما استغرق قروناً عدة ليكتسب قانونيته .

*

٣ - « يعتبر العهد القديم كتاباً غير متجانس ، إذ أنه مجموعة من الوثائق تكوَّنت خلال فترة تزيد على الألف عام بواسطة رجال لهم تراث لُغوى متعدد .

ولم تصلنا أية نسخة بخط المؤلف الأصلى لكتب العهد القديم ، أما النصوص التى بين أيدينا فقد نقلتها إلينا أجيال عديدة من الكَتَبة والنُسَّاخ ، ولدينا شواهد وفيرة تبيِّن أن الكَتَبة قد غيَّروا بقصد أو بدون قصد فى الوثائق والأسفار التى كان عملهم الرئيسى هو كتابتها ونقلها ..

وقد حدث التغيير بدون قصد حين أخطأوا فى قراءة أو سمع بعض الكلمات أو فى هجائها ، أو أخطأوا فى التفريق بين ما يجب فصله من الكلمات وما يجب أن يكون تركيباً واحداً . كذلك فإنهم كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين ، وأحياناً ينسون كتابة كلمات بل فقرات بأكملها ، وأما تغييرهم فى النص الأصلى عن قصد فقد مارسوه مع فقرات بأكملها . حين كانوا يتصورونها قد كُتِبَتْ خطأ فى صورتها التى بين أيديهم كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقَرات أو يزيدون على النص الأصلى فيضيفون فقرات توضيحية ..

(١) المرجع السابق : ص ٦٢٣

ولا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن وثائق العهد القديم لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد النسخي على الأقل فى الفترة التى سبقت اعتبارها أسفاراً مقدسة .

ولقد نشأ بين اليهود طائفة خصصت نفسها لرعاية هذه الوثائق عُرِفَت بالكَتَبة كما يشير إلى ذلك سفر عزرا .. وقد سميت هذه الطائفة أخيراً بالأسفاريين ولم يكن عملهم مقصوراً على النسخ ، بل كانوا حُفَّاظاً على الوثائق ومترجمين لها ، **بل ومؤلفين بكل معنى الكلمة .**

وكان من نتيجة عملهم أن أخذ النص صورته القانونية ليُترجَم بعد ذلك إلى اللُّغات الأخرى .

وحين زاد الاحترام للأسفار فإن جماعة الأسفاريين قد أدخلت على النص بعض التغييرات التى تُبَجِّل اسم إله إسرائيل ، أو تُشَوِّه أسماء معبودات الوثنيين . كما كانوا يُنَقِّحون فقرات بدت لهم غير مفهومة وأحياناً يستخدمون أحدث ما صارت إليه اللُّغة بدلاً من اللُّغة القديمة ، فكل هذا ظاهر لدينا فى النص الذى نقلوه لنا » [(١)] .

*

٤ - يشير العهد القديم الذى نعرفه اليوم إلى كتب وأسفار أخرى غير موجودة الآن وتشير إليها أسفاره مثل : العدد ٢١ : ١٤ - ١٥ ، يشوع ١٠ : ١٣ ، صموئيل الثانى ١ : ٨ ، الملوك الأول ١١ : ٤١ » [(٢)] .

*

٥ - وتقول دائرة المعارف البريطانية : « إن التقويم التاريخى لأحداث العهد القديم قد صار لاعتبارات كثيرة أمراً غير موثوق فيه . فقبل قيام المملكة لم تكن الظروف تسمح بعمل تقويم تاريخى يُعتمَد عليه وفى

(١) المرجع السابق : ص ٦١٥ - ٦١٨

(٢) المرجع السابق : ص ٦١٩

واقع الأمر فإن تاريخ الأحداث القديمة قد أُضيف بعد قرون عديدة من وقوعها ودرجة الدقة فيها مظهرية فقط .. وحتى بعد تكوين المملكة فإن الأخطاء تسربت إلى الأرقام بحيث صار الخطأ فى تواريخ الأحداث نحو بضع عشرات من السنين .

فالتقويم التاريخى لأحداث الفترة القديمة التى تبدأ من خلق الإنسان حتى خروج بنى إسرائيل من مصر يعتمد على ما يُعرف باسم روايات الكهنة لأسفار موسى الخمسة . **إن الأرقام هنا فى الغالب - إن لم تكن دائماً - إنما هى أرقام مصطنعة . ومن الملاحظات البارزة فى هذا المجال ما نجده فى اختلاف الأرقام بين كل من النسختين السامرية والإغريقية وبين النسخة العبرية** ، وذلك بالنسبة للفترة من بدء الخلق حتى مولد إبراهيم . إذ تنخفض الأرقام فى النسخة السامرية بينما ترتفع فى النسخة الإغريقية .

فالنسخة العبرية تُقدِّر للفترة من بدء الخلق حتى الطوفان ١٦٥٦ عاماً ، بينما يبلغ تقديرها فى النسخة السامرية ١٣٠٧ عاماً ، وفى النسخة الإغريقية ٢٢٦٢ عاماً .

كذلك تُقدِّر النسخة العبرية للفترة من الطوفان حتى دعوة إبراهيم ٣٦٥ عاماً ، بينما هى فى النسخة السامرية ١٠١٥ عاماً ، وفى النسخة الإغريقية ١١٤٥ عاماً .

إن هذه الأرقام ترجع إلى أُصول بابلية ولكنها عديمة القيمة التاريخية وحتى لو أخذنا بوجهة النظر التى تُقدِّر عام ١٤٩١ ق .م . تاريخاً لخروج الإسرائيليين من مصر - رغم أنه تاريخ مبكر أكثر من المحتمل - فإن تاريخ بدء الخليقة يرجع إلى عام ٤١٥٧ ق . م حسب النسخة العبرية (وإلى عام ٥٣٢٨ ق . م حسب النسخة الإغريقية) كذلك تكون بلبلة ألسن البَشر قد حدثت فى بابل عام ٢٥٠١ ق . م حسب النسخة العبرية (وفى عام ٣٠٦٦ ق . م حسب النسخة الإغريقية) .

لكن الآثار القديمة للمصريين والبابليين تؤكد ظهور الإنسان على وجه الأرض لفترة طويلة من الزمن قبل أى من التاريخين المذكورين لبدء الخليقة . إن الأرقام المذكورة فى الإصحاحين الخامس والحادى عشر من سِفر التكوين ، لا تبيِّن سوى ما كان يتصوره كَتَبة الأسفار عن تواريخ تلك الأيام الغابرة » [1] .

* *

(ب) نظرة فى أسفار العهد القديم :

إن ما عرضناه حتى الآن يكفى للقول بأن أصدق ما يقال على الإطلاق فى أسفار العهد القديم وحفَظَتَها من أهل الكتاب هو ما ذكره القرآن فى تعبيره الدقيق : ﴿ نَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ به ﴾ (المائدة : ١٣) فلقد ظهر بوضوح كيف كان « نسيان » كَتَبة الأسفار بالمَعنى الحرفى الكلمة ، وكيف كان « نسيانهم » بمعانيها الأخرى التى تعنى الإهمال فى التحفظ والترك عمداً أو سهواً مما نتج عنه الفقد والضياع .

ونعرض الآن عدداً محدوداً لأمثلة بسيطة يدرك بها القارىء درجة الدقة فى هذه الأسفار .

*

١ - تقول التوراة : « مات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب . ودفنه فى الجواء فى أرض موآب مقابل بيت فغور **ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم** » (تثنية ٣٥ : ٥ - ٦) .

من المؤكَّد أن هذا القول لم يأت به موسى وحياً من عند الله . إنما هو وصف من عمل الكهنة حسب تصورهم للأحداث بعد وقوعها بالكثير من عشرات السنين كما يدلّ عليه قولهم : « إلى هذا اليوم » إذ يعنى هذا أن أجيالاً تعاقبت فى الفترة من موت موسى حتى كتابة التوراة ولا يعرف أحد منها قبر موسى .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : الجزء الثالث ص ٥١ .

٢ - ظهرت بعض تراجم للعهد القديم عن العبرية القديمة من أهمها النسخة السبعينية الإغريقية والنسخة الأرامية والنسخة السوريانية والنسخة اللاتينية وتختلف هذه النسخ أحياناً عن النسخة العبرية الحديث ، إلا أنه بمقارنة هذه النسخ معاً فإنه يمكن الوصول أحياناً إلى النص العبرى الأصلى كما يتضح من المثال الآتى :

« فى سفر صموئيل الأول (١٤ : ٤١) نجد أن فقرة طويلة قد سقطت من النسخة العبرية الحديث على حين بقيت تلك الفقرة فى النسختين السبعينية واللاتينية . والكلمات التى كُتِبَتْ بالبنط الأسود هى التى فُقِدَت من النص العبرى :

وقال شاول للرب إله إسرائيل **لماذا لم تجب عبدك اليوم . إذا كان الذنب فى أو فى يوناثان ابنى ، يارب إله إسرائيل أعط أوريم ولكن إذا كان الذنب فى شعبك إسرائيل أعط ثميم** .

فأخذ يوناثان وشاول . أما الشعب فخرجوا » .

ولمعرفة السبب الذى من أجله أسقط الكاتب العبرى كل هذه الكلمات نقول إن عينيه لا بد قد قفزتا من كلمة : إسرائيل ، قرب أول الفقرة لكلمة : إسرائيل ، قرب نهايتها ، وكان من نتيجة ذلك أنه حذف تلقائياً - دون أن يدرى - الكلمات الواقعة بينهما » [١] .

وتُقرأ هذه الفقرة فى الترجمة العربية الشائعة كالآتى :

« **فأخذ يوناثان وشاول أما الشعب فخرجوا** » .

ومن الواضح أن حذف تلك الكلمات قد أفقد الفقرة معناها .

٣ - يقول سفر صموئيل : « حمى عصب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً : امض وأحص إسرائيل ويهوذا ... فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى الملك فكان إسرائيل **ثمان مائة ألف رجل** ذى بأس مستل السيف ، ورجال يهوذا **خمس مائة ألف رجل** » [٢] (صموئيل ٢٤ : ١ - ٩) .

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية : ص ٦٢٢ (٢) المرجع السابق .

لكن كاتب سفر أخبار الأيام لم تعجبه هذه الأعداد فكتب يقول :

« وقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصى إسرائيل .. فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى داود فكان كل إسرائيل **ألف ألف ومائة ألف رجل** مستلى السيف ، ويهوذا **أربع مائة وسبعين ألف رجل** مستلى السيف ، وأما لاوى وبنيامين فلم يعدهم معهم » (أخبار الأيام الأول ٢١ : ١ - ٦) .

فنجد أن الرواية الثانية قد زادت فى التعداد بما يقرب من ثلث مليون وهو خطأ ينفى عن مثل هذا الكلام أى إمكانية لاعتباره وحياً مقدساً .

٤ - ويقول سفر الملوك : « فى السنة الثالثة لآسا ملك يهوذا ، ملك بعشا ابن أخيا على جميع إسرائيل فى ترصة أربعاً وعشرين سنة » .

(الملوك الأول ١٥ : ٣٣)

وبعد أن « اضطجع بعشا مع آبائه ودُفِنَ فى ترصة وملك أيلة ابنه عوضاً عنه ...

وفى السنة السادسة والعشرين لأسا ملك يهوذا ، ملك أيله بن بعشا على إسرائيل فى ترصة سنتين .. فدخل زمرى وضربه فقتله فى السنة السابعة والعشرين لآسا ملك يهوذا وملك ذلك عوضاً عنه » .

(الملوك الأول ١٦ : ٨ - ١٠)

من ذلك يتبين أنه فى السنة السادسة والعشرين لأسا ملك يهوذا ، يكون بعشا ملك إسرائيل فى عداد الأموات . وفى السنة السادسة والثلاثين لأسا يكون بعشا قد مضى على موته عشر سنوات .

لكن كَتَبة سِفر أخبار الأيام نسوا ذلك فقالوا : « فى السنة السادسة والثلاثين لملك آسا ، صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكيلا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا » (أخبار الأيام الثانى ١٦ : ١) .

وعلى ذلك تكون هذه الرواية قد وقعت فى خطأ فاحش ، إذ كيف يصعد بعشا ملك إسرائيل بعد موته بعشر سنين ليحارب آسا ملك يهوذا ؟!

*　　*

إن هذا قليل من كثير مما تحتويه أسفار العهد القديم . ولقد كان من نتاج فحص هذه الأسفار بواسطة علمائها أن وجدت الكنيسة الكاثوليكية وهى التى تتمسك بشدة بعقيدة الإلهام واعتبار كل الكتاب موحَى به من الله – أن عليها إصدار بيان يواجه مثل هذه الحقائق التى لم تعد تقبل المراء فيها . **فلقد بحث المجمع المسكونى الثانى** [1] **للفاتيكان (١٩٦٢ – ١٩٦٥) هذه المشكلة التى تتعلق بوجود أخطاء فى بعض نصوص أسفار العهد القديم** ، وقدمت له خمس صيغ مقترحة استغرق بحثها ثلاث سنوات من الجدل والمناقشة وأخيراً تم قبول صيغة حظيت بالأغلبية الساحقة إذ صوّت إلى جانبها ٢٣٤٤ ضد ٦ أصوات . وقد أدرجت فى الوثيقة المسكونية الرابعة عن « التنزيل » فقرة تختص بالعهد القديم (الفصل الرابع – ص ٥٣) تشير إلى وجود شوائب به ، وإلى بطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة . وتقول هذه الفقرة ما نصه :

« بالنظر إلى الوضع الإنسانى السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة مَن هو الله ومَن هو الإنسان بما لا تقل عن معرفة الطريقة التى يتصرف بها الله فى عدله ورحمته مع الإنسان ، غير أن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان ، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهى » [2] .

إن السؤال الذى يطرح نفسه الآن : كم من المؤمنين بقداسة هذه الأسفار واعتبارها تعليماً إلهياً موحَى به من الله . يعلم هذا الذى قررته الكنيسة الكاثوليكية بشأنها وما تحتويه من شوائب وبطلان ؟

---

(١) عُقِدَ المجمع الأول فى عام ١٨٦٩　　(٢) دراسة الكتب المقدسة : ص ٥٩ ، ٦٠ .

ويتبع ذلك سؤال آخر : ثم ما هو موقف الذين علموا ذلك من هذه الأسفار ؟

إن استقراء التاريخ - يجعلنا نقرر أن هناك أناساً عبر القرون ، وفى شتّى بقاع الأرض وبمختلف الثقافات والأوضاع الدينية والفكرية والعلمية سوف يظلون يدافعون على ما توارثوه من معتقدات بصرف النظر عما لحق بها من شوائب وأباطيل ..

فإلى هؤلاء لا أملك إلا أن أردد ما قاله المسيح فى الإنجيل :

« اذهبوا وتعلموا ما هو ، إنى أريد رحمة لا ذبيحة » .

(متى ٩ : ١٣)

* * *

ثانياً - أسفار العهد الجديد

(أ) حديث عن أسفار العهد الجديد :

سبق أن أصدرتُ كتاباً [١] جمعتُ فيه خلاصة أبحاث علماء المسيحية ودراستهم لأسفار العهد الجديد . وكان يمكن الاكتفاء بالإشارة إلى ما فى ذلك الكتاب عند الحديث - الآن - عن هذه الأسفار ، إلا أن احتمال عدم إطلاع بعض القرّاء على ذلك الكتاب يضطرنى إلى اقتباس بعض منه نقلاً عن أقوال الثُقات من علماء المسيحية :

١ - « إن المسيحين الأوائل لم يكونوا يعتقدون أن كتبهم المقدسة تكوِّن عهداً جديداً يتميز عن العهد القديم .. **إن العهد الجديد كتاب غير متجانس ذلك أنه شتات مُجَمَّع فهولا يمثل وجهة نظر واحدة تسوده من أوله إلى آخره لكنه فى الواقع يمثل وجهات نظر مختلفة** » [٢] .

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية .

(٢) المرجع السابق : ص ١٥

٢ - « فى فترة المائة وخمسين عاماً الأخيرة تحقق العلماء من أن الأناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقس ولوقا) تختلف عن الإنجيل الرابع (يوحنا) أسلوباً ومضموناً .

إن الاختلاف بينهم عظيم .. لدرجة أنه لو قبلت الأناجيل المتشابهة (الثلاثة الأولى) باعتبارها صحيحة وموثوقاً بها ، فإن ما يترتب على ذلك هو عدم صحة إنجيل يوحنا » [١] .

٣ - « ليس لدينا معرفة مؤكدة بالنسبة للكيفية التى تشكلت بموجبها قانونية الأناجيل الأربعة ولا بالمكان الذي تقرر فيه ذلك » [٢].

٤ - « لقد أُسْقِطَ عدد كبير من الكتب المسيحية الأولى ، من العهد الجديد القانونى وهذه تتكون أساساً من الأناجيل المحذوفة مثل : أناجيل العبريين ، والمصريين ، وبطرس .. وأسفار رؤيا غير معترف بها مثل رؤيا بطرس ، وراعى هرمس .. وخطابات الآباء والرسوليين .

على أن التاريخ المضبوط الذى تحددت فيه قانونية أسفار العهد الجديد غير مؤكد » [٣] .

٥ - « إن النسخ الأصلية (الإغريقية) لكتب العهد الجديد فنيت منذ مدة طويلة .. وإن كل النسخ التى استخدمها المسيحيون فى الفترة التى سبقت مجمع نيقية (عام ٣٢٥ م) . قد غشيها نفس المصير ومما يجب ذكره أنه حتى اختراع الطباعة لم يكن قد تم الوصول إلى اتفاق كامل فى أى من نصوص العهد الجديد : الإغريقية أو اللاتينية .

أما موقف الأناجيل فإن التغيرات الهامة قد حدثت عن قصد مثل إضافة أو إدخال فقرات بأكملها . وبالتأكيد فإن بعضاً منها قد استمد من مصدر خارجى .. إن نصوص جميع هذه المخطوطات (للعهد الجديد) تختلف

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ . (٢) المرجع السابق : ص ٢٠ .
(٣) المرجع السابق : ص ٤٠ ، ٤١ .

اختلافاً كبيراً ، ولا يمكننا الاعتقاد بأن أيًّا منها قد نجا من الخطأ . ومهما كان الناسخ حى الضمير فإنه ارتكب أخطاء وهذه الأخطاء بقيت فى كل النسخ التى نقلت عن نسخته الأصلية .

إن اغلب النسخ الموجودة فى جميع الأحجام تعرضت لتغييرات أخرى على أيدى المصححين الذين لم يكن عملهم دائماً إعادة القراءة الصحيحة » [1] .

*

إن هذا القدر الضئيل يكفى للتذكير مرة ثانية بقول « الحق » فى القرآن عن أسفار العهد الجديد وكاتبيها وكهانها ومَن تابعهم فى الأقوال والأفعال : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ (المائدة : ١٤) .

نعم .. لقد نسوا تماماً بكل معانى الكلمة ....

ولقد كان الجزاء أن أغرى الله ﴿ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

وكان الثمن فادحاً ، دفعه هؤلاء النصارى – المسيحيون – وشاركهم فيه كثير من أبناء البَشرية الذين ارتبطوا بهم ، أو ربطهم المسيحيون بهم .

وتبلغ هذه العداوة والبغضاء بين الأمم النصرانية قمتها المأساوية فى تلك الحروب المستعرة بينها على مدى التاريخ ، وآخرها فى المدى القريب هذه الحروب العالمية : الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ... والله أعلم بما سيأتى به الغد . وإذا كنا لا نستطيع القطع بوقوع الحرب العالمية الثالثة فمن المؤكد أن كلا المعسكرين : الشرقى الشيوعى ، والغربى الرأسمالى يستعد لها ويجند فى سبيلها الموارد والأموال والقُوَى البشرية الهائلة . وكل هذا تجسيد للعدواة والبغضاء بين أمم هذين المعسكرين ، وجميعها أمم نصرانية .

*   *

(١) المرجع السابق : ص ٣٥

(ب) نظرة فى أسفار العهد الجديد :

أصبح واضحاً تماماً أن كتب العهد الجديد وخاصة الأناجيل تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً يلحظه كل مَن تدبرها ، وهو اختلاف يرجع أساساً إلى اختلاف المصادر التى استقى منها مؤلفوها ، أولئك الذين قال عنهم لوقا - وهو واحد منهم - فى مقدمة إنجيله : « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا .. رأيتُ أنا أيضاً إذ قد تتبعتُ كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت » . ونسوق الآن عدداً محدوداً من أمثلة الاختلاف فى أسفار العهد الجديد .

١ - اختلف متى ولوقا فى نسب المسيح وذلك حين قرر الأول أن يوسف رجل أمه مريم - الذى كانت تدعوه مريم أباً للمسيح كما فى لوقا (٢ : ٤٨) - ينحدر من نسل سليمان بن داود .

(متى ١ : ٧ - ١٦)

بينما جعله الثانى ينحدر من نسل ناثان بن داود .

(لوقا ٣ : ٢٣ - ٣١)

وذلك بجانب اختلافات أخرى ولقد بيَّن « موريس بوكاى » هذا الخلاف نقلاً عن مصادر كاثوليكية ، فى كتابه « التوراة والقرآن والعلم » [(١)] ، كما بينته فى كتابى « المسيح فى مصادر العقائد المسيحية » [(٢)] وذلك نقلاً عن مصادر أغلبها بروتستانتية .

٢ - وإذا أخذنا بما ترويه الأناجيل عن الصلب وأحداثه لوجدناها قد اختلفت فيه من الألف إلى الياء .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة : ص ١٠٥ - ١١٥

(٢) انظر ص ٧٨ - ٨٣

ويكفى أن يراجع القارىء ما ذكرته الأناجيل عن : « حادث القبض وملابساته – المحاكمات – توقيت الصلب (اليوم والساعة) صرخة اليأس على الصليب – شهود الصلب – كل ذلك وغيره كثير ، يكفى للقول بأن الأناجيل قد اختلفت فيما بينها اختلافاً بعيداً وهو اختلاف يكفى لرفض ما يذكره أحد الأناجيل ، إذا أخذنا برواية الأناجيل الأخرى .

أيها نأخذ به ، وأيها نرفض ؟

رُبَّ قارىء – درج على الإيمان التقليدى بما ترويه الأناجيل – لا يجد مفراً من أن يقول : ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [1] (الملك : ٢٦) .

٣ – وما تؤمن به المسيحية التقليدية من أن المسيح قد صُلِبَ ومات ووُضِعَ فى قبر ثم قام من الأموات فإن حديث القيامة هذا بدأته مريم المجدلية « التى كان قد أخرج منها سبعة شياطين » (مرقس ١٦ : ٩) حين ذهبت وأخبرت بطرس بأن القبر خال من الجثة « فخرج بطرس والتلميذ الآخر (يوحنا) وأتيا إلى القبر .. ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر .. فحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر .. ورأى فآمن لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغى أن يقوم من الأموات » (يوحنا ٢٠ : ٣ – ٩) .

من ذلك يؤكد إنجيل يوحنا أن بطرس رئيس التلاميذ – بالذات – كان يجهل أى حديث عن قيامة المسيح . بل إن إنجيل لوقا ليؤكد هذا الجهل للتلاميذ كلهم – وفيهم بطرس – الذى كان أكثرهم تعجباً من حديث القيامة فيقول :

« رجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله . وكانت مريم المجدلية ويوحنا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتى قلن هذا للرسل . فترائى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن . فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجباً فى نفسه مما كان » .

(لوقا ٢٤ : ٩ – ١٢) .

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية : ص ١٧٩

لكن أناجيل مرقس ومتى ولوقا تذكر لنا حديثا جرى بين المسيح وتلاميذه تنبأ فيه بقتله ثم قيامته من الأموات ، فهى تقول :

« ابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان (المسيح) ينبغى أن يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكَتَبة ويُقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم .

وقال القول علانية .

فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلاً : اذهب عنى يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » .

(مرقس ٨ : ٣١ - ٣٣ ، متى ١٦ : ٢١ - ٢٣ ، لوقا ٩ : ٢٢)

إن رواية الحوار بين المسيح وتلاميذه على ضوء هذه الصورة تعنى أن قيامة المسيح من الأموات أصبحت أمراً مفروغاً منه وأنها واحدة من تعاليمه لتلاميذه مثلها مثل القتل ، ذلك أن الأناجيل تذكر أن المسيح « قال القول علانية » .

ولما راجعه فيه بطرس أمام التلاميذ ما كان من المسيح إلا أن أغلظ له القول ولقّبه بالشيطان .

فإذا وجدنا بعد ذلك أن روايات القيامة التى جاءت بها مريم المجدلية كانت بالنسبة لبطرس ورفاقه كلاماً « كالهذيان » لا يمكن تصديقه ، **فإن النتيجة التى لا مفر من التسليم بها هى : أن ذلك الحوار الذى قيل إنه جرى بين المسيح وتلاميذه ، والذى تنبأ فيه بقتله ثم قيامته لم يحدث على الإطلاق ، وأن ما نجده عن ذلك الحوار فى الأناجيل لا يعدو أن يكون إضافات أدخلت إليها فيما بعد** » [1] .

---

(١) راجع كتاب : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية - الباب الرابع .

٤ - ومما لا شك فيه أن بولس هو مبشر المسيحية الأول بصورتها الراهنة ، وإليه يُنسَب نصف أسفار العهد الجديد وهو لم يكن قط من تلاميذ المسيح ولم يحظ برؤيته والحديث إليه ولو مرة واحدة فى حياته . لكن ما اشتهر به بولس شيئان : الأول - أنه كان من أشد اليهود عداوة للمسيحية والمسيحيين ، عداوة بلغت حد القتل . وفى هذا يقول سِفر أعمال الرسل عن بولس (شاول) :

« أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب . فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » .

(أعمال الرسل ٩ : ١ - ٢)

وأما الثانى - فهو أن بولس أعلن فجأة سماعه لصوت المسيح من السماء أثناء ذهابه إلى دمشق ومن تلك الساعة تحوَّل إلى المسيحية وصار أكبر دعاتها . لكن قصة بولس مع صوت المسيح يحكيها سِفر أعمال الرسل بصورتين متناقضتين تماماً بالنسبة للمسافرين مع بولس وقيل إنهم كانوا شهوداً لتلك الحادثة . فهو يقول عنهم فى الأولى :

« وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً » .(٩ : ٣ - ٦) .

أما الرواية الثانية التى قصَّها ذات السِفر فإنها تقول على لسان بولس :

« والذين كانوا معى نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذى كلمنى » (٢٢ : ٦ - ٩) .

فعلى حسب الرواية الأولى نجد شهود بولس : سمعوا ولم يروا ، وعلى حسب الرواية الثانية فإنهم : رأوا ولم يسمعوا ... ؟

إن التناقض واضح لا يحتاج إلى تعليق ..

لقد كان تلاميذ المسيح على حق حين شكُّوا فى بولس ، إذ « لما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مُصَدِّقين أنه تلميذ » (أعمال الرسل : ٩ : ٣٦) .

*

حقاً يقول القرآن أفضل ما قيل فى هذا المقام ، وقل فى الحديث ، ودل على الحقيقة :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

(المائدة : ٧٧)

* * *

خلاصة الموقف مع الكتاب المقدس

١ - تمهيد :

نزل القرآن على رسول الله فى أمة أميّة فتعلّم منه المسلمون الأوائل « **نبأ ما قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحُكم ما بينهم** » ، ولقد كان حب الاستطلاع دافعاً للبعض منهم أن يسأل أهل الكتاب من اليهود والنصارى عما فى كتبهم فقام ابن عباس - وقد استيقن من القرآن حقيقة ما جرى لأسفار السابقين - وقال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أُنزِلَ على رسول الله - ﷺ - أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

٢ - تقرير الحقيقة :

فى حملة من أهل الكتاب للغو فى القرآن ، قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، وهنا قال رسول الله - ﷺ - قولاً قرّر به الحقيقة واضحة وضوح شمس الصحراء فى رابعة النهار - إذ قال : « **لا تُصدّقوا أهل الكتاب ، ولا تُكذّبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله** » .

إن هذا يعنى أن تلك الأسفار التى فى حوزة أهل الكتاب فيها : ما يمتنع تصديقه وفيها ما يمتنع تكذيبه ، فالأول قد جافى الحقيقة وتلبس بغيرها ، وأما الثانى فقد قال حقاً ونطق صدقاً .

٣ - شهود من أهله :

ظهر الإسلام ديناً شامخاً ، واكتمل بناؤه فى حياة رسول الله واستمر نفوذه فعّالاً عبر العصور . وخلال مساره الطويل بقى موقف السلطات الدينية اليهودية والمسيحية منه قائماً على محاربته والكفر بالنبى والقرآن . لكن السنوات الأخيرة حدثت فيها بعض التطورات الهامة .

وليس هذا مجال لعرض تلك التطورات ولكن يكفينا هنا أن نذكر بعضاً من شهادات السلطات الدينية لأهل الكتاب ممثَلة فى هيئاتها وعلمائها . وإذا كان هذا لا يعنى قبولهم الكامل للإسلام إلا أن أهم تطور حدث فى هذا المجال هو اقتراب شهاداتهم عن أسفارهم المقدسة اقتراباً تطابقت نصوصه فى بعض الأحيان مع شهادات الإسلام .

(أ) تقول دائرة المعارف البريطانية عن أسفار العهد القديم :

« **لقد أصبح من الواضح : أن هذه الأسفار لا تحتوى كل الصدق وأن ليس كل ما تحتويه هذا الأسفار بصادق** » [1] .

عجباً حقاً ... !

أليس هذا ما سبق أن نطق به محمد رسول الله لفظاً ومعنى حين قال : « **لا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم** » ؟!

(ب) فى عام ١٩٦٣ عُقِدَ فى كندا المؤتمر التبشيرى الثالث لطائفة الإنجليين . وكان مما قاله « كانون ماكس وارن » سكرتير جمعية التبشير الكنسية فى بحثه المقدَّم إلى المؤتمر :

« **لقد تجلى الله بطرق مختلفة . ومن الواجب أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لنُصِّر على القول بأن الله كان يتكلم فى ذلك الغار الذى يقع فى تلك التلال خارج مكة** » [2] وهو يقصد بذلك الوحى إلى النبى محمد حين بدأ فى غار حراء .

ويتحدث « بطرس واتيلى » الذى عُهِدَ إليه بكتابة تقرير عن هذا المؤتمر فيقول عن بحث « كانون وارن » : « من المحال تجنب استخدام ألفاظ الإبداع والسمو عند الحديث عنه . **لقد كان واحداً من أكثر الأحاديث التى**

---

(١) الجزء الثانى – ص ٥٠١ .

(٢) Frontier Mission, P. 18

استمعتُ إليها تأثيراً طيلة حياتى وذلك لما تميز به من سعة فى الفكر ووضوح الرؤيا » [1] .

(جـ) وفى عام ١٩٦٥ أصدر المجمع المسكونى الثانى للڤاتيكان فقرة عن كتب العهد القديم جاء فيها :

« إن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشيء من البطلان » .

(د) ومنذ نزل القرآن والجاحدون له مُصِّرون على اللَّغو فيه وإذاعة الأراجيف والترهات حول النبى الذى جاء به . ولقد سجل القرآن عليهم تلك المواقف وأقام عليهم الحجج التى أعجزتهم وأشياعهم إلى يوم الدين .

لقد كان مما قالوه : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان : ٤ - ٥) .

وقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل : ١٠٣) .

لقد كان الأولى بذلك المعلِّم الخرافى أن يظهر بتعليمه ، بدلاً من أن يعطى الفضل لغيره ، ولكن ما الحيلة وقد عميت الأبصار وتحجرت القلوب ...

ولقد كان القرآن يستدرجهم إلى ميدان التحدى ، فما داموا يدَّعون أن مصدره بشرى أرضى وليس وحياً إلهياً ، فقد دعاهم إلى الإتيان بمثله ، فقال فى سخرية أليمة :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور : ٣٣ - ٣٤) .

وبعد أن قال لهم : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود : ١٣) عاد فتحداهم بسورة واحدة ، فقال مخاطباً الناس أجمعين :

---

(١) المرجع السابق : ص ١٧

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣) .

ولما كان القرآن تنزيلاً ممن ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (١) فقد كتب العجز على معانديه فقال : ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤) .

﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

*

ولقد حلا للكثير من أهل الكتاب حين رأوا القرآن يعرض قصصاً يشابه بعض ما فى أسفارهم أن يُردِّدوا ما سبق أن قاله الكفار من اطلاع النبى على كتب الأوَّلين وترديدها .

ولو كان لذلك الزعم أساس لهدمه قول بعض الباحثين المسيحيين – حين قارنوا بين أحاديث كل من أسفار العهد القديم وخاصة التوراة والأناجيل ، والقرآن وذلك فى الموضوعات المشتركة بينهم – فقد تبيَّن لهم أن القرآن خلا من الأخطاء « والشوائب والبطلان » الموجودة فى غيره . فكيف يتأتى ذلك إن لم يكن مصدره إلهياً ؟!

وفى هذا يقول « موريس بوكاى » : « لا يجد قارىء القرآن أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلام المسيح واستحالات الأنساب فى العهد القديم (والتى تجعل الطوفان يحدث فى القرن ٢٢ قبل المسيح ، وفى عصر كانت هناك حضارات مزدهرة على الأرض فبالنسبة لمصر كان ذلك فى الفترة الوسطى التى تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى . وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر فى ذلك العصر كل الحضارات) .

---

(١) الأعراف : ٥٤

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون بلا أى أساس أن محمداً - ﷺ - مؤلف القرآن قد نقل كثيراً من التوراة ، ولو كان ذلك حقاً لتساءلنا مَن الذى دفعه أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح وادخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه » ؟ [1] .

* *

وبعد .. لقد بيَّن القرآن حقيقة الأسفار اليهودية والمسيحية ، فصدَّق على ما بها من بقايا حق أنزله الله ، وصحَّح ما بها من أساسيات خالطها كثير من « شوائب وبطلان » ثم جاء مهيمناً عليها بما استحدث وشرَّع ، فنقل الرسالة من القَبلية المحدودة إلى العالمية الواسعة ، مع ما يتطلبه ذلك من تعاليم وضوابط ومعالجات لمختلف القضايا التى تهم العالمين :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ (المائدة : ٤٨) .

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل : ٦٤) .

*

إن حديث القرآن عن أهل الكتاب وأسفارهم إنما هو معجزة تقوم بذاتها ، وهى معجزة أساسها العلم الذى تُحَصِّله البشرية بالدراسة والتمحيص خلال العديد من القرون ، ثم تأتى النتيجة مطابقة لما قال به محمد رسول الله الذى كان يتعلم الآيات من القرآن وحياً فى لحظات .

لقد كان من جوامع كلمه : « لا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم » ..

إنها معجزة ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .. (العنكبوت : ٤٣) .

*

---

(١) دراسة الكتب المقدسة : ص ٢٤٢

محمد نبى الملكوت

جاء يحيى بن زكريا ، والمسيح عيسى ، ومن بعده تلاميذه وحواريوه يُبَشِّرون جميعاً باقتراب « ملكوت الله » أو « ملكوت السموات » .

فمن الواضح « أن ملكوت الله » أو « ملكوت السموات » هو شئ عظيم وخطير الشأن ، وتحقيق للنبوءات السابقة . وهو أمل يُرتَجى فى تخليص البشرية من أغلالها وهدايتها إلى طريق الله البِّر الرحيم . ومن المؤكّد أن « ملكوت الله » شئ يأتى بعد المسيح الذى جاء يُبَشِّر باقترابه .

*

ولقد بيَّن المسيح أن الملكوت يعنى نبوَّة ورسالة . ففى حواره مع « رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب » فى الهيكل ، ألقى إليهم النذير بنزع النبوَّة من بنى إسرائيل وإعطائها لأُمة أُخرى أفضل وأجدر بحمل رسالة الله إلى الآخرين — فقال قولته الشهيرة : « لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنْزَع منكم ويُعْطى لأمة تعمل أثماره » .

لقد أُوتِىَ بنو إسرائيل النبوَّة وحملوا الرسالة فماذا فعلوا ؟ !

تربصوا بالأنبياء وعصوا المرسلين ، فاستحقوا ما جرى لهم ، والله أعلم بما هو آت ..

ولقد جاء محمد نبى الملكوت المُنْتظَر بعد المسيح ، وهو نبى — لا يزال — يقول فيه الإنجيل على لسان المسيح مخاطباً تلاميذه :

« إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل بكل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » .

وأخيراً جاء محمد نبى الملكوت .. فماذا فعل الذين كانوا ينتظرونه ؟

لقد كانوا أول كافر به ... !

إنها قصة متكررة تستقى أحداثها المأساوية من قلوب مريضة ونفوس هوى بها الهوى .

فلا يزال اليهود يُصَلُّون إلى اليوم من أجل قدوم المسيح المُخَلِّص ...

ولقد جاء المسيح منذ ٢٠ قرناً ، وبَلَّغ الرسالة وأعطى البشارة وهم له رافضون .

ولا يزال المسيحيون يُصَلُّون إلى اليوم من أجل قدوم ملكوت الله قائلين : « أبانا الذى فى السموات .. ليتقدس اسمك وليأت ملكوتك » .

ولقد جاء الملكوت منذ ١٤ قرناً : نبيه محمد ، وكتابه القرآن ، ورسالته الإسلام ، لكنهم بقوا على حالهم من الغفلة والصد والنكران .

ولقد بلغ الضلال غايته حين نُسِجَت حول الإسلام وكتابه ونبيه أحاديث الإفك ودعاوى الباطل ، وألصق به ما ليس منه فى شئ ، ثم ما لبثت تلك الأباطيل أن صارت تراثاً ، يتوارثونها جيلاً بعد جيل .

وكان قمة المأساة حين وقف **البابا إيربان الثانى رأس الكنيسة الكاثوليكية** ليعطى فى مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥ إشارة البدء بالحروب الصليبية - محطماً بذلك كل ما تقوله الأناجيل عن تعاليم المسيح فى المحبة والتسامح - ثم ينعت المسلمين بالكفرة ويقول لسامعيه :

« أنتم فرسان أقوياء ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم . **ولكن تعالوا حاربوا الكفار** . يا من تنابذتم اتحدوا ، يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنوداً .

تقدموا للدفاع عن المسيح . لا تمنعكم عواقيب ، ولا تُلهكم نساؤكم ولا أولادكم ولا أموالكم عن القتال فى سبيل الله .

تقدموا إلى بيت المقدس . انتزعوا الأرض الطاهرة واحفظوها لأنفسكم فهى تدر سمناً وعسلاً .

اذهبوا إلى القتال وسنرتب أموركم وأموالكم فى غيابكم .

سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التى زوّدنى بها الله » !

ولقد استمر ذلك الحقد الأسود هو الميراث الذى يحرص الجميع على الأخذ منه بنصيب ولو كان أقل القليل .

وإذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت فى تحقيق مطامع مثيريها فى الاستيلاء على الأرض واغتصاب خيراتها وإقامة ممالك صليبية فى الشرق الإسلامى . فإن روحها العدوانية لا تزال تتحكم فى تحديد السياسة الدولية إلى الآن .

يقول « إيوجين روستو » رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية ومستشار الرئيس الأمريكى السابق « ليندون چونسون » حتى عام **١٩٦٧** : « يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب ، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية .

لقد كان الصراع محتدماً بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى (الحروب الصليبية) وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة . ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب وخضع التراث الإسلامى للتراث المسيحى .

إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هى جزء مكمل للعالم الغربى ، فلسفته وعقيدته ونظامه ، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقى الإسلامى بفلسفته وعقيدته المتمثلة فى الدين الإسلامى ، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف فى الصف المعادى للإسلام . لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها » [١] .

---

(١) سلسلة : نحو وعى إسلامى : العدد ٢ ، ص ٢٥ ، ٢٦

إن « رستو » يحدد بوضوح أن هدف الاستعمار فى الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية وذلك استمراراً للحروب الصليبية ، وهو فى هذا لا يأتى بجديد ، إنما هو يردد تعاليم عُتاة الاستعمار الغربى وينهل مما توارثوه جميعاً من جهل بالإسلام وحقد عليه ورعب ملأ قلوبهم منه بسبب ما أشاعته السلطات الدينية حوله من أساطير وخرافات .

فمن قبل قال « جلادستون » رئيس وزراء بريطانيا : « ما دام هذا القرآن موجوداً ، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هى نفسها فى أمان » [1] .

وحين احتلت بريطانيا فلسطين فى الحرب العالمية الأولى نشرت الصحف البريطانية صورة **الجنرال** « **اللّنبى** » وكتبت تحتها عبارته المشهورة التى قالها عقب فتح القدس : « **اليوم انتهت الحروب الصليبية** » .

وقد هنأ « **لويد جورج** » **وزير الخارجية البريطانية** الجنرال « اللّنبى » فى البرلمان لإحراز النصر فيما أسماه : **الحملة الصليبية الثامنة** .

وكانت هذه السموم هى التى نفثها **الجنرال « جورو » الفرنسى** عندما اقتحم دمشق وتوجه فوراً إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه قائلاً : « **ها قد عدنا يا صلاح الدين** » .

وهكذا يحصد المسلمون والمسيحيون ثمار ضلالات دينية سببها الجهل المتعمّد بالإسلام – لا تزال حتى الآن سبباً وحيداً لاشتعال الحروب المتتالية بينهم .

* *

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق : ص ٤١ ، تأليف المستشرق النمسوى « ليوبولد فايس » ، وكان قد بدأ فى عام ١٩٢٢ عمله مراسلاً متجولاً لعدد من الصحف الأوروبية فى الشرق الإسلامى حيث درس أحواله الدينية والسياسية والاجتماعية ولما عاد إلى النمسا عام ١٩٢٦ أعلن إسلامه وتسمى باسم « محمد أسد » .

إن تبعة ذلك كله تقع أولاً على عاتق علماء المسيحية ومبشريها ، ثم هى تقع بعد ذلك على عاتق كل مَن يؤمن بتعاليم المسيح فى الإنجيل ويصدقها القول والفعل .

*

وإذا تركنا مسيحية القرون الوسطى والنظرة الخاطئة للإسلام والمسلمين وسرنا عبر التاريخ حتى مطلع القون العشرين ، لوجدنا تكريساً لما سبق من خرافات وأباطيل .

فقد عُقدَ بالقاهرة عام ١٩٠٦ مؤتمر عام للتبشير يجمع إرساليات التبشير البروتستانتينية للتفكير فى نشر الإنجيل بين المسلمين . وقد افتُتِحَ يوم ٤ إبريل فى منزل أحمد عرابى باشا فى باب اللوق وبلغ عدد مندوبى الإرساليات ٦٢ بين رجال ونساء ، من الولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا وهولندا والسويد والدانمرك . وانتُخبَ القسيس « زويمر » - رئيس إرساليات التبشير فى البحرين وصاحب فكرة عقد المؤتمر - رئيساً له . وقد جُمعَت أبحاثه فى كتاب يحمل اسم « وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين » واشتمل الفصل الأول منه على بحث « عما إذا كان الإله الذى يعبده المسلمون هو إله النصارى واليهود أم لا ؟ وقد صرُح الدكتور « لبسيوس » بأن إله الجميع واحد ، إلا أن القسيس « زويمر » خالفه فى هذا الرأى فقال : إن المسلمين مهما يكونون مُوَحِّدين فإن تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين لأن إله المسلمين ليس إله قداسة ومحبة » [1] .

عجيب حقاً أمر هؤلاء الناس ...

لقد عُرِفَ الإسلام كدين منذ منتصف القرن السابع ، واشتُهِرَ بالتوحيد الخالص وعبادة الإله الواحد خالق كل شئ ، والتصديق بكل رسالات الله وكتبه وأنبيائه ومنهم إبراهيم وموسى وعيسى المسيح .

تلك كلها معلومات أولية لا تحتاج من غير المسلم إلى دراسة أو تمحيص .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى : ص ٢٢

ومع ذلك نجد البابا « إيربان الثانى » يقف بعد ذلك بنحو خمسة قرون ليعلن للشعوب المسيحية أن المسلمين كفار .. ! وتستمر السلطات الدينية المسيحية فى التشكيك فى إيمان المسلمين بالله لدرجة أن يُثار فى مؤتمر القاهرة التبشيرى عام ١٩٠٦ سؤال عما إذا كان إله المسلمين هو إله المسيحيين واليهود ، ثم يصر كبير المبشرين « زويمر » على رفض القول بأن الإله واحد فى الديانات الثلاث .

ولعل السبب فى هذا الموقف هو أنه ما دام إله المسلمين هو إله المسيحيين فإن السؤال الذى يعقب ذلك بداهة هو : لماذا - إذن - يقوم تبشير بالنصرانية بين المسلمين ؟ .

آنذاك يقتصر نشاط التبشير على الوثنيين - هذا إذا كان هدفه دينياً حقاً ولم يربط نفسه بالاستعمار والسيطرة العنصرية - وآنذاك يفقد كثير من المبشرين ما يتمتعون به من مكاسب مادية ومعنوية .

* * *

● نحو صفحة جديدة :

إن عهداً جديداً فى العلاقات بين المسيحية والإسلام يوشك أن يبدأ وهو عهد يطوى صفحات الماضى بكل شرورها ومآسيها ويفتح آفاقاً واسعة من الفهم والاعتراف بالحقائق التى تأتى نتيجة الدراسات الجادة والمجرَّدة عن الأحكام المسبقة .

ولقد بدأ يلوح فى الآفاق ما ينبئ بإمكانية تحقيق فهم أفضل من المسيحية نحو الإسلام ، وذلك فى عصر يتجه نحو العالمية ويواجَه فيه المؤمنون بالأديان السماوية - اليهودية والمسيحية والإسلام - خطر الإلحاد والكفر بالله ورسالته .

فلقد أبطلت الكنيسة الكاثوليكية فى النصف الثانى من القرن العشرين ما سبق أن أعلنه أحد رؤسائها السابقين فى نهاية القرن الحادى عشر ، من اعتبار المسلمين كفاراً ، وذلك فى بحوثها التى عُرِضَت فى المجمع الثانى للفاتيكان ، والذى عُقِدَ فى الفترة ٦٣ - ١٩٦٥ .

فقد قالت هذه الوثائق : **« إن كنيسة المسيح تعترف بأن مبادئ عقيدتها قد بُنيَت لدى الرسل والأنبياء طبقاً لسر الخلاص الإلهى . فهى تعترف فعلاً بأن جميع المؤمنين وهم أبناء إبراهيم – حسب العقيدة – داخلون فى رسالة ذلك النبى .**

وبدافع المحبة نحو إخواننا فلننظر بعين الاعتبار إلى الآراء والمذاهب ، التى وإن تباينت كثيراً عن آرائنا ومذهبنا ، فإنها تضم نواة من تلك الحقيقة التى تُنير قلب كل إنسان يُولَد فى هذا العالَم ..

ولنعانق أولاً المسلمين الذين يعبدون إلهاً واحداً ، والذين هم أقرب إلينا فى المعنى الدينى وفى علاقات ثقافية إنسانية واسعة » .

* *

وفى عام ١٩٧٧ عُقِدَ فى قرطبة المؤتمر الثانى للحوار الإسلامى المسيحى . وقد ألقى كلمة الافتتاح **الكاردينال « أنريكى ترانكون » مطران مدريد ورئيس أساقفة أسبانيا** – فكان مما قاله :

« إنى كأسقف أود أن أنصح المؤمنين المسيحيين بنسيان الماضى ، كما يريد المجمع البابوى منهم ، وأن يعربوا عن احترامهم لنبى الإسلام .. إن المجهودات الفكرية واللاهوتية التى يتسم بها هذا المؤتمر تهدف إلى غاية بعيدة ، إلى البحث بكل أمانة عن البراهين التى تحمل المسيحيين على تقدير محمد نبى الإسلام تقديراً إيجابياً استناداً إلى العقيدة المسيحية وطرق فكرنا اللاهوتى ..

إن هذا شئ هام جداً بالنسبة للمسيحى ، إذ كيف يستطيع أن يُقَدِّر الإسلام والمسلمين دون تقدير نبيهم والقيم التى بثها ولا يزال يبثها فى حياة أتباعه ؟ إن ذلك سيكون دليلاً على عدم المحبة والاحترام للمسلمين الذين يجب أن ننظر إليهم بتقدير كما بحثنا فى المجمع الكاثوليكى .

لن أحاول هنا تعداد قيم نبى الإسلام الرئيسية الدينية منها والإنسانية فليست هذه مهمتى ، وسوف يلقيها عليكم الأخصائيون

واللاهوتيون المسيحيون بالمؤتمر .. غير أنى أريد أن أبرز جانبين إيجابيين – ضمن جوانب أخرى عديدة – وهما إيمانه بوحدة الله وانشغاله بالعدالة .

أما إيمانه بالله الأحد فهو سمة رسالته وحياته . إنها أهم عقيدة تركها لأمته .

وأما دعوته إلى العدالة مع شتّى التطبيقات الدينية والاجتماعية فهى ما تزال قائمة .. بَيْدَ أنى أود أن أخص بالذكر دعوته إلى سواسية الناس رجالاً ونساءً وإلى تحقيق العدالة بينهم » .

*

وفى مؤتمر قرطبة ألقى الدكتور « ميجيل كروث إيرناندث » بحثاً عن « الجذور الاجتماعية والسياسية للصورة المزيفة التى كوَّنتها المسيحية عن النبى محمد » – وقد جاء فيه : « سبق أن أكدتُ فى مناسبة سابقة – وأظن أننى قد قررت ذلك عدة مرات – الاستحالة من الوجهة التاريخية والنفسية لفكرة النبى المزيف التى تُنسب لمحمد ما لم نرفضها بالنسبة لإبراهيم وموسى وأصحاب النبوَّات الأخرى من العبرانيين الذين اعتُبروا أنبياء .

إنه لم يحدث أن قال نبى (منهم) بصورة بيِّنة وقاطعة – أن عالم النبوَّة قد أغلق .. وفيما يتعلق بالشعب اليهودى فإن عالم النبوة ما يزال مفتوحاً ما داموا ينتظرون المسيح المُخَلِّص ..

أما فيما يتعلق بالحركة المسيحية فإنه لا يوجد أى تأكيد قطعى يدل على انتهاء عالم النبوَّة ، وأى قارئ لرسائل القديس بولس وآثار الحواريين وسفر الرؤيا يعلم ذلك جيداً .

وفيما يتعلق بى فإن يقينى أن محمداً نبى لدرجة أننى حاولت فى دراسة لى كُتِبَت عام ١٩٦٨ أن أشرح كيف أن محمداً كان نبياً حقاً

من وجهة النظر الدينية المسيحية ، **وكيف أن الله يمكنه بل ويريد رسالة النبى للعرب برغم وجود الديانة المسيحية » .**

*

كذلك قال **« إجناثيو نايت » أستاذ تاريخ الثقافة بالجامعة المركزية بمدريد** فى بحث له ألقاه فى مؤتمر قرطبة بعنوان **« إلى أى مدى يُعْتَبر محمد نبياً من قِبَلِ المسيحين » :**

« إن محمداً هو نبى إحدى الديانات الكبرى المعاصرة .. إن الاسلام اليوم هو أكبر قوة حية وهو الذى يدفع تيَّارات العالم الثالث ويجمع بين ١٠٢ دولة من الدول النامية وغير المنحازة فى مواجهة أغنى ٣٠ دولة فى العالم الأول الرأسمالى والصناعى وفى مواجهة ٢٠ دولة من دول العالم الثانى الشيوعى .

وإذا كانت المسيحية قد تشعبت ليس فقط إلى ٢٦٠ مذهباً موجوداً الآن وإنما انقسمت إلى ثلاث شُعَبٍ كبيرة : الأرثوذكسية الشرقية ، والبروتستانت ، والكاثوليك – وكذلك البوذية تشعبت إلى المهايانة والهينيلنه والزن اليابانى – فإن الاسلام ما يزال يحتفظ بأساس وحدته .

إن الإسلام ليس استمراراً فحسب بل وتقدماً كذلك . وفى إفريقيا نجد أن هناك شخصاً يعتنق المسيحية مقابل شخصين يعتنقان الإسلام، ولا نريد أن نعرض للبوذية أو غيرها من الديانات التى تعانى من حالة انقراض واضح ..

ولماذا نرى أن الاتحاد ضرورى بين أتباع الديانات ؟ من الممكن استنتاج الإجابة مما عرضناه سابقاً ، ذلك أنه لم يحدث قط فى تاريخ الإنسانية أن زحف الإلحاد بهذه الصورة . لقد كانت الديانات تتصارع فيما بينها للسيطرة على أتباعها ولكنَّا اليوم أمام الدفاع عن العقيدة الجامعة ، أى الإيمان بالله بعد أن أصبح هذا الإيمان فى حالة خطر .

وفى نهاية الأمر ومع ترك الاختلافات الموجودة بين العديد من الديانات ،

ومع النظر فيما يجمع بيننا ، نتساءل : أليس الإله واحداً ؟ . أما فيما يتعلق بالأنبياء فهم مشتركون : محمد وموسى وعيسى .

وهكذا فإن الوحدة أمر حاسم ومهم لتخليص البَشرية وعقائدها المشتركة فى الإله .

ويجب أن يكون ذلك بالدرجة الأولى بين الديانتين الكبيرتين : المسيحية والإسلام ، حتى يمكنهما بعد ذلك جذب البوذية واليهودية والهندوكية .

ولهذا فإن الخطوة الأولى نحو الهدف الواسع والبعيد هى دراسة وفهم وتقدير عيسى ومحمد ، وعما نبيان مؤسسان ومحبوبان من جميع المؤمنين » .

* *

● المسيح ليس خاتم النبيين :

لقد تعرّض المسيح لما تعرّض له سائر الأنبياء من السخرية والتكذيب . « ولما جاء إلى وطنه كان يُعَلِّمهم فى مجمعهم حتى بهتوا وقالوا : من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ؟! أليس هذا ابن النجار ؟! أليست أمه تدعى مريم ، وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا ؟! أو ليست أخواته جميعهن عندنا ؟! فمن أين لهذا هذه كلها ؟! **فكانوا يعثرون به** » .

لقد كان المسيح عالما بتلك الحقيقة ، وأنه كنبى - مثل غيره من الأنبياء - لا بد وأن يواجه مثل تلك المواقف ، ولهذا ألقى إليهم قوله الذى يمثل حكمة صدّقتها أحداث الزمان : « فقال لهم : **ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته** » .

(متى ١٣ : ٥٤ - ٥٧ ، مرقس ٦ : ١ - ٤ ، لوقا ٤ : ٢٤ ، يوحنا ٤ : ٤٤)

لقد كانت هذه واحدة من المقولات القليلة التى اتفقت عليها الأناجيل الأربعة .

*

ولقد كان المسيح عالماً بما تقوله الأسفار المقدّسة عند بنى إسرائيل - وهو واحد منهم - عن الأنبياء الذين ظهروا فيهم ، وكان منهم قلة من الصادقين ، أهل الحق والحقيقة ، وبجانبهم كثرة كاثرة من أدعياء النبوة ومحترفيها . وفى هؤلاء الكذبة تقول أسفار العهد القديم :

« **قد رأيت فى أنبياء السامرة حماقة** . تنبأوا بالبعل وأضلوا شعبى إسرائيل .

وفى أنبياء أورشليم رأيت ما يُقشعر منه : يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادى فاعلى الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن شره .. **من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق فى كل الأرض** . هكذا قال رب الجنود : لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم . فإنهم يجعلونكم باطلاً . يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب ..

« قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا بأسمى بالكذب قائلين : حلمت ، حلمت . حتى متى يوجد فى قلب الأنبياء المتنبئين بالكذب بل هم أنبياء خداع قلبهم . **الذين يفكرون أن يُنسوا شعبى اسمى بأحلامهم** »

(أرميا ٢٣ : ١٣ - ٢٧)

« هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل : **لا تغشكم أنبياؤكم الذين فى وسطكم** وعرّافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التى تتحلمونها . **لأنهم إنما يتنبأون لكم باسمى بالكذب . أنا لم أرسلهم يقول الرب** » .

(أرميا ٢٩ : ٨ - ٩)

*

وبعد أن جاء المسيح رسولاً من الله إلى بنى إسرائيل ، وأبلغهم رسالة ربه ثم رحل عنهم ، ظهر من بعده - وخاصة بين المنتسبين إلى الطائفة الجديدة التى حملت اسمه - أنبياء كذبة وأدعياء رسالة مزيفة . وفى هذا تقول أسفار العهد الجديد : « ولما اجتازا الجزيرة إلى بافوس **وجدا رجلاً ساحراً نبياً كذاباً يهودياً اسمه باريشوع** » (أعمال الرسل ١٣ : ٦) .

« **أيها الأحباء : لا تصدقوا كل روح ، بل امتحنوا الأرواح ، هل هى من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم** .. هم من العالم ، من أجل ذلك يتكلمون من العالم والعالم يسمع لهم . نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ، ومَن ليس من الله لا يسمع لنا . من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال » (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ١ - ٦) .

« أيها الأولاد : هى الساعة الأخيرة . وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتى ، **قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون** . من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة . **منا خرجوا** ، لكنهم لم يكونوا منا لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا ، لكن ليظهروا أنهم ليسوا جميعهم منا » (رسالة يوحنا الأولى ٢ : ١٨ - ١٩) .

« **ولكن كان أيضاً فى الشعب أنبياء كذبة كما سيكون فيكم أيضا معلمون كذبة الذين يدسون بدع هلاك** » .

(رسالة بطرس الثانية ٢ : ١)

« ولكن ما أفعله سأفعله ، لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كى يوجدوا كما نحن أيضاً فى ما يفتخرون به . **لأن مثل هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح** » .

(كورنثوس الثانية ١١ : ١٢ - ١٣)

لقد كان ادعاء النبوَّة وبأ انتشر فى الشعب الإسرائيلى قبل المسيح ، ثم امتدت عدواه إلى الطائفة الجديدة التى بدأت تنشق عن اليهودية وتقيم لها كيانا مستقلاً ، وصار أتباعها يُعرَفون باسم المسيحيين (أعمال الرسل ١١ : ٢٦) . ومن أجل ذلك حذر المسيح من أدعياء النبوَّة ، فقال : « **احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تيناً** » (متى ٧ : ١٥ - ١٦) .

ومن الواضح أنه لو كان المسيح خاتم الأنبياء والمرسلين لقرر ذلك صراحة ، ولم يُكَلِّف أتباعه مشقة فحص النبوات من بعده وفق معيار الثمار التى تجتنى منها ، للتمييز بين الحق والباطل .

وما كان له أن يقول إنه خاتم النبيين بعد حديثه الصريح - الذى ذكرناه سلفاً - عن الرسول روح الحق الآتى بعده إلى العالم ، والذى يذكره الإنجيل بأنه سيكون : « **معزياً آخر** » - (يوحنا ١٤ : ١٦) ، سبقه ولا شك معزون آخرون .

*

وبجانب هذا ، تتحدث أسفار العهد الجديد عن استمرارية النبوّة الحقة بعد المسيح ، وعن وجود أنبياء حقيقيين فى الشعب المسيحى ، فتقول :

« فحدث أنهما اجتمعا فى الكنيسة سنة كاملة وعلّما جمعاً غفيراً . ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولاً .

وفى تلك الأيام انحدر أنبياء من أورشليم إلى أنطاكية . وقام واحد منهم اسمه أغابوس وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة ، الذى صار أيضاً فى أيام كلوديوس قيصر » (أعمال الرسل ١١ : ٢٦ - ٢٨) .

« **وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون** » .

(أعمال الرسل ١٣ : ١)

« ويهوذا وسيلا ، **إذ كانا هما أيضاً نبيين** ، وعظا الإخوة بكلام كثير وشدداهم » (أعمال الرسل ١٥ : ٣٢) .

« وضع الله أناسا فى الكنيسة : أولاً رسلاً ، **ثانياً أنبياء** ، ثالثاً معلمين ، ثم قوات ، وبعد ذلك مواهب شفاء أعوانا تدابير ، وأنواع ألسنة » .

(كورنثوس الأولى ١٢ : ٢٨)

« جدوا للمواهب الروحية **وبالأولى أن تتنبأوا** .. إنى أريد أن جميعكم تتكلمون بألسنة ، ولكن بالأولى أن تتنبأوا . لأن **مَن تنبأ أعظم ممن يتكلم بألسنة** ..

أما الأنبياء : فليتكلم إثنان أو ثلاثة ، وليحكم الآخرون .. لأنكم تقدرون جميعكم أن تتنبأوا واحداً واحداً ، ليتعلم الجميع ويتعزى الجميع . **وأرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء** » (كورنثوس الأولى ١٤ : ١ - ٣٢) .

« لا تطفئوا الروح . **لا تحتقروا النبوات . امتحنوا كل شيء** . تمسكوا بالحسن . امتنعوا عن كل شبه شر » (تسالونيكى الأولى ٥ : ١٩ - ٢٠) .

*

أما بعد ..

لقد كان هذا تبياناً لابد منه لما قاله **الدكتور « ميجيل كروث إيرناندث »** ، فى بحثه الذى قدّمه فى مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى بقرطبة - وذكرناه سلفاً - حين قرر أنه : « **فيما يتعلق بالحركة المسيحية ، فإنه لا يوجد أى تأكيد قطعى يدل على انتهاء عالم النبوّة (بعد المسيح) ، وأى قارىء لرسائل القديس بولس وآثار الحواريين وسِفر الرؤيا يعلم ذلك جيداً** .

*

على أن أسفار « **موسى والأنبياء** » قد بينّت للناس جميعاً كيفية التمييز بين النبى الصادق والنبى الكاذب ، فقررت أن :

١ - النبى الكاذب لا يقول : لا إله إلاَّ اللّه . فهو يزيغ الناس عن عبادة الاله الواحد الذى أنزل التوراة على موسى :

« **إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلماً** وأعطاك آية أو أعجوبة . **ولو حدثت الآية أو الأعجوبة** التى كلّمك عنها قائلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى لم نعرفها ، ونعبدها ، **فلا تسمع لكلام ذلك النبى إذ الحالِم ذلك الحِلم ، لأن الرب يمتحنكم** لكى يعلم هل تحبون الرب إلٰهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم » (تثنية ١٣ : ١ - ٣) .

٢ - النبى الكاذب يطلق نبوءات كاذبة لا تتحق :

« وإن قلتَ فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب . **فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب** ، بل بطغيان تكلَّم به النبى فلا تخف منه » .

(تثنية ١٨ : ٢١ - ٢٢)

٣ - وتكون عاقبة النبى الذى يفترى على الله الكـذب أن يعاجله الموت سريعاً :

« وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أُوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى ، **فيموت ذلك النبى** » (تثنية ١٨ : ٢٠) .

ولقد كان هذا ما حدث فعلاً للأنبياء الكذَّابين . فقد « قال أرميا النبى (الصادق) لحننيا النبى (الكاذب) : اسمع يا حننيا . إن الرب لم يرسلك ، وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب .

لذلك هكذا قال الرب : هأنذا طاردك عن وجه الأرض . هذه السنة تموت لأنك تكلمت بعصيان على الرب . **فمات حننيا النبى (الكاذب) فى تلك السنة فى الشهر السابع** » (أرميا ٢٨ : ١٥ - ١٧) .

« هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل عن **آخاب بن قولايا وعن صدقيا بن معسيا اللذين يتنبآن لكم باسمى بالكذب وهأنذا أدفعهما ليد نبوخذ ناصر ملك بابل فيقتلهما أمام عيونكم ..**

ثم صار كلام الرب إلى أرميا قائلاً : أرسل إلى كل السبى قائلاً : **هكذا قال الرب لشمعيا النحلامى . من أجل أن شمعيا قد تنبأ لكم وأنا لم أرسله وجعلكم تتكلون على الكذب . لذلك هكذا قال الرب . هأنذا أعاقب شمعيا النحلامى ونسله . لا يكون له إنسان يجلس فى وسط هذا الشعب** » (أرميا ٢٩ : ٢١ - ٣٢) .

وما كان الله لينذر إنساناً يدّعى أنه رسول الله ، كذباً وافتراءً على الله ، دون أن يعاجله بالموت . فلقد وصل ذلك الدَعى فى ظلمه إلى مداه . وفى هذا يقول القرآن العظيم :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٤٤) .

وكان حديث الله إلى الكافرين بنبوّة محمد من مشركى العرب ، ومَن على شاكلتهم حتى الآن ، أن يعلموا قضاء الله حقاً وعدلاً فى كل مفتر كذّاب ، وهو أن يعاجله بالموت عقاباً له . فقال - وقوله الحق - فى بعض أوائل آيات القرآن نزولاً :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (الحاقة : ٤٤ - ٤٧) .

نعم ...

إن بقاء محمد بن عبد الله يدعو إلى الله بصفته رسولاً منه إلى الناس بإذنه ، لمدة تزيد على اثنين وعشرين عاماً ، تعرّض فيها لمختلف المخاطر والأهوال ، وخرج منها جميعاً سالماً وقد اكتملت رسالته وأتمّ الله دينه ، ثم انتهت حياته بميتة طبيعية بين أهله وصحابته والمسلمين ، إنّ فى ذلك لبرهاناً من أقوى البراهين على صدق ما جاء به ، وآية بيّنة لأهل الكتاب - من اليهود والنصارى- الذين لا بد وأن يعوا ما تقول كتبهم فى النبوّة والأنبياء .

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ .
(الحج : ٤٦)

* * *

• المشكلة والحل :

لقد عرضنا آنفاً بعضاً مما قاله علماء المسيحية ومفكريها الدينيين فى مؤتمر قرطبة عام ١٩٧٧ ، وكيف دعوا إلى قيام وحدة بين الإسلام والمسيحية للدفاع

عن الإيمان بالله أمام تيّارات الإلحاد الزاحفة التى تدمر كل قيم الإنسان وأخلاقياته وتهوى به إلى ما دون مرتبة الأنعام .

ومن الواضح أن الحديث عن الوحدة هنا يُقصَد به وحدة الفكر الدينى وهو أمر لا يمكن تحقيقه بالتمنى ولا حتى بالنوايا الطيبة . ولكنه يحتاج إلى مراجعة للمواقف ومواجهة للحقائق وإعادة العالَم الصغير قبل توحيد العالَم الكبير .

إن المنطق يقضى بأن تقوم الوحدة المسيحية أولاً بين طوائفها المختلفة ، بعد ذلك تلتقى المسيحية الموّحدة مع الإسلام للاتفاق على ما يجمع بينهما وترك نقاط الخلاف بعد إعلانها صراحة .

وإذا أردنا مواجهة الحقائق ومعرفة سبب الفُرقة والشقاق الذى ولّدَ العداوة والبغضاء نقول ما يقوله « ستيفن رنسيمان » فى حديثه عن الشِقاق الدينى فى المسيحية : « إن الموضوع الأساسى الذى دارت حوله خصوماتهم ومنازعاتهم فكان طبيعة المسيح التى تُعتبر أهم وأعقد المشاكل فى أصول الدين المسيحى » (١) .

لقد جاءت هذه المشكلة - التى مزقت المسيحية عبر القرون ومنعت ولا تزال تمنع أى إمكانية لحدوث تقارب فكرى مع الإسلام - من بذور ألقاها بولس فى رسائله التى بدأت كتابتها بعد رفع المسيح بأكثر من ٢٠ عاماً . لقد خلط بولس بين الله والمسيح ، ومن ثَمَّ بدأ الحديث عما يُعرف بلاهوت المسيح وتجسد الإله .

يقول بولس : « الله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية ، ولأجل الخطية دان الخطية فى الجسد » .

« الله .. الذى لم يُشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين » .

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية : الجزء الأول - ص ٢٠ .

« إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً الله ، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً شبه الناس » .

ثم جاء إنجيل يوحنا الذى كُتِبَ بعد رفع المسيح بمدة تتراوح بين ٧٠ و ٩٠ عاماً ليُكَرِّس فكرة الخلط بين الله والمسيح وتجسيد الله ويقول : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » .

هذه هى المشكلة العقائدية التى تمنع كل وحدة ، والحل الوحيد هو الالتزام بما تذكره الأناجيل من ألقاب وأسماء للمسيح قَبِلَها بل ودعا إلى التمسك بها . لقد أجمعت الأناجيل على أن المسيح هو : ابن الإنسان - ابن داود - رسول الله - نبى - سيد - ومُعَلِّم ..

ويكفى التذكرة بما قاله المسيح لتلاميذه : « **أنتم تدعوننى مُعَلِّماً وسيداً ، وحسناً تقولون لأنى أنا كذلك** » .

لقد بيَّن البحث العلمى الذى قام به سبعة من علماء المسيحية المعاصرين أن الحديث عن تجسد الله إنما يعنى خرافة .. ولقد جاء ذلك فى كتاب جمع بحوثهم ونُشِرَ فى لندن عام ١٩٧٧ تحت عنوان « **أسطورة تجسد الإله** » (١) .

تقول مقدمة الطبعة الخامسة لهذا الكتاب - والتى صدرت عام ١٩٧٨ - عن تطور المسيحية الغربية فى مواجهة معارف الإنسان الحديثة منذ القرن التاسع عشر :

« إنها قبلت التسليم بأن أسفار الكتاب المقدس كتبها مجموعة من البَشر فى ظروف متنوعة ولا يمكن الموافقة على اعتبار ألفاظها تنزيلاً إلٰهياً .

إن المعارف الإنسانية تستمر فى النمو بمعدل متزايد ، كما أن الضغط على المسيحية يقوى أبداً مما يجعلها تُكَيِّف نفسها لتصير شيئاً يمكن الإيمان به ، إيمان أهل الفكر الواعى والإخلاص أولئك الذين جذبتهم إليها بعمق شخصية يسوع وما تُلقيه تعاليمه من أضواء على معنى حياة الإنسان .

---

(١) The Myth of God Incarnate, Edited by John Hick

إن المشتركين فى هذا الكتاب مقتنعون أن تطوراً لاهوتياً آخر لا بد منه فى هذا الجزء الأخير من القرن العشرين . وتتبع الحاجة إليه من تطور معرفتنا بمصادر المسيحية ، ويتضمن ذلك اعترافاً أن يسوع كان - كما يُقدّمه لنا سفر أعمال الرسل (٢ : ٢١) (١) - رجل قد تبرهن من قِبَلِ الله ، لأداء دور معين خلال هدف إلهى ، وأن التصور الذى لحق به أخيراً باعتباره الإله المتجسد ، والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس الذى عاش حياة البَشر ، إن كل ذلك إلا أسلوب أسطورى أو شاعرى للتعبير عما يعنيه بالنسبة لنا .

إن هذا الاعتراف أصبح لازماً لصالح الحقيقة ..

ولنقلها الآن : إن ما نأمل فيه هو تنقية الحديث عن الله وعن يسوع من الخلط والتشويش ، وبذلك يتحرر الناس لخدمة الله فى طريق المسيحية باستقامة وكمال » .

* *

حقاً إن تحقيق الوحدة بين المؤمنين بالله والمؤمنين بالمسيح ليس له من سبيل سوى الكف عن الخلط بين الله والمسيح ، ثم تقديس الله بما يتفق وجلاله ، ثم الإيمان بأن المسيح « رجل قد تبرهن من قِبَلِ الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده » وأنه كان فقط « إنساناً نبياً مقتدراً فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب » (لوقا:٢٤:١٩) .

ولا مجال - إذن - للحديث عن المسيح بأكثر من هذا الذى تقوله أسفار العهد الجديد .

---

(١) يقصد هنا ما قاله بطرس : « أيها الرجال الإسرائيليون .. اسمعوا هذه الأقوال : يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون » .

لقد وضحت المشكلة الآن ووضح حلها الوحيد ، لو جنح مَن يهمهم الأمر إلى العقل والصدق مع أنفسهم قبل الصدق مع الآخرين . والنتيجة المنطقية لذلك أن يكف المسيحيون عن التبشير بالمسيحية بين المسلمين بعد أن اتحدت بينهم أسس العقيدة ، وأن يوجهوا نشاطهم إلى الوثنيين والمرتدين من الملاحدة الشيوعيين .

وآنذاك ينعم العالم بسلام لم يشهده من قبل ، سلام من الله ، وسلام بين المؤمنين ، ثم سلام مفروض بعد ذلك على البقية من غير المؤمنين .

*   *   *

بيان للناس

إن خير ما نختم به كتاب « النبوة والأنبياء » أن نضع كل إنسان أمام مسئوليته الفردية التى يتوقف عليها مصيره الأبدى كما يتوقف عليها صلاح حال الدنيا وتحقيق حياة أفضل للإنسان .

إن القرآن كتاب الله قد نزل من أجل كل الناس ، فالواجب المقدس يقتضى أن يلم كل إنسان بهذا الكتاب الذى جاء من أجله ، وعليه بعد ذلك أن يقرر ما يشاء .

*

يقول الله لكل الناس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ويقول الله لرسوله فى القرآن وعن طريقه يقول للناس : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٨) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

(يونس : ١٠٨-١٠٩)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

(الحج : ٤٩ - ٥١)

ويقول الله لليهود والنصارى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥ - ١٦) .

صدق الله العظيم

* * *

قائمة المراجع الرئيسية

١ - الأديان فى إفريقية المعاصرة (الرب والله وجوجو) : جاك مندلسون ترجمة إبراهيم أسعد - دار المعارف .

٢ - تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان - ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى - دار العلم للملايين - بيروت .

٣ - تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رنسيمان - ترجمة الدكتور السيد العرينى - دار الثقافة - بيروت .

٤ - موسوعة تاريخ العالم : أصدرها وليم لانجر - أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - مكتبة النهضة المصرية .

٥ - الإسلام قوة الغد العالمية : باول شميتز - ترجمة الدكتور محمد شامة - مكتبة وهبة .

٦ - دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : موريس بوكاى - دار المعارف .

٧ - الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية : إبراهيم خليل أحمد - مكتبة الوعى العربى .

٨ - تفسير ابن كثير .

٩ - البداية والنهاية : ابن كثير .

١٠ - حياة محمد : الدكتور محمد حسين هيكل - دار المعارف .

١١ - مطلع النور : عباس محمود العقاد - دار الهلال .

١٢ - محمد فى حياته الخاصة : الدكتور نظمى لوقا - مكتبة غريب .

١٣ - الكنز الجليل فى تفسير الإنجيل : صدر عن مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى - بيروت .

١٤ – تفسير العهد الجديد : الدكتور وليم باركلى – ترجمة الدكتور بطرس عبد الملك وآخرين – دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية .

١٥ – فلسطين بين الحقائق والأباطيل : أحمد عبد الوهاب – مكتبة وهبة .

١٦ – محمد فى الكتاب المقدس (القس سابقاً) عبد الأحد داود ، ترجمة فهمى شتا – طبعة دار الضياء للنشر والتوزيع – الأردن عمان .

* *

17 - E. W . Heaton : the Old Testament Prophets, Penguin Books, 1964 .

18 - J. C. Fenton : Saint Matthew, Penguin Books,1963 .

19 - D. E. Nineham : Saint Mark, Penguin Books. 1963 .

20 - G. A. Wells : The Jesus of The Early Christians, Pemberton Books, London, 1971 .

21 - Peter Whiteley : Frontier Mission, Anglican Book Centre, Toronto, 1963 .

22 - ENCYCLOPEDIA AMERICANA , 1959 .

23 - ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 1960 .

24 - John Hick (and others) : The Myth of God Incarnate, edited by John Hick, London, 1978 .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الرسول فى القرآن
(١٧٣ - ١٩٧)

قبس من سيرة الرسول
(١٩٨ - ٢٠٧)

معجزات الرسول
(٢٠٧ - ٢٧٤)

محمد نبى الملكوت
(٢٧٥ - ٢٩٦)

*

كتب للمؤلف

١ - تعدد نساء الأنبياء .. ومكانة المرأة فى اليهودية والمسيحية والإسلام .

٢ - اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس .. وتطورات هامة فى المسيحية .

٣ - المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ..

(خلاصة أبحاث علماء المسيحية فى الغرب) .

٤ - حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر .

٥ - النبوّة والأنبياء .. فى اليهودية والمسيحية والإسلام .

٦ - الوحى والملائكة .. فى اليهودية والمسيحية والإسلام .

٧ - طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون .

٨ - إسرائيل حرّفت الأناجيل والأسفار المقدسة .

٩ - أساسيات العلوم الذرّية الحديثة فى التراث الإسلامى

١ - The Christ as Seen in The Sources Of The Christian Beliefs .

* * *

(١) تطلب من مكتبة وهبة : ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٣٩١٧٤٧.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٩/٤٩٣٧
الترقيم الدولى 6 - 95 - 7236 - 977

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢